ذخائر التراث العربي

الدِّين والدَّولة

في إثبات نبوّة النبيّ محمّد ﷺ

تأليف

علي بن ربَّن الطبري

ساعده فيه الخليفة العبّاسي المتوكّل على الله

حقّقه وقدّم له

عادل نويهض

منشورات - دار الآفاق الجديدة - بيروت

الطبعة الأولى
١٣٩٣ هجرية
١٩٧٣ ميلادية

ترجمة المؤلف :

هو أبو الحسن علي بن سهل ، ويعرف بابن ربن الطبري • طبيب حكيم ، انفرد بالطبيعيات ، وكان من العلماء في الأديان •

لم يضع ترجمة ذاتية لنفسه ، ولو كان فعل ، لاطلع عليها مترجموه من المتقدمين وقدموا لنا ترجمة أوفى مما ورد في كتبهم • فجميع المصادر التي ترجمت له أغفلت أسماء آبائه وأجداده ، ولم تعطنا تأريخا لميلاده أو لوفاته، أو ما يمكّننا من تكوين صورة واضحة المعالم والزوايا عن حياته ، بل ان جميعها لم تقدم لنا الا نبذة يسيرة عنه •

فاذا لم يكن بين أيدينا سوى هذه النبذة اليسيرة ، كيف يتسنى لنا اذن أن نصوره صورة تكاد تقترب من الحقيقة ؟

الواقع اننا نعتمد في هذا على ما ذكره مترجموه ولو كان يسيرا ، ثم على تنف مبعثرة في ثنايا كتابيه « فردوس الحكمة » و « الدين والدولة » ، وهو هذا الكتاب القيم الذي نقدمه اليوم لقراء العربية تحت كل سماء وكوكب •

•

في جميع ما كتبه عنه المتقدمون خلاف في اسم أبيه • فهو عند ابن جرير الطبري (١) ــ وهو أقدم من ذكره ــ علي بن ربن النصراني (٢) ، وعند المسعودي (٣) علي بن زيد (٤) وعند ابن النديم (٥) علي بن سهل بن ربل (٦) وعند ابن أبي أصيبعة (٧) علي بن سهل ابن ربن (٨) وعند ياقوت (٩) علي بن ربن (١٠) وعلي بن زين ورزين (١١) وعند ابن خلكان (١٢) علي بن زين (١٣) وعلي بن ربن (١٤) وعند القفطي (١٥) علي بن ربن (١٦) •

هذه الشهرة ، ابن ربن ، التي عرف بها الرجل ، والتي لا تخلو المصادر المذكورة من اختلاف الأقوال فيها ، لم أجد أحدا تسمى بها ، أو نسب اليها قبله ، على كثرة ما رجعت اليه من مصادر ، سوى ما ذكره ابن أبي أصيبعة نقلا عن كتاب في أخبار الاطباء ليوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية وهو قوله : ثم اني دخلت يوما على جبرائيل بن بختيشوع ، وقد انحدر من معسكر المأمون قبل وفاته بمدة يسيرة ، فوجدت عنده حنينا وقد ترجم له أقساما قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس في التشريح ، وهو يخاطبه بالتبجيل ويقول له: يا ربن حنين، وتفسيره ربن المعلم، فأعظمت ما رأيت (١٧) • واعتقادي ان عدم وضوح المعنى الصحيح لهذه الشهرة ــ ابن ربن ــ في أذهان المتقدمين، هو الذي خلق هذا الالتباس بينهم فوقع التحريف بالاسم • ولقد احتفظ لنا ابن القفطي بنص هام من « وضعه » يلقي ضوءا قويا على مدى هذا التحريف الذي حصل ، فهو يقول : « ربن طبيب يهودي منجم ، من أهل طبرستان ، كان حكيما طبيبا عالما بالهندسة وأنواع الرياضة ، وحلّ كتبا حكمية من لغة الى لغة أخرى ، وكان ولده علي طبيبا مشهورا انتقل الى العراق وسكن سر من رأى

(سامراء) • وربن هذا كان له تقدم في علم اليهود • والربن والربين والراب أسماء لمقدمي شريعة اليهود • » (١٨)

أغلب الظن ، ان القفطي ، ومن تقدمه ممن أتى على ذكر ابن ربن فحرفوا اسم والده ، لم يطلعوا على ما ذكره علي نفسه في مقدمة كتابه « فردوس الحكمة » عند ذكره لأبيه وتفسيره لمعنى « ربن » •

يقول علي : « وكان أبي من أبناء كتّاب مدينة مرو وذوي الأحساب والآداب بها ، وكانت له همة في ارتياد البر وبراعة ونفاذ في كتب الطب والفلسفة ، وكان يقدم الطب على صناعة آبائه ، ولم يكن مذهبه فيه التمدح والاكتساب بل التأله والاحتساب ، فلقب لذلك بـ« ربن » وتفسيره عظيمنا ومعلمنا » (١٩) •

ومع ذلك ، فقد كان للنص الذي ذكره القفطي « حظ وافر من العناية » عند المستشرقين ، فتلقفوه على علاته ، وبنوا على أسسه هياكل آرائهم وأبحاثهم الخاصة بابن ربن ، فجردوه من اسلامه ، وأنكروا عليه نصرانية أسرته ، وهوّدوه بسهولة ، فعدّه أحدهم من أطباء اليهود (٢٠)، وعدّه آخر من كتّاب اليهود في الادب العربي (٢١) •

ولم يقف الأمر في تهويد الرجل عند المستشرقين ، فكاتب مادة ابن ربن « في دائرة المعارف «للبستاني» سار في خطاهم أيضا ، فهو يقول : « يدل اسمه على أنه كان يهودي الأصل ، وهو ما يؤيد قول صاحب « الفهرست » انه أسلم على يد المعتصم » (٢٢) •

ولأهمية هذه الآراء في تحريف الحقائق، سأورد للقارىء الكريم

أيضا نصا ذكره ابن ربن نفسه، يثبت أنه ليس يهوديا ولم يكن يهوديا، وانه من أسرة نصرانية عريقة في نصرانيتها ، كان هو من حملة لوائها ودعاتها . ثم هداه الله الى الاسلام ، فاعتنقه ، و « من يهد الله فهـو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » (الكهف : ١٧) « وانك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » (القصص : ٥٦) .

قال ابن ربن في الفصل السادس من هذا الكتاب (الدين والدولة) : (ومن آيات النبي (صلعم) هذا القرآن ، وانما صار آية لمعان لم أر أحدا من مؤلفي الكتب في هذا الفن فسّرها، بل أطلق القول والدعوى فيه . وما زلت وأنا نصراني أقول ، ويقول عم لي كان من علماء القوم وبلغائهم ، ان البلاغات ليست من آيات النبوة لأنها مشتركة في الأمم كلها ، حتى اذا اعتزلت التقليد والألف ، وفارقت لزاز العادة والتربية ، وتدبرت معاني القرآن ، علمت أن الامر فيه كما قال أهله .. » .

وقال قبل ذلك في مقدمة الكتاب : « الحمدلله على دين الاسلام الذي من ألفه فاز ، ومن قام به اهتدى ومن نصره نجا ، ومن ناصبه هلك . به عرف الباريء ، وعليه تحوم الامم ، واليه تشوقت النفوس، وبه نيل الامل عاجلا وآجلا ، لأنه النور المعمور ، والجسر المعبـور ، الى دار السلامة والخلود الذي لا كدر فيه ولا غرور ، فجعلنا الله من أهل السنة ، وجنّبنا الباطل وما يجني على أهله ... »

وقال في رده على من ذكر أن المهاجرين والانصار دخلوا في الدين مـن غير آية : « فان قال قائل مثل الذي كان يحتج به عم لي كـان مشهورا بالجدل والبراعة، معروفا في أفق العراق وخراسان بأبي زكريا يحي بن النعمان، قال في كتاب ألفه في الرد على أهل الاديان : انه بحث

عن الاسباب التي دخل فيها عدة من المهاجرين والسابقين الاولين ، ومن دخل معهم في الاسلام من الرجال والنساء ، فلم يجد أحدا دخل فيه لآية رآها وعلامة أتى بها • فكانت هذه عندي حجة قوية جدا ما زلت معتزا بها ، عميا عنها ، حتى اذا انسلخت من دينه ، رأيت الجواب عنها سهلا والمخرج فسيحا ••• » •

لم يرد فيما نقلناه من كلام ابن ربن ما يشير الى يهوديته ، وهذا دليل قاطع على أن التفسير الذي وضعه القفطي ، وتلقفه عنه بعض المستشرقين وغيرهم ، هو تفسير خاطىء • ثم ان ما ذكره المستشرق نولدكه (٢٣) عن أبي علي انه ربما كان من أعظم أعضاء صومعة النصارى ، ولذلك اشتهر بربن (٢٤) فيه اقرار بنصرانيته لا بيهوديته• ولو كان يهوديا لما كان المؤرخ المفسر الامام ، الطبري ، وصفه بعلي ابن ربن النصراني •

أيضا ، أحب أن ألفت الانظار ، الى أن التحريفات والاختلافات التي وقعت في كتب المتقدمين ، حول اسم أبي علي وشهرته ، جعلت المستشرق فلوغل (٢٥) يزعم أنه علي بن ذبل أو دبل (٢٦) والمستشرق فيستنفيلد (٢٧) يزعم أنه علي بن زين (٢٨) • كما جعلت المستشرق هامر (٢٩) يظن أن عليا بن سهل غير علي بن ربن ، وان أحدهما كان شيخا لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي ، وثانيهما تلميذه (٣٠) •

ولادتـــه :

قلنا ان جميع مصادر ترجمته لا تعطينا تاريخا لميلاده ، والأرجح انه ولد في أواخر أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨هـ) أو في أوائل خلافة المهدي بالله (١٥٨ ــ ١٦٩هـ) وقد استنتجنا ذلك من نص له في كتابه فردوس الحكمة • قال في الباب العاشر : « ورأيت

بطبرستان ، وأنا أصلي مع أبي صلاة العشاء ، نارا ارتفعت من التيمن ومرت الى الجريبا شبه اسطوانة غليظة طويلة ، فلم يلبث ملك جبالها أن اضطرب أمره وأزعج عن بلاده، ثم عاد اليها بعد هول قاساه ونقص دخل عليه في ملكه » (٣١) •

وملك طبرستان ، ذلك الوقت ، ونداد هرمز • يذكر ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٧هـ (٧٨٣/٧٨٤م) ان الخليفة المهدي وجه اليه جيشا كثيفا بقيادة ابنه موسى الهادي فحاصره • ويقول في حوادث سنة ١٨٩هـ (٨٠٥م) ان الخليفة هارون الرشيد كتب الى ونداد أمانا، فقدم الى الخليفة ، فأحسن اليه وأكرمه • (٣٢)

ويقول ابن كثير في حوادث سنة ١٦٧هـ : « وفيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي الى جرجان فيجيش كثيف لم ير مثله••• وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة ، ثم ذكر أن في هذه السنة أظلمت الدنيا لثلاث بقين من ذي الحجة حتى تعالى النهار • » (٣٣)

فاذا صح أن الحادثة التي أشار اليها ابن ربن تتعلق بما ذكره المؤرخان ابن الأثير وابن كثير ، وهو ما ذكره ابن اسفنديار (٣٤) في تاريخ طبرستان (٣٥) يكون استنتاجنا في محله ، وبخاصة ، اذا علمنا أن ابن ربن كان حيا سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م) حين ألف كتابه « الدين والدولة » ، أي أنه كان في نحو التاسعة والثمانين من عمره ، وانه كان ــ حين رأى النار ــ في نحو العاشرة من عمره •

اسرته :

باستثناء ما ذكره ابن القفطي عن ربن ، ونقله ابن أبي أصيبعة فاننا لا نجد ذكرا لأسرة ابن ربن في مصادر ترجمته • ولكن هو نفسه،

أتى على ذكر أبيه ، وعمه ، ــ وقد ذكرنا قوله سابقا ــ فأفادنا أنه من بيت علم وأدب ودين (مسيحي) ، عرف بعضهم في أفق العراق وخراسان ، وتولى بعضهم أهم الاعمال لولاة طبرستان ، وان عمه ، الذي كان مشهورا بالجدل والبراعة ، ألف كتابا في الرد على أهل الاديان . ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا ولم يذكره أحد من المؤرخين والباحثين . ويقول القفطي في ترجمة ربن أن أبا معشر الفلكي (ت ٢٧٢هـ) سئل عن مطارح الشعاع فذكرها ، وقال : ان المترجمين لنسخ المجسطي عن اليونانية ما ذكروا الشعاع ولا مطارحه ، ولا يوجد ذلك الا في النسخة التي ترجمها ربن (٣٦) . وقد كذب قول ابن القفطي المستشرق الايطالي نلينو (١٨٧٢ ــ ١٩٢٨ م) (٣٧) .

شيوخه :

لم تذكر لنا المصادر أسماء شيوخه (٣٨) ، ولا نعلم عن دراسته الا ما ذكره هو في مقدمة كتابه فردوس الحكمة من أنه أخذ عن والده علم الطب ، فقال : « وكان أفهمني منه ــ الطب ــ في صغري ما لم أدع التزيد اليه بقدر ما قسم الله لي منه ، وعلى حسب ما أعان عليه الزمان والطبع ... »

ولكن كل من يقرأ كتابيه « فردوس الحكمة » و « الدين والدولة » يتأكد له أن عليا كان عارفا بالهندسة والفلسفة ، وباللغات العربية والسريانية وقليلا من اليونانية ، كما كان عالما بالجدل .

فمن قام بتعليمه ذلك كله ؟

اعتقادنا ، أن الفضل في تعليمه يعود الى والده الذي « كانت له براعة ونفاذ في كتب الطب والفلسفة والآداب » ، والى عمه الذي

« كان مشهورا في الجدل والبراعة » • ثم يعود الفضل اليه نفسه، لأنه أكب على دراسة مصنّفات السابقين ، العربية والمترجمة ، حتى زوّد نفسه بذخيرة من العلوم ظهرت نتائجها في كتابيه •

فهو يقول في « فردوس الحكمة » (ص ٨) انه ألفه واستنبطه وجمعه « من كتب أرسطو وسائر الفلاسفة في الطب وغير ذلك ، ومن كتب عدة من أهل زمانه ، وانه فتش كتبا كثيرة من كتب الحكماء المحمودين المشهورين ، وأخذ صفوها وثمارها وطرائف معانيها ، فلم يشذ عنه ولم يفته من أصولها وفصولها وفصوصها وفروعها الا اليسير القليل ••• الخ » •

وتولى ابن ربن الكتابة لملك طبرستان ، أثناء تأليفه « فردوس الحكمة » ثم حدث له ما أزعجه فغادر طبرستان الى العراق قبل أن ينهي الكتاب •

قال في مقدمة « فردوس الحكمة » : « ولقد اجتمع ذلك لي (أي مواد أبواب الكتاب) في عدة سنين ، وبعد تعب وسهر مع أشغال دائمة مما كنت أتولى من كتابة ملك بلادي ، فما كنت أتفرغ لجمعه الا في أوقات يحتاج البدن فيها الى نصيبه من الراحة والجمام ، لكن النفس كانت تأبى الا شهوتها واحتسابها وتقديم العناية به على المنافع والملاهي والسكون ، فلما شارفت الفراغ منه ، عرض لي حادث من الدهر أزعجني عن بلادي الى مستقر الملك الأعظم وأمرني بملازمة بابه في بعض أعماله ، فعاق ذلك أيضا عما أردت الى الوقت الذي أذن الله تعالى في اتمامه ، في مدينة « سرّ من رأى » ، وذلك في السنة الثالثة

من خلافة العدل المؤيد الوهاب ، جعفر الامام ، المتوكل على الله أمير المؤمنين » •

رحلتـــه :

لنا أن نتساءل : متى رحل ابن ربن الى العراق « الى مستقـر الملك الأعظم » الذي أمره بملازمة بابه في بعض أعماله ؟ ومن هو هذا الخليفة أو الملك الأعظم ؟

لم نعثر على جواب في كتب المتقدمين • ولكن ابن ربن نفســه يذكر أنه كان في مدينة «سرّ من رأى» في أواخر أيام الخليفة هارون، وابن النديم يقول : أنه أسلم على يد المعتصم فقربه ، وظهر بالحضرة فضله » ، وفي تاريخ طبرستان «انه تولى الكتابة في ديوان المعتصم» •

فلنأخذ كل قول على حدة ونحلله ، وبذلك نستطيع أن نرجّح في أي زمن دخل ابن ربن الى العراق •

١ ــ يقول ابن ربن : « وملّك الله هارون ، فرأيت في زمانه بعد المساء ، وأنا بسر من رأى (سامراء) كوكبا قد انقض عن ناحية التيمن ووقـع الى الجربيا وتمدد في السماء ، والتوى التواء شبيها بخـط الكتاب فمات هو ــ أي هارون ــ بعد أيام، بعد علة شديدة قاساها • وظهر قبل موته بأشهر نار مستطيلة في السماء بقيت بعد نصف الليل الى قريب من الصبح • » (٣٩)

فأي هارون يقصد ابن ربن ؟ هارون الرشيد الذي ولي الخلافة من سنة ١٧٠ الى ١٩٣هـ ، أم الواثق بالله هارون بن محمد الذي ولي الخلافة من سنة ٢٢٧ الى سنة ٢٣٢ هـ ، وكلاهما مات بعلة قاسى منها ؟

انه يقصد الواثق بالله هارون بن محمد • فمدينة «سر من رأى» لـم تعرف بهـذا الاسم الا بعد أن اتخذهـا الخليفة المعتصم باللـه (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) عاصمة له سنة ٢٢٢هـ حين ضاقت بغداد بجنده ، أي بعد وفاة هارون الرشيد بحوالي عشرين عاما •

ثم ، ان ابن ربن يقول بعد النص السابق : « وكان ظهر بمرو ، وعبدالله المأمون أمير المؤمنين بها ، حمرة في قـدر ثلث مما يظهر في دائرة الشمس ، وبقيت عدة ليال ، فقتل الملك وزيره ، وانتقل عن مرو الى العراق » •

والمأمون ابن هارون الرشيد ، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ ، وبعد مرور حوالي خمسة أعوام على وفاة أبيه الرشيد ، فلو كان يقصد بقوله « وهلك الله هارون » هارون الرشيد ، لما كان قال بعده : « وكان ظهر بمرو وعبدالله المأمون أمير المؤمنين بها » بل : ثم ظهر •

٢ ـ يقول ابن النديم : « وكان يكتب للمازيار بن قارن ، فلما أسلم على يد المعتصم قربه وظهر بالحضرة فضله ، وأدخله المتوكل في جملة ندمائه » • (٤٠)

المعتصم بالله ولي الخلافة من سنة ٢١٨ الى ٢٢٧هـ • وفي أيامه (سنة ٢٢٤ هـ) أظهر مازيار بن قارن الخلاف عليه بطبرستان وعصى وقاتل عساكره ، فاعتقل ـ في قصة طويلة ـ ، ثم سيق للمعتصم فأمر بقتله ، فقتل في نفس السنة أو في التـي تليها على مـا في « الكامل » لابن الأثير •

وابن ربن يذكر في مقدمة كتابه فردوس الحكمة انه كان يكتب لملك بلاده ، ولكنه لم يذكر اسم ذلك الملك . والذي يؤكد لنا انه مازيار ، كما ذكر ابن النديم ، هو قول ابن ربن بعد ذلك : « ثم عرض لي حادث من الدهر أزعجني عن بلادي الى مستقر الملك الأعظم وأمرني بملازمة بابه في بعض أعماله » فالحادث هو اظهار مازيار الخلاف على المعتصم ، ثم وقوعه في قبضته وقتله .

٣ ـ يقول ابن اسفنديار ان ابن ربن تولى الكتابة في ديوان المعتصم . أي ان ابن ربن كان في ايام المعتصم ببغداد .

ونحن نذهب الى اكثر من ذلك فنقول ، ان ابن ربن دخل العراق في ايام المعتصم بالله ، لأن رحيله « الى مستقر الملك الأعظم » كان بعد حادث مازيار ، أي خلال سنة ٢٢٤ او سنة ٢٢٥ هـ . فأمره الخليفة « بملازمة بابه في بعض اعماله » وهذا مما يؤكد صحة قول ابن اسفنديار .

يبقى امامنا قول ابن النديم ان ابن ربن اسلم على يد المعتصم ، وهو قول لم نعثر على مصدر يؤكده . ولكن ابن ربن ، في خاتمة كتابه « الدين والدولة » ـ وهو هذا الكتاب ـ ، يذكر قولا نشتم منه أنه أسلم على يد المتوكل ، فهو يقول : « وقد تم في كتابي هذا « الدين والدولة» فساد اليهودية وبطلانها، ومخازي الثنوية والدهرية وخلالها، ليتبين الناظر انكسارها وانكسافها ، وان النور الساطع والايمان الهادي هو الاسلام وحده ، ولله الشكر على ما هداني ، ثم لعبده وخليفته جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، على ما ندبني له ، واجترني وغيري من أهل الذمة اليه ترغيبا منه وترهيبا ،

واحتسابا وحبا منه للناس كافة ، ولذلك صيَّرت الباب الأول من كتابي هذا في وصف ما شعرت أمتي من مكارمه وآثار نعمته ورفق سياسته ويمن دولته وكثرة فتوحه ، وما يجب على أهل الملة والذمة من حبه وطاعته وشكره • » •

ورغم أن ابن ربن أسهم في عصر المعتصم بقسط كبير من علمه ومجهوده الطبي حتى « ظهر في الحضرة فضله » الا أنه نبغ واشتهر في ولاية المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ = ٨٤٦ ــ ٨٦١ م) الذي كان من جملة ندمائه ، على ما في الفهرست لابن النديم ، وأنهى في عهده كتابه « فردوس الحكمة » كما ألف كتابه « الدين والدولة » •

ولكن أين ألف ابن ربن بقية كتبه وهي تزيد على العشرة وبخاصة الطبية منها ؟ هل في مدينة سر من رأى أم في مرو مسقط رأسه ؟

الأرجح أنه ألفها بعد استقراره في العراق • فهو لم يستطع اتمام كتابه فردوس الحكمة في مسقط رأسه مرو كما ذكرنا سابقا ، ثم أتمه في سامراء في السنة الثالثة من خلافة المتوكل ، ولم يرد في الفردوس أي ذكر لمؤلفاته الأخرى سوى ما ورد عن الترجمة السريانية للفردوس نفسه (٤١) ، وحتى هذه الترجمة وضعت بعد اتمام الكتاب كما يقول المؤلف ، أي في سامراء •

ابن ربن والرازي :

يقول القفطي في ترجمته لابن ربن : « وجرى بطبرستان فتنةخرج لأجلها الى الري فقرأ عليه محمد بن زكريا الرازي واستفاد منه علما كثيرا » • وقال ابن أبي أصيبعة « وهو معلّم الرازي صناعة الطب» • وقال ابن خلكان من خلال ترجمته لأبي بكر الرازي : وكان اشتغاله

بالطب على الحكيم أبي الحسن علي بن ربن الطبري » • ومثله في كثير من مصادر ترجمة الرازي .

وهذا القول الذي ذكره المؤرخون مستحيل من حيث التسلسل التاريخي • فالرازي ولد بالري سنة ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) ، وابن ربن رحل (كما ذكرنا) عن طبرستان خلال سنة ٢٢٤ (٨٣٩ م) أو سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) ، واذا كان قد مر بالري وهو في طريقه الى بغداد ، يكون ذلك قبل مولد الرازي بحوالي ربع قرن •

فاذا قيل : ربما لقيه ببغداد ، قلنا : ان الرازي انتقل الى بغداد بعد سن الثلاثين ، أي نحو سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ولم يكن ابن ربن على قيد الحياة في هذا التاريخ، ثم ان الرازي ــ كما يقول مترجموه ــ عكف على دراسة الطب في كبره •

تاريخ وفاته :

لسنا ندري في أي سنة مات ابن ربن ، فكتب المتقدمين لم تذكر ذلك • وفي « هدية العارفين » (٤٢) للبغدادي ، انه توفي بعد سنة ٢٦٠ هـ ، وهذا قول لا نستطيع الأخذ به او الاعتماد عليه ، فابن ربن ــ كما رجّحنا سابقا ــ ولد في أوائل خلافة المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) فيكون عمره حين مات حسب رواية البغدادي نيف ومائة واثنتي عشرة سنة • ولو كان هذا الأمر صحيحا لذكره المؤرخون الذين اعتنوا بوفيات المعمّرين من أعلام المسلمين •

ولكن من المؤكد ان ابن ربن كان حيا قبل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) وهي السنة التي قتل فيها المتوكل باغراء ابنه المنتصر ، فهو يقول في

خاتمة كتاب « الدين والدولة » عند ذكره للمتوكل : « أطال الله بقاءه » ولو كان ألّفه بعد هذه السنة ، أي بعد مقتل الخليفة ، لقال : رحمه الله • ولكن لا يظنن أحد ان بقولنا هذا نجزم أن الرجل مات قبل مقتل المتوكل ، فقد يكون عاش بعده قليلا ولكنه لم ينقّح كتابه •

مؤلفات ابن ربن :

ترك ابن ربن عددا من الكتب هي :

١ ــ فردوس الحكمة ، وهو من أقدم المؤلفات الجامعة لفنون الطب• ذكره ابن النديم وابن أبي أصيبعة والقفطي والمسعودي وابن خلكان وياقوت وغيرهم • حققه ونشره الدكتور محمد زبير الصديقي سنة ١٩٢٨ •

٢ ــ الدين والدولة (وهو هذا الكتاب) لم يذكر في أي مصدر من مصادر ترجمته •

٣ ــ في الامثال والأدب على مذاهب الفرس والروم والعرب • ذكره ابن النديم في باب اسماء الكتب المؤلفة في المواعظ والآداب ، والفيروزآبادي في قاموسه •

٤ ــ تحفة الملوك • ذكره ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة ، والبغدادي في هدية العارفين •

٥ ــ منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير • ذكره ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة والبغدادي •

٦ ــ حفظ الصحة • ذكره ابن أبي اصيبعة والبغدادي •

٧ ــ كتاب في الحجامة • ذكره ابن أبي أصيبعة والبغدادي •

٨ ــ كتاب في ترتيب الأغذية • ذكره ابن أبي أصيبعة والبغدادي •

٩ ــ كتاب في الرقي • ذكره ابن أبي أصيبعة •

١٠ ــ كتاب ارفاق الحياة (وقيل عرفان الحياة) • ذكره ابن ابي أصيبعة •

١١ ــ كتاب الرد على اصناف النصارى • ذكره المؤلف في هذا الكتاب (الدين والدولة) •

١٢ ــ الترجمة السريانية لفردوس الحكمة • ذكرها المؤلف في مقدمته لكتابه فردوس الحكمة •

وذكر لــه ابن النديم وابــن القفطي كتاب « كناش الحضرة » وليس هذا بكتاب مستقل • انما هو « فردوس الحكمة » نفسه ، فابن ربن يقول في هذا الكتاب (ص ٨) : فاسم هذا (الكناش) فردوس الحكمة ، فأما لقبه فبحر المنافع وشمس الآداب • »

كما ذكر له ابن اسفنديار كتاب « بحر الفوائد » وهذا الكتاب لم يذكر في أي مصدر من مصادر ترجمة ابن ربن ، والأرجح انه كتاب « فردوس الحكمة » الذي قال المؤلف ان لقبه « بحر المنافع » فحرف الاسم اثنــاء الترجمة •

عــادل نويهض

بيروت في الأول من رجب سنة ١٣٩٣ هـ •

الموافق ٣٠ تموز سنة ١٩٧٣ م•

الهوامش

١ ــ هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، المؤرخ المفسر الامام . ولد في آمل سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) وتوفي ببغداد سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) . له « جامع البيان في تفسير القرآن » ويعرف بتفسير الطبري ، و « أخبار الرسل والملوك » ويعرف بتاريخ الطبري ، وغير ذلك .

٢ ــ تاريخ الطبري ، طبعة ليدن (١٨٧٦ ــ ١٩٠١) صفحة ١٢٧٦

٣ ــ هو أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي مؤرخ ، رحالة ، بحاثة . من أهل بغداد ، أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) . له « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » وغير ذلك .

٤ ــ مروج الذهب ، طبعة دار الأندلس ــ بيروت سنة ١٩٦٦ ج ٤ ص ٢٣٩

٥ ــ هو محمد بن اسحاق ، أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم ، صاحب كتاب الفهرست ، أقدم الكتب في التراجم وأفضلها . في تاريخ وفاته خلاف ، قيل سنة ٤٣٨ هـ ، وقيل سنة ٣٨٠ هـ .

٦ ــ الفهرست ، طبعة الأسدي ــ طهران ١٩٧١ ص ٣٥٤

٧ ـ هو أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة ، طبيب ، مؤرخ ، ولد بدمشق سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) وتوفي بصرخد من بلاد حوران بسورية سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) . له « عيون الانباء في طبقات الاطباء » وغيره .

٨ ـ عيون الأنباء في طبقات الاطباء ، طبعة دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ ص ٤١٤

٩ ـ هو أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ، مؤرخ ثقة ، من أئمة الجغرافيين ومن العلماء باللغة والأدب . توفي سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) . له « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » و « المشترك وضعا والمفترق صقعا » وغير ذلك .

١٠ ـ معجم الأدباء ، طبعة مصر سنة ١٩٣٠ ج ٦ ص ٤٢٩

١١ ـ معجم البلدان ، طبعة وستنفلد ج ٢ ص ٦٠٨ و ج ٣ ص ٥٧٠

١٢ ـ هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، مؤرخ حجة ، وأديب ماهر ، ولد سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) في اربل بالعراق وتوفي بدمشق سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) له كتاب « وفيات الأعيان » من أهم المصادر في التراجم وفي تاريخ الآداب العربية .

١٣ ـ وفيات الأعيان ، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٤٨ ج ٤ ص ٢٤٥

١٤ ـ انظر وفيات الأعيان طبعة صادر بيروت ١٩٧١

١٥ ـ هو أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ، وزير مؤرخ ، من الكتاب ، ولد بقفط (بمصر) سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) وتوفي سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) . له « اخبار

العلماء بأخبار الحكماء » ، و « انباه الرواة على أنباء النحاة » و « المحمدون من الشعراء » وغير ذلك .

١٦ ـ اخبار العلماء ، طبعة ليبزج سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١

١٧ ـ عيون الأنباء ، ترجمة حنين بن اسحاق صفحة ٢٥٨ ـ ٢٥٩

١٨ ـ اخبار العلماء ، صفحة ١٨٧

١٩ ـ مقدمة ابن ربن لكتابه فردوس الحكمة صفحـه ١ طبعـة برلين سنة ١٩٢٨

٢٠ ـ المجلة الشرقية (Review Oriental) ١٨٤١ صفحة ٣١٠ ـ ٣١١

٢١ ـ Arab literatur d. Juden. Frankfurt 1902 p. 32, and Steinschneider Lit. d. Juden. English tran. London 1957 p. 194.

٢٢ ـ دائرة المعارف للبستاني، مجلد ٣ صفحة ٨٧

٢٣ ـ ثيودور نولدكه من مشاهير المستشرقين الألمان ، ولد في همبورغ سنة ١٨٣٦ وتوفي سنة ١٩٣٠ م . اشتغل خصوصا فـي اللغات السريانية والعربية والفارسية . له « تاريخ القرآن » .

٢٤ ـ Deutsch. Lit. Zeitung Jan. 1924 p. 194

٢٥ ـ غوستاف فلوغل ، مستشرق ألماني ولد سنة ١٨٠٢ ودرس فـي لايبسيك . له « نجوم الفرقان في أطراف القرآن » وهو فهرس للكلمات الواردة في القرآن الكريم مرتب على حروف المعجم، وغيره . توفي سنة ١٨٧٠ م .

٢٦ ـ Flügel, Z. D. M. G. vol. 13 p. 559.

٢٧ ـ هنري فيستنفيلد ، مستشرق ألماني ، ولد في مندن سنة ١٨٠٨ . نشر نحو مئتين من كتب العربالنفيسة ، منها معجم ما استعجم، والسيرة لابن هشام ومعجم البلدان وغيرها . توفي سنة ١٨٩٩

٢٨ ـ Westenfeld, Gesch. d. Aral. Arzte, etc.

٢٩ ــ هامر برغستال • مستشرق نمسوي • ولد سنة ١٧٧٤ م• ودرس العربية والفارسية والتركية • لـه « تاريخ الآداب العربيـة » و « تاريخ الدولة العثمانية » بالألمانية والفرنسية • توفي سنة ١٨٥٦ م •

٣٠ ــ Cult. Gesch. d. Orients wien, 1852. vol. 3 p. 391 and vol. 4, p. 309.

٣١ ــ فردوس الحكمة ص ٥١٨ ــ ٥١٩

٣٢ ــ الكامل في التاريخ لابن الأثير طبعة دار صادر بيروت ، سنـة ١٩٦٥ ج ٦ ص ٧٥/٧٦ وص ١٩١/١٩٢

٣٣ ــ البـداية والنهاية ، طبعـة بيروت ، مكتبة المعـارف ١٩٦٦ م• ج • ١ ، ص : ١٤٩

٣٤ ــ محمد بن الحسن ابن اسفنديار : مؤرخ فارسي ، مـن أهـل طبرستان • كان في بغداد سنة ٦٠٦ هـ (١٢١٠ م) عنـدما ادركه الخبر بمقتل مولاه رستم بن أردشير صاحب طبرستان ، فتركها عائدا الى بلاده ، وقضى شهرين بالري يجول فيمكتباتها ويجمع مادة مصنفه ، ثم تحول الى خوارزم فأقام فيها خمسة أعوام ، اكتشف في خلالها وثائق جديدة بحانوت أحد الوراقين ، فباشر تأليف كتابه الذي ينتهي بعهد الاسرة الباوندية الثانية •

وقد ترجم المستشرق براون هـذا الكتاب الـى الانجليزية باختصار ، وظهرت هذه الترجمة عام ١٩٠٥ في سلسلة « جب، التذكارية » ، المجلد الثالث • كما قام عباس اقبال بنشر النص الأصلي في طهران سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٤٢ م) •

٣٥ ــ تاريخ طبرستان ، الترجمة الانجليزية ، صفحة ١٣٠/١٣١

٣٦ ــ اخبار العلماء ص ١٨٦

٣٧ ــ Al-Battani Part 1, p. 310, No 3

٣٨ ــ ذكر محمد كرد علي ان ابن ربن أخذ عن حنين بن اسحاق ، ولم يذكر المصدر الذي أخذ عنه . (كنوز الاجداد ص ٧١ وما بعدها) .

٣٩ ــ فردوس الحكمة ص ٥١٩

٤٠ ــ الفهرست ص ٣٥٤

٤١ ــ فردوس الحكمة ص ٨

٤٢ ــ هدية العارفين ج ١ ص ٦٦٩ .

علي بن ربن [1]

(ــ ٢٤٧)

بقلم : محمد كرد علي

في المؤلفين من لم نعرفهم الا بصفحات قليلة أبقت عليها الأيام من ألوف كتبوها ، ومنهم علي بن ربن ــ والربن والربين والراب أسماء لمقدمي شريعة اليهود ، ومعنى ربن المعلم العظيم ــ وربن اسم أبي علي كان ربن اليهود .

ولد علي في طبرستان ، وعرف في صباه وكهولته باتساعه في الفلسفة والطب والطبيعيات ، وعنه أخذ محمد بن زكريا الرازي في الري لما خرج من طبرستان واستفاد منه علما كثيرا . وأخذ هو عن حنين بن اسحق لما وافى العراق . وتصرف لولاة طبرستان وكتب للمازيار بن

١ ــ هذا التعريف بابن ربن نشره الاستاذ محمد كرد علي في كتابه كنوز الأجداد ص ٧١ ــ ٧٣

قارن المتغلب على الجبال وغيرها • ولما وقعت الفتنة في بلاده خرج الى الري ومنها الى العراق ، وكانت سبقته اليها شهرته ، واتصل بالخليفة المعتصم وأسلم على يده فقربه فأصبح من أطبـاء البيت العباسي ، ثم أدخله المتوكل في جملة ندمائه •

ألف ابن ربن كثـيرا في الطب والصحة ، ولـه كتاب « فردوس الحكمة » وهي معلمة طبّية ، بها سلكه أبو حيان التوحيدي في سلك نوابغ المؤلفين ، وضرب به المثل بالاجادة • وله غيره في الأدب ، وكان متمكنا من الآداب العربية ، وعرفناه بكتاب له صغير أسماه « الديـن والدولة » أثبت فيه النبوة اثبات العـارف بالأديان الاخرى ولاسيما اليهودية والنصرانية قيل ان الخليفة المتوكل عاونه في تأليفـه • وكتابه هذا دليل ناصع على اضطلاعه بالحكمة ، وأنه انتحل الاسلام عن بصيرة بعد أن نضج في العلوم وأحفى المشاكل بحثا •

وقد جود الكلام في الدين والدولة على الصحابة ، وعرض لجميل سيرتهم وعفتهم عن المال والرغبة عن الرفاهية كما جود في فضل أمّيّة الرسول • ومن أجمل ما فيه ونقول عن الكتاب المقدس والنبوات عليها مسحة من البلاغة أكثر من الترجمات المشهورة لعهدنا ، ولعلها منقولة من الترجمات الضائعة من التوراة والأناجيل أو أنها كانت من ترجمته هو • وكان يعرف لغات أخرى مع العربية •

وينبئك كتاب ابن ربن أنه من أعظم العلماء في الأديان ولو لم تبق عليه الأيام لنسي حتى اسمه اللهم الا عند أفراد دأبهم البحث عن المفقود والموجود من هذا التراث العربي العظيم •

مثال من كلام ابن ربن • قال في الدلائل على تصحيح الأخبار :

رأينا أمما كثيرة العدد عظيمة القدر موصوفة بالأفهام والأحلام يشهدون لعدة من الخبثة الكذابين بجميع ما أدلوه من الزنادقة والمجوس اما تقليدا والفا واما غباوة ومحكا واما اجبارا أو كرها ، كما فعل زرادشت متنبيء المجوس فانه لم يزل يتأتى ليشتاسف الملك حتى وصل اليه ، وزرع من وساوسه في صدره ، ثم لم يزل يختله بذكر الله والدعاء اليه، ويفتل في الذروة والغارب حتى فتله عن دينه ولواه الى رأيه ، ثم أظهر له ما كان يضمره من الشرك، وزين له نكاح الامهات والبنات ، وأكل القذر المذر من النجاسات ، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره أهل مملكته على دينه . وفعل ماني شبيها بذلك ، فانه ظهر في زمان كان الغالب فيه دينين النصرانية والمجوسية ، فاختدع النصارى بان قال لهم انه رسول المسيح عليه السلام ، وخلب المجوس بأن وافقهم على الأصلين فلما وجدنا من الاجماع ما هو هكذا ووجدنا منه ما هو كالاسلام علمنا ان قبول كل اجماع فتنة ورد كل اجماع ضلالة .

ومما اثر له : الطبيب الجاهل مستحث الموت . اجتنب ثلاثة وعليك بأربعة ولا حاجة لك الى الطبيب : اجتنب الغبار والدخان والنتن وعليك بالدسم والحلوى والحمام والطيب مع الاقتصاد . ومما نقل عنه : التكلف يورث الخسارة . شر القول ما نقض بعضه بعضا .

لا تتألف مما وصل الينا من أخبار ابن ربن فكرة تامة للحكم عليه حكما صحيحا ، والغالب أنه كان رجلا أعظم مما صوره لنا من عرضوا للترجمة له وهم مع هذا قلائل .

مؤلفات العرب ومصنفاتهم (١)

بقلم : الدكتور سامي حداد

كانت مؤلفاتهم قيمة مرتبة مبوبة احسن تبويب بعضها مجدولا والبعض الآخر مزينا بالصور والاشكال • وكان المؤلفون يذكرون المصادر التي نقلوا عنها بكل دقة وامانة • ويظهر من مؤلفاتهم انهم كانوا ذوي نظر ثاقب وبحث عميق واطلاع واسع •

وقد عبثت ايدي الزمن بأكثر هذه المؤلفات فلم يصل منها الينا الا النذر القليل • وهذا القليل لم ينل حظه من الدرس الوافي بل لا يزال اكثره مودعا في المكاتب والمتاحف فلا يمكن تقدير قيمته قبل ان يكشف الدرس عنه الستار • وها نحن نورد فيما يلي كلمة موجزة عن بعض هؤلاء المؤلفين وشيء من مؤلفاتهم مراعين بذلك التسلسل التاريخي والموضوعات المختلفة التي ألفوا فيها ليكون البحث ذا صلة • واول موضوع نبحثه هو الطب عموما ثم ننتقل الى اختصاصاته وفروعه • واقدم الذين وصلنا شيء من مؤلفاتهم العامة في الطب هم : (٢)

---

١ ـ هذه المقالة عن ابن ربن وكتابه « فردوس الحكمة » نشرها الدكتور سامي حداد في مجلة العروة عدد تموز سنة ١٩٣٦ .

٢ ـ المقالة تتضمن تعريفا بغير ابن ربن ، وقد اكتفينا منها بما يهم موضوعنا .

وكان مولده ومنشؤه في طبرستان على زمن المعتصم بالله وأسلم على يده وادخله المتوكل بالله في جملة ندمائه فلقبه بمولى أمير المؤمنين وكان بموضع من الاداب وهو معلم الرازي وله مؤلفات عـديدة في الطب وغيره منها واهمها « فردوس الحكمة » الذي فرغ مـن تأليفه في السنة الثالثة من خلافة المتوكل اي سنة ٢٣٥ هـ •

وقد اعتنى الدكتور محمد زبير الصديقي مدير الشعبة العربيـة بجامعة لكنو بنسخ « فردوس الحكمة » وتصحيحه وطبعه معتمدا على النسخ الخطية الموجودة في برلين والمتحف البريطاني ومتحف غـوته ونسخة أخرى خصوصية في حوزة الدكتور كمال الدين ، وفرغ من عمله هذا سنة ١٩٢٨ م•

والكتاب يقع في سبعة أنواع مقسمة على ثلاثين مقالة تحتوي على ثلاثماية وستين بابا • جمع فيه المؤلف فنون الطب التـي عرفت عنـد العرب ليومه آخذا عن الطب الهندي واليوناني والعربي • فمن الطب الهندي اخذ عن كتب: شركا (١) وسسروتا (٢) وندانا (٣) واشتنغرادايا (٤) وعن اليونان اخذ عن : تيوفرسطس (٥) وديمقراطيس (٦) ومغنس الحمصي (٧) والاسكندر الفيلسوف (٨) والاسكندر الطـواف (٩) وارساجانيس (١٠) واصطفن (١١) وافلاطـون وايكزومينوس (١٢) وفيثاغورس (١٣) وغيرهم وأهم من كل ذلك أخذ عن ابقراط وجالينوس كذلك اخذ عن المصادر العربية ومنها مؤلفات يوحنا بن ماسويه وحنين ابن اسحق وعلي بن عيسى وغيرهم وكان يشير دائما الى المصادر التي اخـذ عنها •

(١) Charaka (٢) Susruta (٣) Nidana (٤) Ashfangahradaya
(٥) Theophrastos (٦) Democritos (٧) Magnus of Emessa
(٨) Alexander the Philosopher (٩) Alexander the Traveller
(١٠) Archigenes (١١) Stephen (١٢) Axominos (١٣) Pythagoras

أما النوع الاول من الكتاب فيبحث في الهيولى والصورة والكمية والكيفية والطبائع المفردة والمركبة والاستحالة والفساد وفي كون الاشياء من الطبائع وفعل الفلك والنيرات فيها وفي كون الحيوانات البريات منها والبحريات والهوائيات وكون اعضائها ٠

والنوع الثاني يبحث في كون الجنين والحبل والاسقاط والولادة والنفس والعقل والحواس ومزاجات الابدان وتربية الطفل وحفظ الصحة والمزاج وتدبير الاعضاء وتدبير الفصول والاسفار والعساكر ٠

والنوع الثالث يبحث في علة الاغتذاء والاغذية ٠

والنوع الرابع يبحث في عدد الامراض العامة وانواعها واسبابها وقانون العلاج وامراض الجسم من الرأس الى القدم ٠

والنوع الخامس في خواص الاشياء وعدد المذاقات وعلل الالوان والجواهر المعدنية والنبت والشجر والثمر ٠

والنوع السادس في الحبوب والبقول والثمار واللحمان والالبان والسمك وغيرها من المأكولات والاشربة ٠ وفي الانسان وغيره من الحيوانات والسموم والترياقات والادوية ٠

والنوع السابع في البلدان والمياه والرياح وفصول السنة والافلاك والنيرات وفي آخر هذا النوع اورد من جوامع كتب الهند ما يقع في ستة وثلاثين بابا ٠ ومن تصفح الكتاب وانعم النظر فيه وجد ان المؤلف قد تنازعه عاملان هامان طالما اثرا على المؤلفين والمصنفين في عصره ٠ العامل الاول العلم الصحيح المرتكز على البحث والتنقيب والتجربة والعامل الاخر الانفعالات الروحية والنفسانية التي استولت على افكار الكتاب والمفكرين القدماء فبينما نراهم جادين في دحض هذه الاوهام وتكذيبها نرى من جهة اخرى ان افكارهم لا تزال تتأثر باصابة العين والظلمات التي كانت تنقصهم الجرأة الادبية على تكذيبها وانكارها وان كانوا يعتقدون قلبيا بفسادها ٠

الدِّينُ وَالدَّوْلَةُ

في إثبات نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال علي بن ربّن الطبري مولى أمير المؤمنين :

الحمد لله على دين الاسلام الذي من ألفهُ فاز ، ومن قام بهِ اهتدى ، ومن نصره نجا ، ومن ناصبهُ هلك . بهِ عرف البـــاريء ، وعليه تحوم الامم ، وإليه تشوّقت النفوس ، وبهِ نيل الأمل عاجلاً وآجلاً ، لأنه النور المعمر والجسر المعبور إلى دار السلامة والخلود الذي لا كدر فيه ولا غرور، فجعلنا الله تعالى من أهل السُّنّة وجنّبنا الباطل وما يجني على أهلهِ ، وان الله حميد محمود لا نهاية لملكه ولا مبدل لكلماته ، إنه المنّان الحكيم الذي أظهر الحق وأناره ، وفطر العباد وأرسل رسوله وحبيبهُ وخليله إلى الشاكين فيهِ يدعوهم إلى الفوز الدائم والنور الساطع ، حتى إذا دنت واقتربت الساعة بعث الله تعالى نبينا محمداً ﷺ إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً ، فصدع بأمر ربه وأهاب أعداءه بترغيب وترهيب وتعليم وتقويم ، يحثّ على الملكوت ونعيمها ، ويزجر عن النار والتهاون فيها ، ويؤدي عن الله ما نزل

به جبريل الملك إليه من التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يغادر حقًّا جاءت به الانبياء قبله بل يؤكده ويؤيده ويأمر بالايمان بهم أجمعين ، والصلاة على الأولين منهم والآخرين .

قال الله في محكم كتابه : « قل [1] آمنّا بالله ومَا أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسمعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ من ربّهم لا نُفرّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهمسلمون. »[2] وقال : آمَنَ الرسولُ بما أنزلَ إليه من ربّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكُتُبه ورُسلهِ لا نفرّق بينَ أحدٍ من رسله » [3] الآية . وقال فيمن أشرك بالله جلّ وعز أو اتخذ له ولداً أو نداً : « قُلْ هوَ اللهُ أحدٌ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولد وَلَمْ يَكُنْ له كُفواً أحَدٌ » [4] وقال : « قُلْ يا أهْلَ الكتابِ تَعَالَوا إلى كلمةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبينكُم أَلّا نَعْبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله ، فَإنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُونَ » [5] وقال: « أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تقوَى مِنَ الله ورضوانٍ خيرٌ أمَّنْ أَسَّسَ بنيانَه على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بهِ في نَارِ جَهنَّم وَاللهُ لا يَهْدِي القوم الظَّالمِينَ » [6] . فإلى هذا كان دعاؤهُ ، وعليه أسّس بنيان دعوتهِ ، وبهِ افتتح شرائع دينهِ وشرائط حقهِ الذي كفرت به

---

(١) الصواب : قولوا

(٢) البقرة : ١٣٦

(٣) البقرة : ٢٨٥ ، وتتمة الآية : وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير .

(٤) الاخلاص : مكية ، وهي أربع آيات .

(٥) آل عمران : ٦٤

(٦) التوبة : ١٠٩

مشركو العرب وحَملةُ الكتابِ ، فإنهم كتموا اسمه وحرفوا رسمه الموجود في كتب أنبيائهم عليهم السلام ، مما أنا مظهرهُ ومبيحٌ سرّهُ وكاشفٌ سترهُ حتى يراهُ القارىء عيانـــاً ويزداد بالاسلام قوة وسروراً ، وأسلك في ذلك سبيلاً أسَدّ وأجدى مما سلكَ غيري من مؤلفي الكتب في هذا الفن ، فإنّ منهم مَن قصّرَ وبتر وأدغمَ حُجّتهُ ولم يفسّر ، ومنهم من احتجّ على أهل الكتاب بالشعر وبما لم يعرفوه من كتبهم ، ومنهم من حشّى دفّتي كتابهِ بمخاطبة المسلمين دون المشركين ثم ترجم حججه بـــأوعر كلام وأبعده من الإفهام . فإن أراد المخالف أن يقول انه في ذلك كحـاطب ليلٍ أو حميلِ سيل يتعلق بكل شوكٍ وشجرٍ وغثّ وسمين من الكلام ، وان الذي احتجّ به ليس ببيان بل كتمان ، وليس بتبصير بل تعوير ، ولا بتسهيل بل توْعير ، كان ذلك له .

ومن ألّفَ كتاباً في مثل هذا الفنّ الجليل الهادي المستنير العامّ المنفعة لأهل الأديان كلهم كان جديراً أن يجعله مفهوماً سهلاً وأن يخاصمَ [...] (7) ويساجل خصمهُ ولا يعلو عليه ولا يربي . بل يُفهم ولا يُبهم ويُنصف ولا يظلم . ويستعمل الرفق ويُحسن سياقهُ [...] (7) بتنويره ويـأتي بالبراهين والمعارضاتِ التي إن ردها [...] (7) خرج عن نحلتهِ ودينهِ . فإنهُ إن فعلَ ذلك به ركبهُ ورماه بسهمهِ واقتادهُ بزمـــامه . وقد تحرّيتُ ذلك بعون الله تعالى وقرّبتُ المعاني ليفهمها القارىء ولا يمتري ، ولم أدَعْ لأهل الذمة حجةً ولا مسألة صعبةً ولا علاقة إلّا حكيتُ ثم حللتُ بتوفيق الله وعونه وبركة خليفته جعفر (8) الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين أطال الله

---

(7) كلمة أو كلمتان لم نستطع تبين شيء منها لأن النسخة مخرقة .

(8) هو أبو الفضل جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد ، خليفة عباسي ، ولد ببغداد سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، واغتيل في سامراء سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) . ومؤلف الكتاب كان من ندمائه .

بقاءه ، وبما اهتديتُ به واستفدتُ عنهُ وسمعتُ من ألفاظه ، وما هو مغرَمٌ كَلِفٌ به من بثّ مثل هذا الكتاب وتخليده إعزازاً لأسباب الدين، وإفلاجاً لحجَجِه ، وترغيباً لمن جهل فضله فيه ، وما ابتلى اللهُ الاسلام وأهله في زمانه وتجدد لهم من كراماته ، وتعرّفهم من النماءِ والزيادة والاستعلاء برفق تدبيره . واني وجدتُ جميعَ من خالف الاسلام إنماخالفوه لأربع علل، أولاً [٩] من الشكّ في خبر النبي ﷺ ، والثانية الأنَفَةُ والعزّة ، والثالثة التقليد والألفُ ، والرابعة البلادةُ والغباوةُ . فلعمري لو ميزوا الخبر وعقلوهُ لقبلوه ولم يدفعوه ، ولما طلبوا ما عند الله بمخالفة أمر الله . فالواجب علينا أن نقصد لتثبيت الخبر عندهم ، ونفي الشك عنهم ، ونبيّن لهم أصول الاخبار وفروعها وعللها ومجاريها ، والوجوه التي بها يعرف حقها من باطلها، والأسباب التي لها قبلتِ الامم أنبياءَها وبها دانت لدعاتها . ثم نقابل أخبارنا بأخبارهم ومن نقلها إلينا بمن نقلها إليهم ، فإنْ كانت حجتنا وحجتهم في تصديقهم مَنْ يصدقون من أنبيائهم واحدة ، فلا حجّة لهم عند الله وعند أنفسهم في تكذيبهم صاحبنا وتصديق أصحابهم ، لانهُ إذا احتجّ مختلفان في دعوى من الدعاوي بحجة واحدة فهما بها مشتركان سيّان ، يجبُ لاحدهما بها ما يجب للآخر لا محالة .

في وجوه الخبر والاجماع العامي

الأخبار كلها على ضربَين ، إمّا حقٌ وإمّا باطل . ولها ثلاثة أوقاتٍ ، خبر ماضٍ ، وخبر مقيم ، وخبر مُنتظَر . ومنها ما يصدُق مرة ويكذِب

---

(٩) الصواب : أولاهن .

أخرى ، وهو كقولك : جاء فلان أو شخص ، فقد يكون ذلك حقاً ويكون باطلاً . ومنها ما هو حق في كل وقت ، كان أو يكون ، ماضٍ أو مستأنَف ، لأنه خبر كلّي دائم جليٌّ ، وهو مثل قول القائل : دار الفلكُ أو هو دائرٌ غداً ، أو قوله : أشرقتِ الشمسُ أمسِ ، وهي مشرقةٌ بعد سنةٍ . ومثل قوله : إنّ أكثر ذوات الأرحامِ إذا وضَعْنَ أَحْلَبْنَ ، وأكثرَ ذواتِ الاجنحةِ إذا سافَدْن[10] بضْنَ ، وإذا بضْنَ فرّخنَ . فهذا وما أشبهه خبرٌ حقٌّ كلّه في كلّ وقتٍ وهو الإجماع الأوّل الأعم .

ومن الأخبار ما هو كَذِبٌ كلّه في كل وقتٍ تقدّم أو تأخر ، وهو قول القائل : هذا أنورُ من الشمس وأحلى على الشهدِ ، وهذا الفرَسُ أسرع من البرق أو أقطف من قُرَاد ، وقولُهُ : اجتمع الناسُ كلهم حق لم يبقَ أحدٌ ، وان فلاناً خير البشر وأعلمهم كلهم ، وان عنده عِلْقاً يُساوي كل شيءٍ ، وان بلادهُ أثمر بلادِ الله كلها . فهذا وما أشبههُ من الكلام كذِبٌ كلهُ لكنه مستعمل بين أكثر الناس في مجاز كلامهم غير مستنكَرٍ .

وبعد الإجماع الأول الأعمّ الذي ذكرت ، إجماع ثانٍ هو دون الأولِ في الكثرة والعموم ، مثل خبر آدم وحوّاء ، وأنهما أبوَا البشر . فإنهُ صحيحٌ عندنا لا شكّ فيه لإجماع أكثر الناس عليه وشهادات الانبياءِ على صحتهِ ، وهو عند خلقٍ كثير كذبٌ وزورٌ مثل الهند[11] والصابئة[12] أو أشباههم.

---

(١٠) جامعن .

(١١) اقرأ عن أديان الهند كتاب « مقارنة الأديان » ج ٤ للدكتور أحمد شلبي (القاهرة ـــ ١٩٦٦) .

(١٢) ورد ذكر الصابئة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع :
الأول ـــ في الآية ٦٢ من سورة البقرة ، قوله تعالى :

←

وبعد الاجماع الثاني إجماع ثالث ، وهو دون الثاني في الكثرة والعموم ، وذلك مثل خبر الروم والهند والصين فإنهُ وإن كان أكثر من يجيءُ به سُوَقُ الناس وعوامُّهم فإنهُ حقٌ لا يُشكُّ فيهِ للإجماع القائم والشواهد الموجودة عليـه .

وبعد هذا الاجمـاع الثالث إجماع رابع ، هو دون الثـالث في الكثرة والعمـوم ، وهو مثـل خبر ظهور الإسكندر (١٣)

← « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مـن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . الثاني في الآية ٦٩ من سورة المائدة ، قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خـوف عليهم ولا هـم يحزنون . » الثالث ــ في الآية ١٧ من سورة الحج، قوله عز من قائل : « ان الذين آمنـوا والذين هـادوا والصابئين والنصـارى والمجوس والذيـن أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء قدير . » والصابئة قوم من أصحاب الديانات القديمة ، اختلف العلماء والمؤرخون في حقيقة أمرهم . وللتوسع في هـــذا الموضوع ، اقرأ كتـــاب « الصابئون في حاضرهم وماضيهم » للاستاذ عبد الرزاق الحسني (مطبعة العرفان صيدا ــ لبنان ١٩٧٠) .

(١٣) هو الاسكندر الأكبر (اسكندر الثالث) (٣٥٦ ــ ٣٢٤ ق.م.) ملـك مقدونيا، الملقب بذي القرنين. يعتبر من أعظم القواد وأبرز الشخصيات في التاريخ . ولد في مقدونية وتوفي في بابل . تتلمذ على أرسطو . وفي سنة ٣٣٤ قم بدأ تنفيذ مشروع محاربة الفرس الذي ورثه عن أبيه ، فانتصر عليهم في ايسوس (٣٣٣ قم) ثم في سواحل فينيقية بعد أن حاصر صور سبعة أشهر . ويمَّم شطر مصر فاستسلم لـه واليها الفارسي ، وأسس مدينة الاسكندرية (٣٣٢ قم) . وتتبع داريوس في العراق فانتصر عليه بالقرب من أربيل (٣٣١ قم) ، ثم توغل في الامبراطورية الفارسية حتى الهند حيث اجتاح البنجـاب ، ورفض ←

والتبابعة (١٤) وجَم (١٥) الملِكِ وأمثالهم . فإنه مقبولٌ صحيح لإجماع خلق كثير عليهِ . غير ان من يُجْمع على خبر هذه الاقاليم أكثر ممّن يُجمع على خبر التبابعة والاسكندر .

واجماع خامس يتوارثه أهلهُ منذ دهر طويـــل مثل خبر البـدَدَة (١٦)

جنوده التقدم الى ما وراء ذلك فعاد أدراجه ، وبلغ بابل حوالي سنة ٣٢٣ ق.م. ، وهناك أصيب بالحمى ومات .

وفيما تشير أكثر كتب التفسير الى ان المقصود بذي القرنين الذي جاء ذكره في القرآن الكريم هو الاسكندر ، رجَّح بعض العلماء أنه عبد صالح أعطاه الله ملكا كبيرا وحكمة وهيبة ، اذ لم يكن الاسكندر هذه الشخصية التي نسب اليها القرآن التوحيد والايمان والصلاح وغير ذلك من صفات الانبياء . (أنظر فـي ذلك كتب التفسير ومعـاجم الألفاظ القرآنية) .

(١٤) دولة عربية قديمة قامت في اليمن بعد الدولة الحميرية ، امتدت الى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية . كان أول ملوكها الحارث بن همال (الرائش الأصفر) ، وهو كذلك آخر ملوك سبأ الحميريين الذين غلب على دولتهم الترف فتراخت أحوالهم حتى آل الملك الى الحارث فعمل على تقوية الدولة وسميت مـن ثمّ دولة التبابعة . ومن أشهر ملوكهم الصعب بن الحارث الملقب بذي القرنين، الذي يذكر مؤرخوه انه « فتح الأرض كلها » ويوردون في ذلك أخبارا كثيرة ، فيها تهاويل . ويقال ان عدد ملوك هذه الدولة ٢٦ آخـرهم يوسف ذو نؤاس الذي اعتنق اليهودية ففزا بلاده نجاشي الحبشة المسيحي واستولى عليها ، وبذلك دخلت اليمن في حكمه ومن ثم في حكم الفرس حتى دانت بالاسلام .

(١٥) جم أو جمشيد ، بطل ايران الاسطوري . ملك ألف سنة فعـلم الناس الدين والأخلاق ووقاهم البرد والحر في ملاجىء تحت الأرض ، لكنه تكبّر وطغى فقتله الضحاك رئيس الشياطين .

(١٦) البددة ، اسم أطلق في المؤلفات الاسلامية الخاصة بدراسة العقـائد والديانات المقارنة (مثل كتـاب الملل والنحل للشهرستاني) علـى

والزنادقة والمجوس وهو حق عندهم لا يشكّون فيه وباطل عندنا لا يُرتابُ به (١٧) ، انما ظهر بالمخرقة والاغاليط ، ثم صار عندهم ديناً بالتوارُث والتقليد ، ثم بالإلف والعادة . فهذا من خاصيّات الأخبار ولطيف مداخلها على الأنفس والعقول موجودٌ غيرُ مدفوع . وإن منها ما إذا سمعهُ السامعُ طابت به نفسهُ ، وطار في وجهه دمهُ ، وذرفت عيناهُ ضحكاً واهتزتْ استغراباً ، ومنها ما يُذْري دمع السامع ويضني جسمهُ ويُذْبلُ وجههُ مثل أخبار الرزايا والنّكبات ، ومنها ما إذا سمعهُ السامع اهتزّ للجود ودرّ المستحلب المستَميح مثل مدح الأسخياء ووصف ما يعتاضون بجودهم من المدائح والجوازي في الدنيا والآخرة ، ومنها ما يُبخل السامع ويؤيسهُ من الخير مثل ذكر من أفقرهُ التبذير واضطرهُ إلى المسكنة والإستكفاف، ومنها ما يغريه ويغضبهُ ويبسط يده بالضرب ولسانهُ بالشتم ، ومنها مايلهب شهوته ويحرّك ساكنه ويغلب غرامه مثل ذكر الغواني ونعت محاسنهن وطيب نشرهن ولين ملمسهن وحسن مبتسمهن لا سيما إذا صيغ ذلك الخبرُ بجواهر النّغمات

← البوذيين ، كما يعرفون باسم « أصحاب البددة » ويقصد « بالبد » أو « البدة » « بوذا » مؤسس الديانة البوذية . ويعرف عند أصحابه كما جاء في المراجع الاسلامية بأنه « انسان يولد ولكنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينجب ولا يهرم ولا يموت ، وان أول من ظهر في هذا العالم من البدد « بد » اسمه « شاكيموني » وشاكيموني هو اللقب الذي يطلق في الكتب المعاصرة على « جايوتا بوذا » الذي عاش ابان القرن الخامس قبل الميلاد .

كما يستخدم « البد » بمعنى الصنم دون تمييز ، ويطلق كذلك على بيت الأصنام أو معبد البوذيين ، والمعروف ان اتصال المسلمين بالبوذية بدأ منذ الفتح الاسلامي للهند . (أنظر القاموس الاسلامي ج ١ ص ٢٨٦) .

(١٧) كذا في الأصل ، ولعله لا يعتد به .

الملهية الشجية ، ومنها ما يحمل على تقحُّمِ الأهوال والاستقتال بعد انقراض المُخْبِرِ الأول بألف عام بل يزيد مثل ما ذكرنا من بدَدَةِ الهند والمجوس وأشباههم ، فإنّ من الهند من يُحرِق نفسهُ بضروب من الإحراق، ومنهم من يرمي بدنهُ لسباع الطير حتى تأكله ، ومنهم من يهيم على وجههِ في الأرض الفلاةِ حتى يتلفَ فيها ، ومنهم من يرمي نفسهُ من جبلٍ عالٍ فيتردّى على شجرةٍ منصوبة من حديدٍ ذات شعبٍ مشحوذة مؤلّلةٍ كالصوارم والشفار ، اغتراراً منهم بأخبارٍ أدّاها لهم قوم من الكذابين العُتاة عن نفر من الخبثَةِ الدُّهاة .

وانما ذكرتُ ذلك ، ليعلم من يقرأهُ بأن قد يجب التحرُّز والهرب منها إلى ملاجىء الحكمةِ ومحالّ الفكرة والاعتبار ، فإنها أضر بالأنفس وأسرع فيها من السهام القاتلة والاستهيام ، ومدخلها على القلوب من بابين طال ما غرّا وكذبا بما يعروهما من التخاييل والظنّ ، وهما حاسّتا السمع والبصر اللتان بهما تُدرَك سوانحُ الأخبار . أما البصرُ فربما خيّل الشيء الواحد شيئين ورأى المستوِيَ كالمعْوَجّ مثل المرادي في الأنهار ، وربما صوّر المعدومَ كالموجود مثلَ اليلمع والسرّاب . وأما السمع فربما سمعَ انسانٌ دويًّا فظنّ أنه الرعد ، أو يسمع من تحلّى كلباً أو أسداً أو قُمْريًّا فيرى ان ذلك هريرٌ أو هديرٌ أو زئير .

في الدلائل على تصحيح الاخبار

قد قدمت القول في تفصيل الاخبار وعجيب ما تُورثُ النفس والأبدانَ من الحوادث والآثار . فأما ما أطبقت عليه الأمم في تثبيتها ورأتهُ استقصاءً وتحرُّزاً فيها ، فهو انهُ اذا ادّعى مدّعٍ حقًّا أو جاء بنبأ من الانباءِ ، ثم

أحضر رجلين من أهل القناعة والعفو أو ثلاثة ثبتَ بهم الحق وزال الشكُّ والشبهة عن الحاكم والمحكوم عليه . فأما خبر الانبياء فلأنه يؤدي إمـا الى الجنة أو الى النار ، فلن نكتفي فيه بشاهدين ولا بقسامةٍ ولا بأمةٍ دون ان يكون معهم شهادات الحق ومقياسُ العبر التي أنا ذاكرها ، لأنّا قد رأينـا أمماً كثيرة العدد ، عظيمة القدر ، موصوفةً بالأفهام والأحلام ، يشهدون لعدّةٍ من الخَبَثَةِ الكذّابين بجميع ما ادّعوهُ ، مثل الزنادقة والمجوس، إما تقليداً وإلفاً كما بيّنا ، وإما غباوةً ومحكاً ، واما إجباراً أو كرهاً كما فعل زرادشت (١٨) متنبىء المجوس فانهُ لم يزل يتأتى لبستاشف (١٩) الملك حتى

---

(١٨) يعتقد الفرس القدماء انه نبي وحكيم نزلت عليه رسالة مـن السماء كما نزلت على انبياء العجم قبله . أصله من آذربيجان . ولد في ميديا شمال غربي ايران . بدأ دعوته في بلخ وأقام معبدا للنار فيها واعتكف فيه ، فانتشرت دعوته منها الى فارس واصبحت دين الدولـة أيام الاخمينيين الى أن قضى الاسكندر على هذه الدولة سنة ٣٣١ ق.م. ولما قامت الدولة الساسانية قضى مؤسسها أردشير الأول (نحـو ٢٢٦ ــ ٢٤١ ق.م.) على الفرثيين وحارب المذاهب الأخرى وجعـل الزرادشتية دين الدولة باعتبارها جزءا من مجـد فارس القديم ومن الثقافة الاخمينية . وعندما فتح المسلمون فارس في منتصف القرن السابع الميلادي قضوا على هذه الديانة .

ونظرا الى ان زرادشت كان يمجد العناصر والكواكب والنار ويبني معابد لها قال عنه عوام الناس انه عابد النار ، واعتبروا النار قبلته . ولزرادشت كتاب « زند » انتخب منه الموبد (صاحب معبـد النار في الدين الزردشتي) احكام شريعة زرادشت المشتملة علـى مئة باب الموسوم بمئة كتاب ومئة صفحة .

(١٩) كذا في الأصل ، والصواب كشتاسب . ملك يقال انـه حكم ١٦٠٠ سنة . اشتهر الدين الزردشتي بزمانه ودخل فيه ، وعنـدما قتـل زرادشت ، أخذ مكانه بنشر دعوته . وهو والد اسفنديار أحـد ابطال الشاهنامة .

وصل إليه وزرع من وساوسه في صدره ، ثم لم يزل يختله بذكر الله والدعاء اليه ويفتل في الذروة والغارب حتى فتله عن دينه ولوّاه الى رأيه ، ثم أظهر له ما كان يضمره من الشرك ، وزيّن له نكاح الامهات والبنات وأكل القذر المذر من النجاسات ، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره مملكته على دينه.

وفعل ماني [٢٠] شبيهاً بذلك ، فانه ظهر في زمان كان الغالب فيه دينان ، النصرانية والمجوسية ، فاختدع النصارى بأن قال لهم انه رسول المسيح عليه السلام ، وخلب المجوس بأن وافقهم على الأصلين.

فلما وجدنا من الإجماع ما هو هكذا ، ووجدنا منه ما هو كالإسلام ، علمنا ان قبول كل اجماع فتنة ، وردّ كل اجماع ضلالة ، وان الإجماع وحده ليس بكاف في تثبيت النبوّة دون شهادات الحقّ واماراته التي جمعها الله تعالى للنبي ﷺ ، فمن أراد حقائق مثل هذه الاخبار وتعديلها احتاج إلى أن يفهم الخبر الوارد عليه ، ويتدبر غرضه وعواره فان وجد مكذّبه فيه ومبطّله معه لم يحتج الى برهان غيره ، وذلك كخبر مسيلمة [٢١] الكذاب ،

---

(٢٠) رسام ايراني ومؤسس مذهب المانوية ، ولد سنة ٢١٦ م ، وادعى النبوة سنة ٢٤٢ م ، بعد ان اطلع على الأديان الموجودة وسمى نفسه « فارقليط » الذي أخبر عنه المسيح . أجبر على الفرار تحت ضغط الحكام ، ولما عاد حكم عليه بالموت (سنة ٢٧٦ م) .

تأثرت « المانوية » بالبوذية والغنوصية تأثرا كبيرا ، واتسمت بتعاليم الزرادشتية ، متخذة النضال أساسا للصراع بين الخير والشر . كانت تعاليمها روحية بين اتباعها الذين كانوا يأملون السعادة بعد الموت . وقد انتشرت المانوية في انحاء الامبراطورية الرومانية وآسيا ، وقاومتها النصرانية بعنف ولذلك قضي عليها حوالي سنة ٥٠٠ م .

(٢١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي ، متنبىء ، ولد ونشأ باليمامة . ولما ظهر الاسلام وافتتح النبي (ص) مكة ودانت له ←

فانهُ لما ادعى النبوة سُئل عن النبي ﷺ فصدّق به وآمن بنبوته ، وسئل النبي ﷺ عنه فكذّبهُ . فكان في تصديق مسيلمة من يكذبهُ ، تكذيب منهُ لنفسه ودليل على مناقضته وسخفه . ولذلك قالت العلماءُ انهُ اذا انتحل النبوّة منتحلٌ مبطلٌ لم يمهله الله حتى يجري التناقض على لسانه ليحتج به على من صدّق به ، كما أجرى الله على لسان زرادشت وماني ونظرائهما فانهما قد ناقضا وكذّبا وتذبذبا .

قال زرادشت ان هرمز[٢٢] — وهو اسم معبودهم — قديمٌ رحيمٌ تامُّ العلم والقدرة ، ثم لم يلبث ان وصفه بما يوصف به العجزة الجهال في قوله : إن الشيطانَ تولّد عن فكرته وان الله يعجز عن إبطاله . وكذلك فعل ماني في قوله : ان الله قديمٌ عزيزٌ لا يشبهه شيءٌ ، ثم قال : إن الظلمة قديمة وان

→

العرب ، جاءه وفد من بني حنيفة ، قيل : كان مسيلمة معهم الا انه تخلف مع الرجال خارج مكة ، وهو شيخ هرم ، فأسلم الوفد ، وذكروا للنبي (ص) مكان مسيلمة فأمر له بمثل ما أمر به لهم ، وقال : ليس بشرّكم مكانا . ولما رجعوا الى ديارهم كتب مسيلمة الى النبي (ص) : « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . سلام عليك ، أما بعد فاني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » فأجابه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله ، الى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » . وذلك في أواخر سنة ١٠ هـ كما في سيرة ابن هشام. وأكثر مسيلمة من وضع اسجاع يضاهي بها القرآن. وتوفي النبي (ص) قبل القضاء على فتنته ، فلما انتظم الأمر لأبي بكر الصديق انتدب له خالد بن الوليد على رأس جيش قوي ، هاجم ديار بني حنيفة ، وانتهت المعركة بظفر خالد ومقتل مسيلمة (سنة ١٢ هـ — ٦٣٣ م) .

(٢٢) رب النوع لدى الزرادشتيين .

الله مقهورٌ وحزبَهُ مقهورون مأسورون » . ومن آمن بمن يكذّب نفسهُ فقد ضلّ ضلالاً بعيداً .

وكذلك النصارى ، فانهم لمـــا قالوا في اول شريعة دينهم انا نؤمن بالله خالق كل ما يرى وما لا يرى ، ثم أتبعوا قولهم ذلك بأن المسيح خـالق غير مخلوق فبدأ التناقض في قولهم . واذا رجعنا الى كتب دينهم وجدناها مخالفةً لاعتقادهم ، فكلها تثبت ان الله هو الصانع وما سواهُ مصنوعٌ ، وقد بينت ذلك في الجزء الذي يتلو هذا الجزء ، وشرحت فيه ما يلزم أصناف النصارى كلهم ، واحتججت عليهم بمائة وثلاثين حجة من كتب الانبياء ، سوى الحجج البرهانية والامثال المضروبة والمقاييس الباهرة ، وتوخيّتُ بذلك تبصُّرَهم رشدهم وتأدية ما أوجب الله على بعض الخلق لبعضهم من المحبة والشفقة. فاما ما يلزم اليهود وغيرهم فقد بينتُ في الجزء الرابع وأوجزتُ القول فيه ولم أقصّر . فهذا بابٌ لطيفُ وردٌ موجز ونقضٌ يسيرٌ غير عسير ، وهو أنهُ اذا ورد على ذي الفهم واللبِّ خبرٌ من الأخبار تدبره نعماً (٢٣) وقلبهُ ظهراً لبطن ، فإن وجد مبطله فيه ومكذبه معه ، أو وجده مخالفاً لكتب ديانة القوم لم يحتج في تكذيبه وكشف عورته وعواره الى غيره ، وكان في سرعة وجدان الحق شفاءٌ للقلب ، كما صنع معاوية برجل من أهل البصرة سـأله ألـفَي جذع لبناء داره . فقال له معاوية : « على كم دارُك ؟ قـال : « على فرسخين في فرسخين » . قال : « هي في البصرة أو البصرة فيها ؟ قـال : « بل هي في البصرة » : قال معاوية : « فالبصرة كلها أقل من فرسخين » . فكان في نفس خبره ما يشهد ببطلانه . وكالرجل الذي بلغنا أنه قـال وهو

---

(٢٣) كذا بالأصل .

بالعراق : كنا [٢٤] بقومس [٢٥] باغٌ [٢٦] في غربي المدينة على ثلاثمائة فرسخ. فقال المحدّث : « ان كان الخبر حقاً فنحن الساعة في وسط ذلك البـــاغ ، فليس بين قومس والعراق الا" دون ذلك » . ومثل قول الفاخر في كتـــابه الذي فضل فيه قحطان على عدنان ، فإنه ذكر ابناً لعدي [٢٧] بن حاتم وقال: فأين لـكم مثله ؟ أمره أبوه ان يذودَ الناسَ عن وليمته فأبى الصبيُّ وقال : « يا أبتي مُرْ بهذا غيري » . قال الفاخر : « فهذا جوادٌ ابن جوادٍ ابن جوادٍ ومطبوعٌ ابن مطبوعٍ ابن مطبوعٍ » . فوجدتُ هــذا الخبر نفسه يكذب قوله ، وذلك ان أبا الصبي قد أمره أن يذود الناس عن طعامهِ وذلك هو الذي كرههُ الصبيُّ واستعفى منـــهُ فهو اذاً جواد ابن بخيل ، ومطبوع ابن غير مطبوع .

فهكذا فليفعل من أحبَّ تصفيةَ أخبار الانبياء وتمييزها . فليبحث عن شهادات الحق ومقاييس العبر التي وجدتها متوافرة مجتمعة للنبي ﷺ في عشرة معان لم يجتمع مثلهـــا لأحد قط الا" للمسيح عليه السلام . وأنا مفسر ذلك

---

(٢٤) لعله لنا أو كان لنا .

(٢٥) قال ياقوت : « هي كورة كبيرة واسعة تشتمل علــى مدن وقــرى ومزارع ، وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولايةملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الري ونيسابور » .

(٢٦) كلمة فارسية معناها البستان ، الروضة ، الحديقة .

(٢٧) هو عــدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي : أميــر ، صحابي ، من الأجواد العقلاء . كان رئيس طيء في الجاهليةوالاسلام، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل . أسلم سنة ٩ هـ . قام في حرب الردة بأعمال كبيرة، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة ، وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب، وفقئت عينه يوم صفين . روى عنه المحدثون ٦٦ حديثا ، عاش أكثر مــن مئة سنة ، ومات بالكوفة سنة ٦٨ هـ (٦٨٧ م) .

وكاشفهُ للاعيان ليعلم الناظرُ فيه ان من كنّ تلك الخصالُ معهُ ووُجدْن له وجبت له النبوة ، ولزمت حجة الله البالغة من كفر به .

أولها : دعاؤه ﷺ الى الفرْد الدائم العلام العادل الذي لا يُغـــالب ولا يجار وموافقتهُ في ذلك جميع الانبياء .

الثاني : ما كان عليه في نسكه وعفته وصدقه ومحمود سننه وشرائعه .

الثالث : أنهُ عليه السلام أظهر آيات بينات لا يأتي بها إلاّ أنبياءُ الله ونخباؤه .

الرابع : انه تنبأ على أشياء غائبة عنه فصحت في زمانه .

الخامس : انه تنبأ على حوادث جمة من حوادث الدنيا ودولها صحّت بعدهُ .

السادس : في أن الكتاب الذي جــاء به آية من آيات النبوّة بالضرورة وبالحجج التي لا تُدْفع .

السابع : ان غلبته الأُمم آية بينة بالضرورة والحجج التي لا تُدْفع .

الثامن : ان دعاتهُ الذين نقلوا أخبارهُ خيارُ النــــاس وأبرارهم ومن لا يُظنُّ بأمثالهم الأكاذيب والإفك .

التاسع : في أنهُ عليه السلام خــــاتم الأنبياء وأنهُ لو لم يُبعثْ لبطلتْ نبواتُ الانبياء فيه وفي اسمعيل عليهما السلام .

العاشر : ان الانبياء عليهم السلام قد تنبأوا عليه قبل ظهوره بدهر طويل ووصفوا مبعثهُ وبلدهُ ومسيرهُ وخضوع الأُمم له والملوك لأمته .

فهذه خصال نيرة وشواهد كافية من أدلى بها ووجبت له فـــاز قدحه وأفلح حقه ووجب تصديقه ، ومن ردّها وجحدها خاب سعيه وخسر دنياه وآخرته . وأنا ملخص ذلك باباً باباً ومستشهدٌ عليه الانبياء وغير مقتصر فيه

على نبي واحد بل على جماعةٍ ، ولا على نبوة واحدة ، بل على ستين نبوة أو تزيد . وأقدم ما أرجو أن يجعل اللهُ فيه تقريباً وتقريعاً ومخرجاً من العمى لمن لم يكن جباراً عتياً ولا غوياً شقياً . وهو أنا إذا سألنا النصارى خاصةً عن علة تكذيبهم بالنبي عليه السلام، قالوا : إن ذلك لثلاث خصال .

أولاهنّ : أنّا لم نجد أحداً من الأنبياء تنبأ عليه قبل مجيئه .

والثانية : أنا لم نجد في القرآن ذكر آية ولا نبوّة لمن جاءَ بهِ .

والثالثة : أن المسيح أنبأنا أنه لا نبي بعدهُ .

فهذه أقوى ما يحتجون به عندهم . وأنا مطلق ذلك بتوفيق الله ، فإذا قررت عندهم ان الأمر على خلاف ما قالوا وأنهُ لا حاجة في تصديق الأنبياء إلى ما ذكروا ، لم يبقَ لهم عذرٌ فيما بين الله وبينهم . وكان المتعلل بتلك الحجج المتعلق بها على سبيل فتنةٍ وهلاك . فجواب قولهم أنهُ لم يتنبأ عليه نبيٌّ،أنه إن كانت نبوةُ الانبياءِ لا تثبت ولا يجب قبولها إلاّ بتقدم النبوّات عليها، فإن من صدّق بنبي من الانبياءِ لم تتقدمهُ نبوة نبي عليهِ فقد ضلّ وفتن، فليخبرونا عن موسى[28] النبي نفسه ﷺ من ذا الذي كان تنبأ عليه أو على داود[29]

(٢٨) موسى بن عمران (القرن ١٣ ق م) عليه السلام من رسل الله الكرام أولي العزم . ذكر القرآن الكريم له عدة قصص منها قصته مع العبد الصالح الخضر عليه السلام ، وقصة السامري وعجله ، وقصة دخوله الأرض المقدسة ، وقصة ولادته ، وغير ذلك . ورد اسمه في ١٣٤ موضعا من القرآن .

(٢٩) تروي سور القرآن الكريم ان داود عليه السلام كان غلاما يرعى الغنم ، فاستعان به طالوت (شاول) ملك اسرائيل في حربه مع الفلسطينيين، فاستطاع على حداثته أن يقتل جالوت الجبار . ولم يلبث أن فكر ←

أو أشعيا (٣٠) أو إرْمِيا (٣١) وهم عندهم من أفاضل الأنبيـــاء عليهم السلام ولا نبوّة متقدمة عليهم ، فمن آمن بهم فقد خـالفِ الحقّ إلى الباطل بقبوله اياهم وباءَ بسخط من رب العالمين . فأما جوابُ قولهم إنهُ ليس في القرآن ذكر آية للنبي ﷺ ، وان من لم يكن في كتابـــهِ ذكر آية ونبوّة لم يجب التصديقُ بهِ ، فليخبرونا بالآية الموجودة لداوود النبي في زَبوره ، فإن لم يوجدونا ذلك ، فلمَ وبأية حجة سمّوهُ نبياً ولم يتنبأ عليه نبي قبله، ولا وُجد في كتابه ذكر آيةٍ ؟

فقد بان مما شرحتُ ، أنهُ لا حاجة في تصحيح خبر الأنبياء إلى نبوّة متقدمة عليهم ولا إلى أن يكون ذكر آياتهم وأعلام براهينهم مقيدة في كتبهم. فقد كان من الانبياء من له آيةٌ مذكورةٌ ونبوّةٌ ناطقة في كتابه ، لكنهُ لم يتنبأ عليه نبي قبله كما قد بيّنّا آنفـــاً ، فلم يُدْفع بذلك حقه مثل موسى

→
شاول في التخلص منه بالغدر ، ولكن الله أيد داود بنصره وآتاه الملك والنبوة ، وقد اتخذ اورشليم عاصمة لملكه ، وأنزل الله عليه الزبور وهو عبارة عن مجموعة من القصائد والأناشيد تتضمن تسبيح اللـه تعالى وتمجيده والثناء عليه . وكان عليــه السلام يلحنها ويرددهـا بصوته الجميل ، فتأخذ بمجامع القلوب ، وكانت الجبـــال والطيور تردد تسابيحه التي عرفت بالمزامير . وقـد علمه ربه كيف يصهـر الحديد ويلينه ويصنع منه دروعا يلبسها وقت الحرب .

وداود هو الحفيد الحادي عشر لابراهيم الخليل عليه السلام، وأبو نبي الله سليمان .

(٣٠) أحد كبار انبياء بني اسرائيل الأربعة . قيل انـه مات في عهد منسّى (القرن الثامن قبل الميلاد) .

(٣١) نحو سنة ٦٥٠ ــ ٥٨٥ ق.م. أحد كبار أنبياء بني اسرائيل الأربعة . تنبأ اواطنيه بسقوط أورشليم ودعاهم الـى الخضوع لملوك بابـل فاضطهدوه ، وبعد سقوط المدينة نجا من السبي وهرب الـى مصر فمات فيها . ينسب اليه كتاب مراثي ارميا .

ودانيال [٣٢] وأشعيا ونظرائهم عليهم السلام . وكان منهم من جمـــع الله له ذلك كله مثل المسيح عليه السلام ، فإنه أظهر آيات باهرات ، وتنبــأ على الغائبات المستورات ، وتظاهرت عليه نبوّات قبل ظهوره . وكان منهم من له آية وليست له نبوّة مذكورة في كتابه مثل أليسَع [٣٣] فإنه أحيا ميتين ولم يتنبأ نبوّةً رأساً ، ومنهم مثل حزقيال [٣٤] النبي ويوشـاع [٣٥] وذويهما ممن لم يكن له آية وكانت لهم نبوّةٌ ، ولكن نبوته التي تنبأ بها إنما صحّت بعد دهر طويل ، فلا حجة له فيها على من شـــاهده ولا لمن قبـِله حجّة في

---

(٣٢) نبي من أنبياء بني اسرائيل لم يرد له ذكر في القرآن . تروي التوراة قصته في السفر المعروف باسمه وينقسم الى جزئين ، الأول عــن سيرة دانيال وأصدقائه الثلاثة وهـم حنانيا وميخائيل وعـازار . والثاني عن رؤيا رآها دانيال الذي عاش بعد السبي في قصر نبوخذ نصر ملك بابل . وتتضمن سيرة دانيال نبوءاته عـن سقوط دولـة الميديين والفرس وتقسيم دولة اسكندر الأكبـر ، ولكن التحقيقات العلمية أثبتت تناقضا في الروايات التي يتضمنها سفر دانيال، وان كثيرا من هذه الروايات خيالية اسطورية .

(٣٣) أليسع او اليشع : أحد الأنبياء الذين جاء ذكرهم مرتين في القرآن الكريـم . قال تعالى في سورة الانعام (الآية ٨٦) : « واسماعيــل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » وقال فـي سورة ص (الآيــة ٤٨) : « واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل مـن الأخيار » . ويرى بعض المفسرين أن أليسع هـو رفيق الياس في رحلته وكان قد شفاه من مرض في صباه فأصبح تابعا له فلقيا في طريقهما العبد الصالح وهو الخضر ، وفي رواية أخرى ان أليسع هو عينه العبد الصالح الذي جاء ذكره في سورة الكهف .

(٣٤) أحد أنبياء اسرائيل الأربعة الكبار ، تنبأ بين ٥٩٣ و ٥٧١ ق.م. شجع شعبــه في محنته بعد سقوط مملكة أورشليم في أيدي البابليـين سنة ٥٨٦ ق.م ، أي بعد السَّبي .

(٣٥) هوشع : نبي من أنبياء بني اسرائيل الصغـار (٧٨٠ ـ ٧٣٠ ق.م) بكّتهم على نقضهم عهدهم مع الله .

تصديقه اياه من غير آية أظهرها لأهل زمانه . ومنهم من لم تكن له آية ولا نبوّة ولا خبر مقنع في كتابه وهو معدود في زمرة الأنبياء مثل مالاخي(٣٦) وحجي(٣٧) وناحوم(٣٨) . وإنما كتاب النبيِّ منهم في ثلاث ورقات أو أربع فقط . ومنهم مريم النبية(٣٩) أخت موسى ، وحنّةُ النبيّة(٤٠) فإنّ هاتين خاصّةً ، ليس لهما كتاب ، ولا نبوّة ، ولا آية ، ولا دلالة ، وقد عدُّوهما في الانبياء ، كيف وبأيِّ حجّةٍ يا بني عمي سمّيتم هؤلاء أنبياء، وهذه حالهم ؟ ولِمَ كفرُهمُ بنبوّة النبّي عليه السلام وله تلكَ الخصالُ المعدودة التي بعضها مُخلدة في القرآن ، وبعضها في الآثار التي تقوم مقام القرآن ، وإن فيما في القرآن منها أوْكد حجّة وأوضَح محجّةً وأصدق نبوّةً . فكيف ومعها ما أنا موضحهُ من نبوّات الأنبياء البرَرَة عليهِ وإشارات أكثرهم إلى نبوته وزمانه عليهم جميعاً سلام الله وبركاتهُ . فإن

(٣٦) أحد انبياء بني اسرائيل في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد . مهّد للاصلاح الديني الذي قام بها نحميا .

(٣٧) الصواب حجّاي . وهو من أنبياء بني اسرائيل . عاش في الجلاء في العهد الفارسي ثم عاد الى أورشليم فدعا الى تجديد بناء الهيكل سنة ٥٢٠ ق.م. ونبوءة حجّاي سفر من أسفار العهد القديم .

(٣٨) من أنبياء بني اسرائيل . تنبأ على خراب أشور نحو سنة ٦١٢ ق.م.

(٣٩) لا أدري فيما اذا كان المؤلف يقصد بمريم النبية أنها والدة السيد المسيح عليه السلام ، فان صحّ ذلك ، فقد وهم بقوله إنها أخت موسى ، فموسى بن عمران عليه السلام عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ومريم ابنة عمران والدة السيد المسيح عاشت في القرن الأول الميلادي .

(٤٠) من بنات بني اسرائيل التقيات . ذكر انجيل لوقا انها كانت ارملة مسنَّة وجدت في هيكل أورشليم يوم قدم يسوع المسيح الى سمعان الشيخ فأشادت بمديحه .

قلتم إنا نافرنا النبي ﷺ وجانبناه لأنه لا نبي بعد المسيح أوضحت لكم من كتبكم أن من نفث ذلك في أسماعكم وأجراه على ألسنتكم غير ناصح لكم بل غاش ولا موثوق به بل متهم .

فمن ذلك ما في كتاب فراكسيس وهو رسائل الحواريين في الفصل الحادي عشر انه قدم في تلك الأيام أنبياء من بيت المقدس وقام أحد منهم وكان يسمى أغابوس فتنبأ لهم وقال إنه سيكون في هذه البلاد مجاعة وقحط شديد . وقال في هذا الفصل انه كان في بِيْعَةِ أنطاكية أنبياء وعلماء منهم برنابا وشمعون ولوقيوس من مدينة قوريينا ومانايل وساول . وهؤلاء الخمسة من الأنبياء بانطاكية فيما ذكر . ومن متنبئات النساء فمذكورة أيضاً . قال في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب أنه كان لفيلفوس المفسّر أربع بنات متنبئات . وقال لوقا في كتاب فراكسيس ان الزُمَر المتوجهين إلى أنطاكية كان نزولهم على بيت يهوذا وشيلا لأنهم كانوا أيضاً أنبياء ، فهذا باب منقطع وقول قد هذّر وحجج لهم قد انحلّت وانفسخت . ووضحَ بأن قد كان بعد المسيح قوم يسمونهم رسلاً وأنبياء مثل فولس نفسه ، وأنا مفسّر تلك الخصال العشر التي فسرتها بعون الله وتوفيقه ومقدّم في كل باب ما هو مخلّد في القرآن توبيخاً لمن زعم أنه ليس في القرآن ذكر آية وتوخّياً لأن يعلم الناظر في هذا الكتاب فضله ومزية قدره ، وان الذين وُلدوا على الفطرة ورسخوا في الإسلام وأطنبوا في هذا الباب لم يبلغوا منه إلاّ دون ما بلغت . فمن اختلج في صدره شكّ فلْيَقِسْ كتابي هذا وما فيه من النبوات والحجج التامات الشافيات وما تتبعت من قلائد القوم ومُعاياتهم بجميع ما ألّفه المؤلفون منه منذ ظهر الإسلام إلى زماننا هذا، وذلك بتوفيق الله وعَوْنه وبركة أمير المؤمنين أيّده

الله وما يوجب الله فيه لأوليائه ومواليه. فهو الذي بعثني عليه ، مدّ اللهُ في عمره وسدّدني له وعرّضني لعظيم الأجر وجميل الذكر فيه . وكنت من قبل أن أُسلِمَ غافلاً عنهُ هائماً لا أُبصر رشداً ولا أهتدي لشيءٍ مما انكشف لي من بعدُ ، ولله المنّ والحمدُ ، فلقد رفع الحجب عن الأبصار وفتَحَ الأقفال وأخرج من ظلماتِ الضلال .

الباب الأول

في توحيده عليه السلام ودعائه الى ما دعا اليه ابراهيم[41] وجميع الأنبياء عليهم السلام

فأصحُّ الشهود على ذلك القرآن ، فإنه ينطق بان دعاء النبي عليه السلام لم يكن إلّا إلى إلهِ ابراهيم واسمعيل[42]

(٤١) هو أبو الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام . ورد اسمه في القرآن الكريم ٦٩ مرة ونعت بعدة صفات منها : ابراهيم الخليل ، والصديق النبي ، والحليم والمنيب والوفي والحنيف .

(٤٢) اسماعيل هو بالعبرية « يسمع ايل » أي : يسمع الله، أو سميع الله . وهو الابن الأكبر لنبي الله ابراهيم الخليل من هاجر جارية زوجته سارة . ولم تفصل قصة ولادة اسماعيل في القرآن الكريم وانما ذكرت في التوراة (سفر التكوين) ذلك أن سارة ضاقت ذرعا بابن جاريتها فحملته وهاجرت به الى واد مقفر غير ذي زرع حيث مكة اليوم . وكان أبوه يتردد على زيارته من وقت لآخر ، وفي احدى هذه الزيارات أمر الله ابراهيم ببناء الكعبة ، واقامة أول بيت مقدس ←

واسحق(٤٣) ويعقوب(٤٤) وإلى التوحيد وإلى ما دعت إليه الأنبياء البررة ، ودلت عليه العقول الصحيحة ، فمن ذلك قول الله تعالى في القرآن : « قُلْ هو الله أَحَدٌ ، الله الصَّمَد . لم يَلِدْ ولم يُولَدْ . ولم يكُنْ له كُفواً أحدٌ »(٤٥) وقال : « شَهِدَ

→

للناس ، فرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت ، ووضعا فيه الحجر الأسود ، وأصبح البيت مثابة للناس وأمنا . وقد جاء ذكر ذلك في سور مختلفة من القرآن ، كما جاء فيه قصة ذبح ابراهيم لولده وهمّه بذلك الى أن نودي بالكف عن ذلك بعد أن فدي بكبش يذبح عنه . ويعتبر اليهود أن اسحاق هو بطل قصة الفداء ، حرصا منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه . ومن ذرية اسماعيل عليه السلام جاء محمد عليه الصلاة والسلام . وقد ورد اسم اسماعيل في القرآن في ١٢ موضعا أكثرها معطوف على غيره من الأنبياء .

(٤٣) الابن الثاني لنبي الله وخليله ابراهيم من زوجته سارة . وقد ولد لأبيه وهو شيخ في المائة من عمره ، وأمه سارة وكانت في التسعين من عمرها . وقد أشار القرآن الكريم الى أن الملائكة بشّرت ابراهيم باسحاق وان سارة ضحكت من هذه البشرى عجبا . وقد جاء ذكر اسحاق في القرآن في ١٧ موضعا ، قال تعالى : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق » و« بشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » . ويقول اليهود والنصارى أن اسحاق هو الذي همّ أبوه بذبحه امتثالا لأمر ربه ، وهو ما يناقض رواية القرآن الكريم ، التي تقول أن اسماعيل هو الذبيح الذي همّ أبوه به ثم افتداه بكبش . وقد مات اسحاق عن مائة وثمانين من عمره ، وقد عمي في أواخر أيامه ، ودفن مع والده ابراهيم بمدينة الخليل (بفلسطين) كما هو الشائع .

(٤٤) نبي الله ، وهو ابن اسحاق عليه السلام . ورد ذكره في القرآن الكريم في ١٦ موضعا . رزق اثنا عشر ولدا أشهرهم يوسف عليه السلام .

(٤٥) السورة الثانية عشرة بعد المائة من سور القرآن الكريم ، عدة آياتها أربع ، مكية . نزلت بعد سورة الناس ، وتسبق في ترتيب المصحف سورة الفلق . والاخلاص لغة ، الصفاء .

الله أنهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ ، والملائكةُ وآلوا [٤٦] العلمِ قائماً بالقسطِ ، لا إلهَ إلاّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ [٤٧] » . وقال : « قُلِ اللهمّ مالكَ المُلْكِ تُؤتي الملكَ مَنْ تشاءُ وتَنْزعُ المُلْكَ ممَّنْ تشاءُ وتُعزُّ مَنْ تشاءُ وتُذلُّ مَنْ تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنكَ على كل شيءٍ قدير» [٤٨]. وقال « كيفَ تكفُرونَ بالله وكُنتُم أمواتاً فأحياكُم ثم يُميتُكُم ثم يُحييكُم ثم إليه تُرجَعون » [٤٩]. وقال في فضل الله ورحمته وعدله : « مَن عمِلَ صالحاً فلنفسه ومن أساءَ فعليْها وما ربُّك بظلّامٍ للعَبيد » [٥٠]. وقال : « ومن يَقْترِفْ حسَنَةً نزِدْ له فيها حُسناً إنّ الله غفورٌ شكورٌ [٥١]. وقال: فَمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه ومن يعمَلْ مِثْقالَ ذرّةٍ شراً يَرَه » [٥٢]. وقال: « ما أصابَكَ مِنْ حسَنَةٍ فمِنَ اللهِ وما أصابَكَ من سيِّئَةٍ فمِنْ نفسِك [٥٣].
وقال : « لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلا وُسعَها لها ما كسَبَت وعليْها ما اكْتَسَبَتْ [٥٤]. وقال يعدد فضل الله ورأفته بعباده : « إنّ اللهَ لا يَظلِمُ مِثقالَ ذرّةٍ وإنْ تَكُ حسنَةً يُضاعِفْها ويُؤتِ مِنْ لدُنْهُ أجراً عظيماً» [٥٥]. وقال : « وما ظلَمْناهُمْ ولكِنْ كانوا أنفُسَهُم يَظلِمون » [٥٦]. وقال : « فلمّا زاغُوا أزاغَ اللهُ قلوبَهُمْ واللهُ لا يَهدِي القوْمَ الفاسِقين » [٥٧]. وقال : « ذلك بأنّهم آمَنوا ثم كَفَروا فطُبِعَ على قُلوبِهم فهُم لا يَفقَهون » [٥٨]. وقال : « مَن جاءَ بالحسنَةِ فله عَشرُ أمثالِها ومن جاء بالسَّيئةِ فلا يُجزى إلا مثلها وهم لا يُظلَمون » [٥٩]. وقال : « فكيف إذا جمَعْناهُم ليومٍ لا ريبَ فيه وَوُفِّيَتْ كلُّ نفسٍ ما كسَبَتْ [٦٠].

فهذا هو إيمانُ آدم ونوح وابراهيم وجميع الانبياء والأصفياء صلوات الله عليهم لا يشكّون فيه ولا يمترون .

---

(٤٦) كذا بالأصل ، والصواب : وأولوا .
(٤٧) آل عمران ، الآية ١٨
(٤٨) آل عمران: ٢٦ (٤٩) البقرة: ٢٨ (٥٠) فصلت: ٤٦ (٥١) الشورى: ٢٣
(٥٢) الزلزال: ٧ ــ ٨ (٥٣) النساء: ٧٩ (٥٤) البقرة: ٢٨٦ (٥٥) النساء: ٤٠
(٥٦) النحل : ١١٨ (٥٧) الصف : ٥ (٥٨) المنافقون : ٣ (٥٩) الانعام : ١٦٠
(٦٠) آل عمران : ٢٥

الباب الثاني

في فضائل سننه وشرائعه

فأما أموره وشرائع دينه ، فحبُّ اللهِ تعالى ، وحبُّ الوالدين ، وَصِلةُ الرحِمِ ، والجودُ بالمصُونِ ، والبذْلُ للماعون ، والزهد في الدنيا ، والصوم والصلاة والصدقة والزكاة ، والعفو عن المذنب ، والوفاء بالعهد ، ومجانبة الغدر والكذب ، ودفع السيئة بالتي هي أحسن ، وتحريم السَّكَرِ والفجور والزّناءِ والرِّباءِ ، والأمرُ بإفشاء السلم والمقام ، وضرب هام الكفرة الطغام ، وغير ذلك من الأمور التي لا تقويم دين ولا دنيا إلا بهِ . من ذلك قول الله عز وجل : « الذين يُنفِقونَ في السَّرّاء والضَّرّاءِ والكاظِمينَ الغَيْظَ والعافِينَ عن الناسِ واللهُ يحبُّ المُحْسِنين » (٦١). وقوله: « الذين يُنفِقونَ أموَالهم بالليلِ والنهارِ سِرّاً وعَلانِيَةً فلهم أجْرَهُم عِند ربّهم ولاخَوْفٌ علَيْهِم ولا هُم يحزَنُون » (٦٢) . وقال : « خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْف وأعرِضْ عنِ الجاهِلين. وإما يَنزَغَنَّكَ منالشيْطانِ نزْغٌ فاستَعِذْ بالله، إنه هو السميعُ العَليم (٦٣) » . وقال : « ولا تُصاعِرْ (٦٤) خدَّكَ للناسِ ولا تمشِ في الأرض مَرحاً ، إن الله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فخور . واقْصِدْ

---

(٦١) آل عمران : ١٣٤ (٦٢) البقرة : ٢٧٤ (٦٣) كذا بالأصل ، والصواب : سميع عليم . (الاعراف : ١٩٩ — ٢٠٠) (٦٤) كذا بالأصل ، والصواب :

في مَشْيِكَ واغْضُضْ من صَوْتِكَ ، إن أنكَرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحمير » (٦٥) . وقال : « لا يُؤاخِذُكم الله باللَّغْوِ في أيْمانِكم ولكن يُؤاخِذُكم بما كَسَبَتْ قُلوبُكم (٦٦) . وقال : « قُلْ لا أمْلِكُ لِنَفْسي ضرّاً ولا نفعاً إلا ما شاءَ الله » (٦٧) . وقال : « يُريدُ الله بكم اليُسْرَ ولا يُريدُ بكم العُسْر » (٦٨) . وقال : « إنَّ المُسْلمينَ والمُسْلِماتِ والمؤْمِنينَ والمؤْمِناتِ والقانِتينَ والقانِتات (٦٩) والصادِقينَ والصادِقاتِ والصابِرينَ والصابِراتِ والخاشِعينَ والخاشِعاتِ والمتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ والصائِمينَ والصائِماتِ والحافِظينَ فُروجَهُمْ والحافِظاتِ والذاكِرينَ الله كثيراً والذاكِراتِ أعَدَّ الله لهم مَغْفِرَةً وأجْراً عظيماً » (٧٠) . وقال : « إنَّ الله يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى ويَنْهى عن الفحْشاء (٧١) والمُنْكَرِ والبَغْيِ ، يَعِظُكم لعلَّكم تَذَكَّرون (٧٢) . وقال : « ولا تُطِعْ كلَّ حلَّافٍ مَهين ، همَّازٍ مشَّاءٍ بنميمٍ مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ أثيم ، عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم » (٧٣) .

فما ترك أمراً مقوّياً مُصلحاً لعباده وموعظة جامعة لمرضاته الا وقد نطق به . ومن فضيلة دعوته عليه السلام انه عمَّ الناس كلهم بالدعاء ولم يدعهم النقرى (٧٤) ولا خصَّ بها طائفة دون أخرى كما فعل سائر الانبياء

تصعّر (٦٥) لقمان : ١٨ ــ ١٩

(٦٦) البقرة : ٢٢٥ (٦٧) يونس : ٤٩ (٦٨) البقرة : ١٨٥ (٦٩) قنت قنوتا : أطاع الله وخضع له وأقرّ بالعبودية . ويقال : قنت الله : لزم طاعته (متعد ولازم) فهو قانت ، وقنت وأقنت : أطال القيام في الصلاة والدعاء .

(٧٠) الأحزاب : ٣٥ (٧١) فحش الرجل : أتى بالقبيح الشنيع من قول أو فعل . والفاحشة : ما يشتد قبحه من الذنوب . والفحشاء : أقبح أنواع المعاصي ، كالزنا والقتل (٧٢) النحل : ٩٠ (٧٣) القلم : ١٠ ــ ١٣ والحلاّف : كثير الحلف ، والمهين : المذل ، والهمّاز : العياب في الغيب . والمشاء : النمام النقال للحديث على وجه الافساد . والنميم مصدر بمعنى السعاية والافساد بين الناس . والعتل : الجاف غليظ الطبع . والزنيم : اللئيم الذي يعرف بعلامات مميزة من الشر والفجور ، أو هو الدعي الملتصق بغير أهله (٧٤) أي دعوة خاصة .

ما خلا المسيح عليه السلام ، فإنه عمّ بالدعوة ووعد بالغفران والجنّة ، فأما الباقون فانهم كانوا يخبطون من حولهم بالسيف خبطاً وينلسفون أموالهم انتسافاً من غير دعاء ولا إبقاء ولا إعذار ولا إنذار ، كما أمر النبي ﷺ .

فأما زهد النبي ﷺ وتورّعه واستخفافه بزخارف الدنيا وغرورها، فإني ذاكرٌ منه ما يستدلُّ به على ان مَن كان في مثل تألّهه وعفافه لم يظن به الاختراع والبطل .

فانه روي عنه عليه السلام انه لم يشبع قط من خبز ولا لحم إلاّ على ضيق وشدة [٧٥] . وانه ﷺ زوج ابنته فاطمة من علي رضوان الله عليهما فكان ما جهزها به سريرٌ مزمّلٌ بشريطٍ ووسادةٌ من أدَمٍ حشوها ليفٌ وقدر وقربة وَسلة فيها شيء من زبيب ومن تمرٍ . وان عائشة رضي الله عنها كانت تقول : إن كنّا لنمكثُ اربعين يوماً مالنا مصباحٌ ، قيل لها ففيما كنتم تعيشون ؟ قالت بالأسودين الماء والتمر [٧٦] . وان فاطمة عليها السلام

---

(٧٥) أنظر جامع الترمذي ، باب الزهد .
وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « لقد مات رسول الله (صلعم) وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين » (صحيح مسلم، م ٨/٢١٩)
وعن سماك بن حرب قال : « سمعت النعمان بن بشير يخطب قال : ذكر عمر ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيت رسول الله (صلعم) يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا (تمر رديء) يملأ به بطنه » .
(صحيح مسلم م٨/٢٢٠) .

(٧٦) عن عروة عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقول : والله يا ابن أختي! ان كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقد في أبيات رسول الله (صلعم) نار ، قال : قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، الا أنه قد كان لرسول الله (صلعم) جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون الى رسول الله (صلعم) من ألبانها فيسقيناه .
(صحيح مسلم م٨/٢١٩) .

كانت تطحن الطحين بنفسها حتى غـَدَت يداها ورُئي أثرُ قطب الرّحى في يديها ، وانها شكت ذلك إلى النبي ﷺ وسألته خادماً يخدُمها فقال لها إي بُنَيّة ما عندي ما يَسَع نســاء المسلمين كلهنّ وأنت امرأةٌ منهنّ ، فاكثري ذكرَ الله وشكره . وكان عليه السلام كثيراً ما يشدُّ الحجَر بلتنبٍ على بطنه جوعاً ، ويأكل اذا أكل على الارض ، ويتوسّدُ يدَه اذا نام ، ويلبس العباءَ ويقول : انا عبدٌ آكلُ وأنامُ مثل العبد . » ، وأنهُ كان ﷺ اذا صلى سُمعَ له أزيزٌ كأزيز المِرْجل من البكاءِ . والازيزُ غَلَيانُ الجوف كأنه صَريرُ المرجل .

ومما رُوي عنه عليه السلام من مكارم الأخلاق ومَعالي الامور ، ان جبريل عليه السلام[٧٧] أتاه فقال له : « يا محمد جئتُك بمكارم أخلاق الدنيا

---

(٧٧) أقرب ملائكة الله المقربين لديه ، وأحد الملائكة الاربعة الذين يعرفون بحملة العرش وهم : اسرافيل وجبريل وميكائيل وعزرائيل ، وقد جاء ذكر جبريل في القرآن الكريم بالنص وبالاشارة ، قال تعالى : «قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله (البقرة، ٩٧) وقال : « من كان عدوا لله وملائكته وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين (البقرة ٩٨) وقال ، « وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير » (التحريم، ٤) . ولجبريل أسماء ونعوت منها : جبريل الأمين، وأمين الوحي ، وخازن القدس ، والروح الأمين ، والناموس الاكبر ، وطاووس الملائكة . وقد أشير اليه في القرآن ببعض هذه النعوت ، قال تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق (النحل ١٠٢) . وجبريل كما جاء في كتب التفسير هو الموكل بتبليغ الوحي والرسالة ، وهو الذي تشير اليه سورة العلق حين نزل على الرسول (صلعم) الوحي لأول مرة وهو متعبد في غار حراء وسمع صوتا يقول: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» فكانت هذه أول آية نزلت من كتاب الله العزيز . كما تشير قصة مريم الى أن جبريل هو الذي نفخ في حضنها فحملت وهو الذي بشرها بأن الله وهبها غلاما زكيا دون أن يمسسها بشر .

والآخرة وهي ان تصِلَ من قطعَك ، وتُعطيَ من حرمَك ، وتعفُوَ عمّن ظلَمَك . وقال : « عُودوا المرضى ، وأطعموا الجياعَ ، وفُكّوا العُناة [٧٨] يعني الأسرى . ومنهُ نهيُه ﷺ عن قِيلٍ وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال . وقال عليه السلام وهو يأمر بالقصد والقنوع « انّ روح القدس نفث في رُوعي انّ نفساً لن تموتَ حتى تستكمل رزقَها [٧٩] . وقال « ان عائِدَ المرْضى على مخارِف الجنة [٨٠] والمخارف جني النخْلِ . وقال عليه السلام « ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ مني » يعني اللهو واللعب . وقال تزهيداً في الدنيا « مَن جمع الأموالَ فانهُ يجيء يوم القيامة وفوق عينيه شُجاعٌ أقرعُ له نُكتتان سوداوان » وقال عليه السلام : « اتّقُوا النّار ولو بشِقّ تمْرَةٍ [٨١] . وقال : « قمتُ على باب الجنّة فاذا عامّةُ مَن يدخلها الفقراءُ

---

(٧٨) أخرجه البخاري والدارمي وأحمد بن حنبل .

(٧٩) في « فيض القدير » (٢/٤٥) : حتى تستكمل أجلها ، وبعدها « وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فان الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته » . رواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن أبي أمامة الباهلي ، ورواه عنه أيضا الطبراني ، ورواه ابن أبي الدنيا والحاكم عن ابن مسعود ، ورواه البيهقي في المدخل وقال : منقطع . وفي فيض القدير انه حديث ضعيف .

(٨٠) في صحيح مسلم «عائد المريض يمشي في مخرفة الجنة حتى يرجع» .

(٨١) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله (صلعم) النار ، فأعرض وأشاح ، ثم قال : « اتقوا النار » ، ثم أعرض وأشاح ، حتى ظننا أنه كأنما ينظر اليها ، ثم قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . رواه مسلم في صحيحه .

واذا أصحاب الجدّ محبوسون »[٨٢] والجدُّ الحظُّ في الدنيا .

وكان يقول عليه السلام : « رحم اللهُ عبداً سكتَ فسلم أو تكلّم فغنم » . ويُروى عنهُ عليه السلام أنهُ لم يغضب قط ، ولم يَسأل أحـداً شيئاً إلاّ لسبيل الله ، ولم يسأله أحـدٌ قط شيئاً إلاّ أعطاه وابتغَى به وجه الله . فأما ما سنّ وفرضَ الله تعالى على أمّته من الصلوات والطهّارة والتهيؤ لهـا والتقدُّم فيها من الإستنجاءِ والإستياك والتمَضمُض والإسباغ الذي معنـاه الإنقاءُ والإبتدار إلى الجماعات وحُسْن الخشوعِ والصّمْت ولزوم الصُّفوف والسّكنْت وتجديد السجود والركوع ومـا يُقال في كلّ ركعةٍ وسجْدةٍ حتى يستوي في علم ذلك كلُّ صغيرٍ وكبير عبْدٍ أو أمَةٍ ، فـإنّ ذلك على ما يجب للخالق في جلالهِ وكبريائه إذا ما قام العبدُ بينَ يديه والتمسَ مـا لديْه .

ولقد رُوي عنهُ عليه السلام انه قال لِمَن حضرَهُ يومـاً وقد استراث الوحْيُ : « وكيف لا يحتبسُ الوحْيُ وانتم لا تقلِمون أظفارَكم ولا تقصُّون شواربكم ولا تنقـُّون براجِمَكُم » . وكان يقول عليه السلام ، ان الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام البشر ، إنما هي للتسبيح والتكبير وقراءة القرآن ، وذلك خلاف فعل من يدخل فيها وهو سهكٌ أو جنُبٌ ، ومن يقطع صلواته بالأحاديث واللعب والتبزّق والترْداد . ورُوي عن النبي ﷺ انهُ قال عن الله عزّ وجلّ : « أعددتُ لعبادي ما لا عين رأت ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلْب بشَرٍ بَلْهَ ما أطلعتهم عليه » ، يعني فكيف . ومن رخْص دْينه وتيسيره ما أمر اللهُ به على لسـانه في السّحور ، وتقصير الصلاة لِمَن

(٨٢) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (صلعم): « قمت على باب الجنة فاذا عامّة من دخلها المساكين ، واذا أصحاب الجدّ محبوسون ، الا أصحاب النار ، فقد أمر بهم الى النار ، وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء » رواه مسلم .

كان مريضاً أو على سفَر ، وقولهُ ان « أيام التشريقِ أيامُ أكْل وشرْب وبعال »[٨٣] .

وممّا يُعرَف به فضيلةُ دينه وحسْنُ مَخارج أُمور القرآن انّا نجد التوراةَ التي في أيدي أهل الكتاب تقول ان كلّ قاتل يُقتل . وقد كان موسى عليه السلام نفسُه وداودُ وغيرُهما من الأنبياء قد قتلوا ، وقتَل ملوك بَني اسرائيل خلْقاً كثيراً فلم يستحقّوا بذلك القتلَ . فاما القرآنُ فانهُ يُحدّد ذلك ويحْظُره فيقول : « ومَن يَقْتُلْ مؤمِناً متعمّداً فجزاؤُهُ جهَنّم خالداً فيها »[٨٤] . ورُوي عنه عليه السلام انه قال : مَن قتلَ نفساً مُعاهَدةً بغير حقها لم يُرِحْ رائحةَ الجنّة[٨٥] أي لم يجد رِيحَها . فهذا أمرٌ مزمومٌ مخطوم مُقوّم مُهذّب . وقال موسى وعيسى عليهما السلام كلّ دعوى فانها تثبت بشاهدَين أو ثلاثة وذلك في قول النصارى واليهود . وقد يجوز ان يكونَ الشاهدان فاجرَين كاذَبين . وقال اللهُ على لسان النبيّ ﷺ « وأشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل منكم »[٨٦] فحدّد ذلك ونوّره بقولٍ وجيز حريز غير مُهْمِل ولا مغموز . وأمر موسى عليه السلام بني اسرائيل ان يلعنوا كلّ من أخلّ وقصّر في شيءٍ من نواميس التوراة وشرائعها لعناً مُصَرّحاً على لسان الأمّة ، وقد يكون ان يُفرط الرجلُ في بعضها أو يهفوَ أو يزلّ فيها ثم يندم وينيب فلا يستحق اللعنةَ . فأما القرآن فانه يقول :

---

(٨٣) عن نبيشة الهذلي قال : قال رسول الله (صلعم) : « أيام التشريق أيام أكل وشرب (وفي رواية) وذكر لله » (صحيح مسلم ١٥٣/٣) .

(٨٤) النساء : ٩٣

(٨٥) عن ابن عمرو قال : قال رسول الله (صلعم) : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » .

(٨٦) الطلاق : ٢

« والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوبَ إلاّ الله ولم يُصِرّوا على ما فعلوا وهُم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم وجنّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونِعمَ أجرُ العاملين (٨٧) . فهذه أنباءٌ وأمورٌ تدلّ على أن مَن أداها مسدّدٌ معصوم خائف خاشع ليس بمُنتَحِل مُستحِلٍّ ولا مُستخِفٍّ بالأمر هازلٍ .

(٨٧) آل عمران : ١٣٥ – ١٣٦

الباب الثالث

في آيات النبي صلى الله عليه وسلم التي رددها وجحدها اهل الكتاب

وأنا ذاكرٌ من آياتهِ عليه السلام ما فيه ُبرهانٌ لقوم ينصفونَ ، وأبدأُ في هذا الباب بما في القرآن منه ُ لئلا يقول المخالفُ إنه لو كان للنبي ﷺ آيةٌ لذكرت فيه كما ذُكر في التوراة والإنجيل آياتُ موسى وعيسى عليهما السلام. فمن آياته التي ظهرت في أيامه عليه السلام وشهد به القرآن انه أُسريَ به في لـيلة واحدة من المَسْجد الحرام إلى المسجد الاقصى وهو قولُ الله عز وجل: « ُسبْحَانَ الذي أَسْرَى ِبعبْدهِ لـَيْلاً مِن المسْجدِ الحرَامِ إلى المسجدِ الأقْصى الذي باركْنَا حَوْلهُ لِنُريهُ ِمنْ آياتِنَا » (88) وقد كانت العربُ أنكرتْ ذلك أنّى وكيف قطع مسافة شهرين ذاهباً وجائياً في ليلةٍ واحدةٍ فأتاهُ أبو بكر رضوان الله عليه وسأله عن ذلك ، فقال عليه السلام : « نعمْ ولقد مررْتُ بعيرِ بَني فـُلانَ وهم بوادي كذا وقد ندَّ لهم بعيرٌ فدَلَلتهم

(88) الاسراء : ١

عليه ، ومررت بعير بني فلان وهم نيام فشربت من إناء لهم وان عيرهم الآن ترد يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء». فابتدر القوم الثنية فاذا البعير قد اقبلت والجمل الاورق يقدمها . فلم يجدوا لآيته مدفعاً . وهي لعمري آية صريحة كافية موجودة في القرآن تجمع عليها اهل الاسلام طراً (٨٩).

ومن آياته التي ذكرها الله في كتابه انه لما آذاه المشركون واستهزأوا به قال له : « فأصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين» (٩٠). فهذا في القرآن ايضاً لا يختلف فيه اثنان ولا في تفسيره ،

---

(٨٩) حديث الاسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) . ومن أراد التوسع حول هذا الموضوع فليراجع الاحاديث الواردة في سورة الاسراء في تفسير ابن كثير وغيره من أمهات كتب التفسير .

(٩٠) الحجر : ٩٤ ــ ٩٥ . وفي « عيون الأثر » لابن سيد الناس : « وكان المستهزئون الذين قال الله فيهم « انا كفيناك المستهزئين » عمه أبا لهب ، وعقبة بن أبي معيط ، والحكم بن أبي العاصي ، والأسود بن المطلب بن أسد أبا زمعة ، والأسود بن عبد يغوث والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والحارث بن الغيطلة السهمي . فكان جبريل مع رسول الله (صلعم) فمر بهما من المستهزئين الوليد بن المغيرة والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن الغيطلة والعاص بن وائل واحدا بعد واحد فشكاهم رسول الله (صلعم) الى جبريل فقال: كفيتكهم . فهلكوا بضروب من البلاء والعمى قبل الهجرة » . وقال محمد بن اسحاق : «كان عظماء المستهزئين خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم » وقال : ان جبريل أتى رسول الله (صلعم) وهو يطوف بالبيت ، فقام وقام رسول الله (صلعم) الى جنبه ، فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار الى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه، ←

وهوَ ان خمسة نفرٍ من رؤساء المشركين كانوا يستهزءون به ويؤذونه ، فنزل عليه جبريل عليه السلام وقال له: إذا طافوا بالبيت فسل الله فيهم ماأحببْتَ فاني فاعلُه بهم ومنزله عليهم . فمرَّ به احدُهم وهو لَهَب [٩١] بن أبي لهب في الطوَاف ، فقال النبيُّ ﷺ أكلكَ كلبُ اللهِ فأكله الأسد [٩٢] . ثم مرَّ به الوليدُ بن المغيرَة [٩٣] فأومأ النبيُّ ﷺ إلى جُرْحٍ كان في باطن رِجله

←

ومر به الوليد بن المغيرة ، فأشار الى اثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، فانتقض به فقتله ، ومر به العاص بن وائل ، فأشار الى أخمص قدمه ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه فقتلته ، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار الى رأسه فامتخط قيحا فقتلته » .

(٩١) كذا في الأصل. ولعل الصواب : أبو لهب ، كما في اكثر كتب السيرة النبوية والتاريخ . وهو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم . لقب بأبي لهب لأنه كان أحمر الوجه مشرقا . وهو عم رسول الله (صلعم) واحد الاشراف الشجعان في الجاهلية ، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الاسلام ، وفيه الآية : « تبَّت يدا ابي لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب » قال ابن الأثير : « مات بمكة (سنة ٢هـ) عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر بمرض يعرف بالعدسة » .

(٩٢) لم تذكر هذه القصة في أكثر كتب السير والتاريخ التي أوردت خبر المستهزئين .

(٩٣) هو الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم : من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش ، ومن زنادقتها . وهو والد سيف الله خالد بن الوليد . كان ممن حرّم الخمر في الجاهلية ، وأدرك الاسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته . قال ابن الأثير : « وهو الذي جمع قريشا وقال : « ان الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه ، فيقول هذا : ساحر ، ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحدا مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر لأنه

←

فانتقَضَ عليهِ وقتله . ومرّ به الأسوَد بن عبد يغوث (٩٤) فأومأ إلى بطنهِ فسُقي ومات . ثم مرّ به الأسود بن المُطّلب (٩٥) فرمَى في وجههِ ورقةً وقال اللهمّ اعمِ بَصَرَه وأثكلهُ ولدهُ ، فابتُلي بذلك كلهِ . ومرّ به العاص بن وائل (٩٦) فأشار إلى أخمَصِ رجله فدخلت في أخمصه شوكة فقتلته. ومرّ

يفرق بين المرء وأخيه وزوجته » . وقال : « ومات بعد الهجرة بثلاثة اشهر ، وكان مر برجل من خزاعة يريش نبلا له فوطىء على سهم منها فخدشه ، ثم أومأ جبرائيل الى ذلك الخدش بيده فانتقض ومات منه ، وهو ابن خمس وتسعين سنة ، ودفن بالحجون » .

(٩٤) هو الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . قال ابن الأثير : « وهو ابن خال النبي (صلعم) وكان من المستهزئين ، وكان اذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه : هؤلاء ملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى . وكان يقول للنبي (صلعم) : أما كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟ وما أشبه ذلك . فخرج من أهله فأصابه السّموم فاسودّ وجهه ، فلما عاد اليهم لم يعرفوه وأغلقوا الباب دونه ، فرجع متحيرا حتى مات عطشا . وقيل : ان جبرائيل أومأ الى السماء فأصابته الأكلة فامتلأ قيحا فمات » .

(٩٥) هو الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي . قال ابن الأثير : « كان من المستهزئين ، ويكنى أبا زمعة ، وكان أصحابه يتغامزون بالنبي (صلعم) ، وأصحابه ويقولون : قد جاءكم ملوك الارض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر، ويصفرون به ويصفقون، فدعا عليه رسول الله (صلعم) أن يعمى ويثكل ولده ، فجلس في ظل شجرة فجعل جبرائيل يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها وبشوكها حتى عمي ، وقيل : أومأ الى عينيه فعمي فشغله عن رسول الله (صلعم) ، وقتل ابنه معه ببدر كافرا الخ » .

(٩٦) هو العاص بن وائل السهمي ، والد عمرو بن العاص . قال ابن الأثير : « كان من المستهزئين . وهو القائل لما مات القاسم ابن النبي (صلعم): أن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر ، فانزل «ان شانئك هو الأبتر» .

به الحارث ابن الطلاطلة(٩٧) فأومأ إليه فتَنَفَقَّا قيحاً وهلك. وكُفي النبي ﷺ أمر المستهزئين ، وكانوا أجِلَّةَ القوم وأعلامهم .

وَرُوِيَ عن آمنة (٩٨) أُم النبي ﷺ انه حين وقعَ من البطن خرج معهُ نورٌ وأنه وقع على أربع قوائم وهو رافع وجههُ وبصرَهُ إلى السماء (٩٩) .

←

فركب حمارا له فلما كان بشعب من شعاب مكة ربض به حماره فلدغ في رجله فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ، فمات منها بعد هجرة النبي (صلعم) ، ثاني شهر دخل المدينة وهو ابن خمس وثمانين سنة ». وقال ابن حبيب : « فخرج على حمار له، وهو يريد الطائف، فربض به حماره على شبرقة ، فدخلت في أخمصه منها شوكة ، فقتلته » .

(٩٧) هو الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان، ذكره ابن اسحاق (راجع الحاشية رقم ٩٠ ص ٦٦) . وهو في الكامل لابن الأثير « مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان » قال : وهو من المستهزئين ، وكان سفيها ، فدعا عليه رسول الله (صلعم) فأشار جبرائيل الى رأسه فامتلأ قيحا فمات » . وهو في « المحبر » لابن حبيب «الحارث بن قيس بن عدي الكعبي» قال : « وهو صاحب الأوثان ، وكان اذا مر بحجر أحسن من الذي عنده أخذه وألقى الذي عنده ، وفيه نزلت « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » (الجاثية : ٢٣) . وقال ابن حبيب أيضا في كتابه « المنمق » : « وأما الحارث بن قيس فانه أكل حوتا مالحا فأخذه العطش ، فلم يزل يشرب الماء حتى انقدّ، فمات وهو يقول : قتلني رب محمد » وقال ابن سعد : « الحارث بن قيس بن عدي ، وهو ابن الفيطلة والفيطلة أمه » .

(٩٨) هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف كانت أفضل امرأة في قريش نسبا ومكانة . امتازت بالذكاء وحسن البيان . توفيت بموضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة (سنة ٤٥ ق.هـ) .

(٩٩) أفاضت كتب السيرة في وصف ولادة الرسول العربي الكريم (صلعم)، فليراجع ما ذكره المؤلف في سيرة ابن هشام وغيرها .

ومن آياته التي بهرتْ وبانتْ لجميع من شاهدَه يوْمَ بدْرٍ[١٠٠] انهُ حثَّا في وجوه المشركين الترابَ وقال : « شاهَتِ الوجوه »[١٠١] أي قَبُحتْ ، فانهزموا وَقُتِلُوا .

ورُوي عن أنس بن مالك[١٠٢] رضي الله عنهُ ، انه سمع نداءَ رجُلٍ وهو يقول : « يا رسول الله تهدَّمتِ البيوتُ من شدة المطر » ، فقال عليه السلام « حوالَيْنا ولا علينا »[١٠٣] قال أَنس : « فبصرتُ بعيني السحابة انجابتْ عن المدينة » ، وأنه قال ﷺ لمن حضره من المشركين : «مَنْ لفظ

---

(١٠٠) الصواب يوم حنين ، أنظر الحاشية التالية .

(١٠١) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : « غزونا مع رسول الله (صلعم) حنينا ، فلما واجهنا العدو ، تقدمت فأعلو ثنية ، فاستقبلني رجل من العدو فأرميه بسهم ، فتوارى عني ، فما دريت ما صنع ، ونظرت الى القوم ، فاذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة النبي (صلعم) فولى صحابة النبي (صلعم) ، وأرجع منهزما وعلي بردتان متزراً باحداهما مرتديا الاخرى ، فاستطلق ازاري ، فجمعتهما جميعا ، ومررت على رسول الله (صلعم) منهزما وهو على بغلته الشهباء ، فقال رسول الله (صلعم) : « لقد رأى ابن الاكوع فزعا » ، فلما غشوا رسول الله (صلعم) نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب من الارض ثم استقبل به وجوههم فقال : « شاهت الوجوه » فما خلق منهم انسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين ، فهزمهم الله عز وجل بذلك ، وقسم رسول الله (صلعم) غنائمهم بين المسلمين » . (صحيح مسلم ١٦٩/٥) .

(١٠٢) صاحب رسول الله (صلعم) وخادمه . ولد بالمدينة سنة ١٠ ق.هـ (٦١٢م) وأسلم صغيرا وخدم النبي (صلعم) الى أن قبض . مات بالبصرة سنة ٩٣هـ (٧١٢م) . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. روى عنه البخاري ومسلم ٢٢٨٦ حديثا .

(١٠٣) « اللهم حوالينا ولا علينا » حديث شريف ذكره أبو داود وابن ماجه والنسائي وأحمد بن حنبل .

منكم باسم أبيه أو أخيه فأنا كاذب ، فما قدر أحدٌ منهم أن يلفظ بذلك . وأنه أُتي بقبضتين من تمرٍ يوم الخندق فأمر أن يُصبَّ بين يديه ، ونادى مناديه في الجيش فأكلوا وشبعوا[١٠٤] . وأنهُ انكسر سيف عكاشة بن محصن[١٠٥] يوم بدر ، فقال : يا رسول الله انكسر سيفي ، فأخذ عليه السلام جذْلاً من حطبٍ وأعطاه إياه وقال له هُزّهُ ، فهزّهُ عكاشة ، فصار سيفاً وتقدَّمَ وجالدَ به ولم يزل بعد ذلك معه . وانه عليه السلام أخذحصاة فحرّكها بيده فسبَّحت ثم وضعها في يدِ أبي بكر فسبَّحت ، ثم في يد عمر ثم في يد عثمان فسبَّحت في أيديهم .

وروي عن ابن عباس[١٠٦] رحمة الله عليه ، أن رجلاً أخذ فراخَ طيرٍ في غزاةٍ ، فجاء الطائر إلى رسول الله ﷺ ، ورفرف عند رأسه ثم وقع بين يديه ، فقال عليه السلام : من أخذ فراخ هذا الطائر أطلبوها وردوها عليه،

---

(١٠٤) جاء في « عيون الأثر » : وكان في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة منها خبر الحفنة من التمر الذي جاءت به ابنة بشير بن سعد لأبيها وخالها عبدالله بن رواحة ليتغديا به . فقال لها رسول الله (صلعم) هاتيه . فصبَّته في كفي رسول الله (صلعم) فما ملأهما ، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم قال لانسان عنده : « أصرخ في أهل الخندق أن هلمّ إلى الفداء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وانه ليسقط من اطراف الثوب » .

(١٠٥) هو عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي : صحابي من أمراء السرايا، شهد المشاهد كلها مع النبي (صلعم) وقتل في حرب الردّة (سنة ١٢هـ) .

(١٠٦) هو أبو العباس عبدالله بن عباس بن عبد المطلب : حبر الأمة ، الصحابي الجليل . ولد بمكة سنة ٣ ق.هـ (٦١٩م) ولازم رسول الله (صلعم) وروى عنه الاحاديث الصحيحة . شهد مع علي الجمل وصفين . كفّ بصره في آخر عمره . توفي بالطائف سنة ٦٨هـ (٦٨٧م) .

فوجدوها عند بعض المسلمين فردّوها عليه. وروي انه استناخ بعير بين يديه ثم رغا ، فدعا النبي ﷺ بصاحبه وقال : ان هذا البعيرَ شكا وذكر أنه لم يزلْ عندكم صغيراً تعملون عليه حتى اذا كبر أردتم قتله ، فقال الرجل: صدقَ يا رسول الله ، وأنا ممسكٌ عنه . وروي أن بني غِفار (١٠٧) أرادوا أن ينحروا عجلاً لهم ، فنطقَ العجل وقال : يا بني غفار أمرٌ نجيحٌ ، صائح يصيحُ بمكة لا إله إلا الله ، فتركوه وأتوا مكة ، فوجدوا النبي ﷺ قد ظهر ، فآمنوا به (١٠٨) .

وروي ان ذئباً شدّ على غنَم ، فقال الرعاة : أما تعجبون من هذا الذئب ؟ فنطقَ الذئب وقال : أنتم أعجب مني ، قد ظهر نبيٌّ بمكة يدعو إلى الله ولا تجيبونه (١٠٩) فهذه كلهـا أخبار مشهورة عند المسلمين كلهم لاينكرون شيئاً منها لأنها ظهرت على رؤوس الملأ . ومن صحة آية الذئب أن وُلد الرجل الذي كلمه الذئب يسمّون إلى يومنا هذا بني مُكلم الذئب ، يتوارثون ذلك وينسبون إليه لئلا ينسى ولا يجدَ أحد مساغاً إلى ابطاله .

ودعا عليه السلام على العرَب فاحتبس عنهم القَطْر وأجدبت البلاد .

وروي عنه عليه السلام أنه أخبر أبا سفيان (١١٠) بأمر جرى بينه وبين

---

(١٠٧) قبيلة من كنانة . أسلمت سنة ٦٢٩م . بايعت لأبي بكر بالخلافة وناصرته على حرب الردّة .

(١٠٨) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد جا ص ١٥٨ (ط. بيروت ١٩٦٠).

(١٠٩) المرجع السابق ص ١٧٣

(١١٠) هو ابو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف : صحابي، من سادات قريش في الجاهلية ومن الشجعان الابطال . وهو والد معاوية رأس الدولة الاموية . قاد قريشا وكنانة يوم احد ويوم الخندق لقتال رسول الله (صلعم)، وأسلم يوم فتح مكة، وشهد حنينا والطائف . ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الاخرى يوم اليرموك ، فعمي . توفي سنة ٣١هـ (٦٥٢م) بالمدينة ، وقيل بالشام .

امرأته هند(١١١) فعجب أبو سفيان من ذلك وقال: أخرجتْ سرّي ، لأدقنّ يدها على رجلها ، فقال النبي ﷺ : لا تظلم هنداً فما أخرجت سرّاً ، فقال أبو سفيان لقد اتّهمتها وهمَمْت بها ، فأما اذ حدثتني بما حدثتُ أنا به نفسي فقد علمت أنها بَريّة مما ظننت .

ومن آياته عليه السلام التي ظهرتْ ، ما روي عن أنس ابن مالك ، قال: اتخذتْ أمي حيساً(١١٢) وبعثت به إلى النبي ﷺ تسأله أن يطعم منه ،فقامَ النبيُّ ﷺ وقال لأصحابه : قوموا بنا ، فلمّا رأتْ أمي الجماعة قالت : يا رسولَ الله ، أعدَدْت لك شيئاً بمقدار ما تأكله وحدَكَ ، قال : فدعا النبيُّ ﷺ بالبركة وقال لي : أدخِلْ عليَّ عشرةً عشرة ، فكانوا يشبعون ويخرجون ، وأكلنا معهم وشبعنا .

وروي عن يَعْلَى بن أمية (١١٣) ان النبيَّ ﷺ أراد الوضوءَ وهو في

---

(١١١) هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. صحابية، عالية الشهرة ، كانت فصيحة جريئة ، صاحبة رأي وحزم ونفس وانفة . وقفت – قبل أن تسلم – في وقعة أحد، ومعها بعض النسوة يمثلن بقتلى المسلمين ويجدعن آذانهم وانوفهم ، وتجعلها هند قلائد وخلاخيل. ثم كانت ممن أهدر النبي (ص) دماءهم يوم فتح مكة وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ، فجاءته مع بعض النسوة في الأبطح ، فأعلنت إسلامها . شهدت اليرموك وحرضت على قتال الروم . اخبارها كثيرة . توفيت سنة ١٤هـ (٦٣٥م) .

(١١٢) الحيس طعام مركب من تمر وسمن وسويق .

(١١٣) هو يعلى بن أمية بن ابي عبيدة بن همام التميمي الحنظلي : صحابي، من الولاة ، ومن الاغنياء الاسخياء من سكان مكة . وهو أول من أرّخ الكتب . أسلم بعد الفتح ، وشهد الطائف وحنينا وتبوك مع النبي (صلعم) . استعمله أبو بكر على حلوان في الردّة ، ثم استعمله عمر على نجران، واستعمله عثمان على اليمن . ولما قتل عثمان انضم يعلى الى الزبير وعائشة ، قال ابن الأثير : ثم صار من أصحاب علي وقتل وهو معه في صفين (سنة ٣٧هـ) . روى ٢٨ حديثا اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة منها .

سفرٍ له فقال : اذهب إلى تينِكَ الشجرتين وقل لهما ان رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا ، فأقبلتا تخدّان الأرض خدًّا حتى اجتمعتا ، وتوضأ رسول الله ﷺ بينهما ثم أمرهما بالرجوع إلى مكانهما فرجعتا [114] .

وروي أن يهوديًّا دعاه إلى طعام وقرّب إليه شاةً مسمومةً ، فقال عليه السلام : هذه الشاةُ تخبرُني أنها مسمومة ، فأقرَّ اليهوديُّ بذلك وقال : أردتُ امتحانَك ، وقلت ان كان نبياً لم يخفَ ذلك عنه ، وان كان ملاّذاً أكل منها وأرحتُ الناس منه [115] . وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري [116] قال : كنا مع النبيّ ﷺ في سفرٍ [117] فأصابنا عطشٌ شديد فجهشنا إليه وبين يديه تورٌ فيه ماء فوضع يدهُ فيه ، وجعل الماءُ يتخلّلُ من بين أصابعه كأنها عيونٌ فشربنا وروينا منه ونحن أربعمائة رجل وتوضأنا .

فهذا في هذا الكتاب كافٍ ، ولو أردنا الاستقصاءَ لطال الكتابُ ، وفي هذا شفاءٌ لمن أراد الله هدايتهُ وانقاذه ، فإنّ منهُ ما هو مأخوذٌ وموجودٌ في القرآن نفسه ، ومنه ما هو مأخوذ عمّن أخذ المسلمون عنهُ القرآن وأتمن

---

(١١٤) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد جا ص ١٧٠ (ط. بيروت ١٩٦٠)

(١١٥) عن أبي سلمة قال : كان رسول الله (صلعم) لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ، فأهدت اليه يهودية شاة مصلية فأكل رسول الله (صلعم) منها هو وأصحابه ، فقالت اني مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم فانها قد أخبرت أنها مسمومة ، قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل اليها رسول الله (صلعم) فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : أردت أن أعلم ان كنت نبيا لم يضررك ، وان كنت ملكا أرحت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت . (الطبقات الكبرى — جا ص ١٧٢) .

(١١٦) صحابي ، من المكثرين في الرواية عن النبي (صلعم) وروى عنه جماعة من الصحابة . غزا تسع عشرة غزوة . روى له البخاري ومسلم ١٥٤٠ حديثا . توفي سنة ٧٨هـ (٦٩٧م) .

(١١٧) في الطبقات الكبرى : بالحديبية .

على ما أُدّي إلى الأمة منه . ومثَلُهم في ذلك مثَل حواريي[118] المسيح عليه السلام الذين أدّوا إلى النصارى أسفاراً من الانجيل[119] ونقلوا إليهم أخبار المسيح . فإن كانوا ثقاتٍ مؤتمنين على ما نقلوا وأدّوا من خبره فانهم في جميع ما أخبروا عنه غير متهمين . وان كانوا غير ثقاتٍ في ذلك فانهم في جميع ما أدّوا متهمون غاشّون لأنفسهم أوّلاً ثم للناس أجمعين .

---

(١١٨) الحواريون جمع حواري ، وهو الصاحب والناصر والرفيق ، ومن ثم عرف تلاميذ السيد المسيح الاثني عشر بالحواريين . وقد وردت كلمة الحواريين في خمسة مواضع من القرآن الكريم تشير جميعها الى تلاميذ المسيح . قال تعالى في سورة آل عمران : « قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله » وفي سورة المائدة : « واذا أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا » و « اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » وفي سورة الصف « كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصاري الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله » .

(١١٩) الانجيل كلمة يونانية معربة بمعنى البشارة ، وهو اسم يطلق على الكتب التي وضعت بعد زمن المسيح بأكثر من نصف قرن بالنسبة الى أولها وضعا. وهي تروي أحواله وأعماله التي وعظ بها ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله على يده وقصة صلبه من وجهة النظر المسيحية . وتعترف الكنيسة المسيحية بأربعة فقط من هذه الأناجيل وهي : انجيل متى ، وهو أقدمها ، وانجيل مرقص، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا . والأناجيل على كثرتها التي تبلغ نيفا ومائة منقطعة السند ، ولا توجد نسخة انجيل واحد من المعترف بها بخط تلميذ من تلاميذ المسيح . ويعرف الانجيل بالعهد الجديد تمييزا له عن التوراة أو العهد القديم .

الباب الرابع

في أنه عليه السلام حكى أموراً غائبة عنه تمت في أيامه

ونبدأ في هذا الباب بما في القرآن لتأكيد الحجة وإبطال العلة . قال الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ : « لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين مُحلّقينَ رؤوسَكُمْ ومُقَصّرين لا تخافون »[١٢٠] فدخلوه على ما قال الله في حياته. وقال: « وإذْ يَمْكُرُ بكَ الذينَ كفروا ليُثْبِتُوكَ أو يَقتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين »[١٢١]. فكان كما قال الله وأرادوا أن يمكروا به فردّ الله مكرهم وأبسلَ كيدهم. وقال الله: « يا أيُّها الذينَ آمنوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليكُمْ إذْ جاءَتْكُم جُنُودٌ فأرسلْنا عليهم ريحاً وجُنُوداً لم تَرَوْهَا »[١٢٢]. فضرب الله بذلك وجوه الكفار ، فكان كما قال . وقال : « سَنُلقِي[١٢٣] في قُلُوبِ الذينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فاضرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ واضرِبُوا مِنهُمْ كُلَّ

---

(١٢٠) الفتح : ٢٧
(١٢١) الأنفال : ٣٠
(١٢٢) الاحزاب : ٩
(١٢٣) كذا في الأصل ، والصواب : سألقي . الأنفال : ١٢

بَنَانٍ » . فكان كما أخبره الله به وفعل بهم كما أمر به . وقال : « أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ نافَقُوا يَقُولونَ لإخوانِهِمُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَأنْ أُخْرِجتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ولا نُطِيعُ فِيكُمْ أحَداً أبَداً وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إنهمْ لكَاذِبون . لَئِنْ أُخرِجُوا لا يَخْرُجُونَ معهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ ولَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأدْبَارَ ، ثُمَّ لا يُنْصَرُون (١٢٤) . فكان الأمر كما قال لنبيّه ﷺ ، فإن أولائك أُخرجوا فلم يخرج اخوانهم هؤلاء معهم وقوتلوا فلم ينصروهم . فما عسى يقول القائل في هذه الآيات والقرآن ينطق بها والامة تشهد بحقيقتها وانها كلها تتوقع صحتها وتتحدث الرجالُ والنساء بها ، فان ساغَ في مثلها التمويه والبهتُ وتقييده في القرآن ، فما نؤمنهم ان يكون في التوراة والانجيل أيضاً أباطيل مقيدة تجافى عنها مَن شاهد الامر وأغضى عليها ، فإن لم يسغ ذلك في التوراة والانجيل وفيمن حضرهما فذلك غيرسائغ في القرآن وحملته أيضاً . وقال الله عزّ وجل في الناكثين من مُشركي قريش : «قَاتِلُوهُم يُعذّبْهُمُ اللهُ بأيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَومٍ مُؤْمِنِين » (١٢٥)، فكان كما قال.

فأمّا ما جاءت به الأخبار الصادقةُ فمن ذلك ، عن سعد بن عبادة (١٢٦)

---

(١٢٤) الحشر : ١١ — ١٢

(١٢٥) التوبة : ١٤

(١٢٦) كذا في الأصل . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي ، أن رسول الله (ص) التقى هو والمشركون فاقتتلوا ، فلما مال رسول الله (ص) الى عسكره ، ومال الآخرون الى عسكرهم، وفي أصحاب رسول‌الله رجل لا يدع لهم شاذّة ولا فاذّة الا اتبعها، يضربها بسيفه، فقالوا : ما أجزأ منا اليوم احد ما أجزأ فلان، فقال رسول الله (ص) : «أما انه من أهل النار» فقال رجل من القوم : انا صاحبه أبداً ، قال : فخرج معه ، كلما وقف ، وقف معه ، واذا أسرع أسرع معه ، قال : ←

السّاعدي أنه قال : كنا مع النبيّ ﷺ في غزاة ومعنا رجل لا يبارز رجلا من المشركين إلا قتله ، فذكرنا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «أما إنه من أهل النار». قال سعد : فما زلت أتبعه لأعرف عاقبة أمره ، فأصابتهُ جراحةٌ واستبطأ الموت فوضع سيفهُ على سرّتهِ وتحامل عليه حتى قتل نفسه . ورُوي عنه عليه السلام انه قال لخالد بن الوليد وأصحابه حين وجههم إلى أكيدر [127]

فجرح الرجل جرحا شديدا ، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه، فخرج الرجل الى رسول الله (ص) فقال : اشهد انك رسول الله ، فقال : وما ذاك ؟ » قال : الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك ، فقلت : انا لكم به ، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحا شديدا ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه ، فقال رسول الله (ص) عند ذلك: « ان الرجل ليعمل عمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة » . (صحيح مسلم ١/٤٧) .

(١٢٧) هو أكيدر بن عبد الملك الكندي . كان أميرا على دومة الجندل (الجوف) في الجاهلية ، وله بها حصن منيع . عاصر ظهور الدعوة الاسلامية وأعرض عنها ، فوجه اليه النبي (ص) خالد بن الوليد في ٤٢٠ فارسا من المدينة ، فلما قارب حصنه رآه في نفر من رجاله يطاردون بقر الوحش ، فأحاط به ، فاستأسر ، فأوثقه خالد وأقبل به على الحصن فافتتحه صلحا، وعاد خالد بالأكيدر الى المدينة، فقيل : أسلم، ورده رسول الله (ص) الى بلاده وكتب له كتابا يمنع المسلمين من التعرض لقومه ممن آثروا الاحتفاظ بدينهم ما داموا يؤدون الجزية . ولما قبض رسول الله (ص) نقض أكيدر العهد ، فسار اليه خالد في خلافة أبي بكر واستولى على دومة الجندل ، وفيها قتل الأكيدر عام ١٢ هـ (٦٣٣ م) .

دَوْمةَ الجنْدَلِ [١٢٨] انكم ستأتونه فتجدونه على سطحه يتصيّدُ البقرَ فوجدوه كذلك .

وروي عنه ﷺ انه ضلّت ناقتهُ ، فجعل يسأل عنها ، فقال المنافقون هذا محمد يدّعي خبرَ السماءِ وهو لا يدري أين ناقته . فعلم ما يتحادثون به وقال : « ألا واني لا أعلم الا ما علّمني ربي وقد خبرّني ربي أن ناقتي بوادي كذا متعلق رأسها بشجرة » فطلبوها فوجدوها كذلك . وروي عنه ﷺ انه جمع الناس يوماً ونعى إليهم النجاشي ملك الحبشة وصلى عليه وكبرّ اربع تكبيرات . فورد الخبر بوفاته في ذالك اليوم . وكان بينه وبين أرض الحبشة البحرُ ولم تكن مكة مدرَجة مثل مدارج الشرق والغرب .

---

(١٢٨) واحة وبلدة في جوف السرحان في جزيرة العرب شمالي نجد على حدود الشام .

الباب الخامس

في نبوات النبي عليه السلام التي تمت بعد وفاته

ونبدأ في هذا الباب أيضاً بما في القرآن الكريم من نبوات النبي ﷺ لئلا يبقى لأهل الفتنة والعناد حجة يستندون إليها ولا علقة يتمسكون بها، فمن ذلك قول الله عز وجل: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ. الذي أنقضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»(١٢٩). أي انه يكون مذكوراً مقدماً اسمُه بعد اسم الله في كلّ خطبة ومنافثة ومُناظرة ونكاح وصلاة.

ومِن ذلك قولُ الله تعالى: «إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْح. ورأيتَ النّاسَ يَدْخلُونَ في دِينِ اللهِ أفْواجاً. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنّهُ كان توّابا»(١٣٠). فنعى بهذه السورة نفسه إلى أمته، وأنبأهم بما هو كائنٌ بعده من دخول الناس أفواجاً وأرْسالاً في دينه، فكان ذلك كذلك، يَروْنه ظاهراً بعد دهْر ولا يدفعونه. وقال الله تعالى. « آلم، غُلبَتِ الرُّوم في أدْنَى الأرْضِ

---

(١٢٩) الانشراح: ١ — ٤

(١٣٠) النصر: ١ — ٣

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِين »[131] . فكان ذلك كما قال في حربٍ كانت بين كِسْرَى وقَيْصَر ، وتبيّنَ للعَرَب أنّ الوحْيَ قد صَدَق ، وما زال ذلك حديثَهم وحديثَ صِبْيانِهم ونسوانهم في البُيُوتات يَتَوقّعونه ويستخبرون عنه حتى صحّ ذلك للجميع . ومن ذلك قولُ اللهِ عز وجل : « وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا »[132] . فهذه أيضاً نبوةٌ قد تمّتْ وظَهرتْ لا يجدُ أحدٌ إلى إنكارِها سبيلاً ، فقد استَخْلَفَ المسلمين ومكّن لهم دِينَهم وأبْدَلَهم بالخوف أمْناً ، فأيّةُ آيةٍ ونبوّةٍ أصحّ وأبينُ من هذه .

ومنه قولُه : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون »[133] . فقد صَدَقَ اللهُ ورسولُه عليه السلام وظهَر دينُه على كل دينٍ وأذْعَن له أهلُ كل ملّةٍ . ومنه قوله : « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً »[134] . وكان هؤلاء قومٌ تخلّفوا عن النبيّ ﷺ فأنبأهم أنهم يقاتلون الرومَ والفُرسَ أو يُسلِمون ، فكان كذلك كما في القرآن يَشْهد بصحّته العِيانُ .

---

(131) الروم : ١ – ٤

(132) النور : ٥٥

(133) التوبة : ٣٣

(134) الفتح : ١٦

فما عسى يقولُ المخالِفون في هذه النبوّات ، وما عسى يسوغُ لهم فيها من الردِّ والحجّة وقد برّتْ وتمّتْ وانتشرتْ شرقاً وغرباً وأشرقتْ ، وإنْ غَمطَ ذلك غامطٌ ولم يَكتفِ به وصَمَّم في ردّه وتكذيبِه لم يوبِقْ إلّا نفسَه ، ولم يُسخطْ إلّا ربّه ، ولم يُغيِّر إلّا حظّه ، ولم يَقدر أن يوجدَنا في كُتبِه إلّا مثلَه .

فأمّا ما جاءَت به الروايات التي لا شكّ فيها فقولُ النبيُّ ﷺ : « إنَّ لي خمسة أسماءٍ ، أنا محمدٌ ، وأحمدُ ، والماحي يمحو اللهُ بي الكفرَ ، والحاشرُ أحشرُ الناسَ ، والعاقبُ أي اني آخر الأنبياء »[١٣٥]. فقد صَدَقَ حديثُه عليه السلام ، وختمَ اللهُ به النبوّات ، ومحى به الكفرَ ، أي ذلّله وقلّله ومحاه عن سرّةِ الأرض وقلبها ، وبقي رسْمُه في أطرافها وحواشيها .

ورُوي أنه كان على جبل[١٣٦] فتحرّك الجبلُ فقال : « اسكنْ فما عليك إلّا نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيدٌ » . وكان معه أبو بكر فسُمّي صدّيقاً وعمر وعثمان فاستَشهدا بعدَه . وانه عليه السلام كان يقول لأصحابه : « أنا

(١٣٥) عن جبير بن مطعم ان رسول الله (ص) قال : « إنّ لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدميّ ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب » زاد مسلم : الذي ليس بعدي أحد ، والترمذي : الذي ليس بعدي نبي . اخرجه مسلم والبخاري في صحيحيهما ، ومالك في الموطأ ، والترمذي في المناقب والنسائي في التفسير .

(١٣٦) جبل حراء . فعن أبي هريرة رضي الله عنه : ان رسول الله (ص) كان على جبل حراء فتحرك ، فقال رسول الله (ص) : « اسكن حراء فما عليك الا نبي أو صدّيق أو شهيد » وعليه النبي (ص) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم . (صحيح مسلم ١٢٨/٧) .

فَرَطُكُم على الحَوْض »(١٣٧) اي أتقدّمُكم ، والفارطَ المتقدّم ، فقبَضَه الله قبلَهم .

وقال عليه السلام لفاطمة ، رضي الله عنها ، في مرَضِه التي مات فيها : « إنّكِ أسرَعُ أهْلي لُحوقاً بي »(١٣٨) فكانتْ أوّلَ مَن مات من أهْلِه بعده(١٣٩) . وقال لعليّ بن ابي طالب رضوانُ الله عليه : « لتُخْضَبَنَّ

---

(١٣٧) اخرجه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل . وسببه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ان النبي (ص) أتى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا ان شاء الله بكم لاحقون، انا قد رأينا اخواننا قالوا أولسنا باخوانك ؟ قال : أنتم أصحابي واخواننا الذين لم يأتوا بعد . قالوا : كيف تعرف من يأتي بعدك من امتك ؟ قال : ارأيتم لو ان رجلا له خيل غرّ محجلة بين ظهراني خيل دهم بهم الا يعرف خيله؟ قالوا : بلى . قال : فانهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وانا فرطكم على الحوض، الا ليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، اناديهم الا هلمّ، فيقال: انهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا» .

(١٣٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : اجتمع نساء النبي (ص) فلم يغادر منهن امرأة ، فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله (ص) فقال : مرحبا بابنتي ، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم انه أسر اليها حديثا ، فبكت فاطمة ، ثم انه سارها فضحكت أيضا ، فقلت لها : ما يبكيك ؟ فقالت : ما كنت لافشي سرّ رسول الله (ص) ، فقلت : ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن ، فقلت لها حين بكت : أخصك رسول الله (ص) بحديثه دوننا ثم تبكين ، وسألتها عما قال ، فقالت : ما كنت لأفشي سرّ رسول الله (صلعم) ، حتى إذا قبض سألتها فقالت: انه كان حدثني ان جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة وانه عارضه به في العام مرتين ، ولا أراني الا قد حضر أجلي ، وانك أول أهلي لحوقا بي ، ونعم السلف أنا لك ، فبكيت لذلك ، ثم انه سارني فقال : الا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك » . (صحيح مسلم ١٤٣/٧ — ١٤٤) .

(١٣٩) توفيت فاطمة ، عليها السلام ، بعد أبيها بستة أشهر على أرجح الأقوال .

هذه مِن هذا » ، وأشار إلى لحيَتِه ورأسِه ، وأنّ عليًّا اعتلّ بعده علّة شديدة ، فقال له أهلُه : قد تخوّفنا عليك من مَرضتك هذه ، قال : لكني لا أخافُها لأن رسولَ الله ﷺ قال : « لَتُخضَبَنّ هذه مِن هذا » فكان كذلك، عُوفي مِن مرضتِه هذه ثم ضُرب على رأسه بالسّيف فقُتل[١٤٠].

وقال عليه السلام لعثمان: « انّ اللهَ سيُقَمِّصك قميصاً وإنهم حاملوك على خلعِه فلا تفعل »[١٤١] ، فلما حُوصِر عثمان وقالوا له اخلَع الخلافةَ ، قال لهم ان النبيّ ﷺ قال لي كَيْتَ وكَيْتَ ولستُ فاعلاً ما تقولون ، فقتِل .

---

(١٤٠) انظر في مقتل علي بن أبي طالب كتاب « أعيان الشيعة » ج ٣ وما فيه من مراجع .

(١٤١) عن عبد الرحمن بن جبير قال : قال رسول الله (ص) لعثمان : « ان الله كساك يوما سربالا فان أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه لظالم » . وعند عبدالله بن عمر قال : « قال لي عثمان وهو محصور في الدار : ما ترى فيما أشار به علي المغيرة بن الأخنس ؟ قلت : ما اشار به عليك ؟ قال : ان هؤلاء القوم يريدون خلعي فان خلعت تركوني وان لم أخلع قتلوني، قلت : ارايت ان خلعت تترك مخلدا في الدنيا قال: لا. قلت فهل يملكون الجنة والنار؟ قال: لا. فقلت: ارايت ان لم تخلع هل يزيدون على قتلك ؟ قال : لا . قلت : فلا أرى أن تسنّ هذه السنَّة في الاسلام ، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه ، لا تخلع قميصا قمّصكه الله » . وقال في الطبقات الكبرى : كانوا يدخلون على عثمان وهو محصور فيقولون : انزع لنا ، فيقول : لا أنزع سربالا سربلنيه الله ولكن انزع عما تكرهون » .

وقال ﷺ لعمّار بن ياسر (١٤٢) : « تقتلك الفئة الباغية » (١٤٣) فقتل بحرب بين علي ومعاوية ، فكان معاوية لا ينكر الحديث ، لكنه يقول ليس أجنادي الذين قتلوه وإنما قتله من غرّه وأخرجه إلى القتال .

وقـال ﷺ للزبير بن العوام (١٤٤) : « إنك تقاتل علياً وأنت ظالمٌ

(١٤٢) صحابي ، من الولاة الشجعان ذوي الرأي . وهو أحد السابقين الى الاسلام والجهر به . شهد بدرا واحدا والخندق وبيعة الرضوان . ولاّه عمر الكوفة ثم عزله . شهد الجمل وصفين مع علي بن أبي طالب وقتل في الثانية سنة ٣٧ هـ وعمره ثلاث وتسعون سنة . وفي الحديث : ما خيّر عمار بين أمرين الا اختار أرشدهما .

(١٤٣) عن أم سلمى قالت : (سمعت النبي) (ص) يقول : تقتل عمارا الفئة الباغية . وعن أبي قتادة قال : قال النبي (ص) لعمار وهو يمسح التراب عن رأسه : بؤسا لك ابن سمية ، تقتلك فئة باغية » . وعن حنظلة بن خويلد العنزي قال : بينا نحن عند معاوية اذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار ، يقول كل واحد منهما انا قتلته ، فقال عبدالله بن عمرو : ليطب به أحدكما نفسا لصاحبه ، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال معاوية : الا تغني عنا مجنونك يا عمرو (عمرو بن العاص) فما بالك معنا ؟ قال : ان أبي شكاني الى رسول الله (ص) فقال : أطع أباك حيا ولا تعصه ، فأنا معكم ولست أقاتل » . (الطباقت الكبرى ج ٢\٢٥٢ ـ ٢٥٣) .

(١٤٤) صحابي شجاع، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سل سيفه في الاسلام . وهو ابن عمة النبي (ص) . أسلم وله ١٢ سنة . شهد بدرا واحدا وغيرهما . قالوا : كان في صدر الزبير أمثال العيون من الطعن والرمي . قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل (٣٦ هـ ـ ٦٥٦ م) بوادي السباع (على سبع فراسخ من البصرة) روى له البخاري ومسلم ٣٨ حديثا .

له (١٤٥) ففعَل ، وقرَّعَه عليٌّ بذلك . وقال ﷺ لامرأته عائشة رضي الله عنها : « انك ستَنبَح عليك كلاب الحوْءَب »(١٤٦) ، فلما سارتْ إلى البَصْرة سمعتْ نباحاً وهي تسير ليلاً فسألتْ عن الموضع فقالوا ماءٌ يقال له الحوءب ، فذكرتْ قوله عليه السلام فاسترجعتْ وندمتْ على ما كان مِن خروجِها .

وكان عليه السلام يقول في الحسَن بن علي عليهما السلام : « انّ ابني هذا سيّدٌ وسيصلح الله به بين فِئتَين مِن المسلمين »(١٤٧) . وقال عليه السلام :

---

(١٤٥) قال الطبري : « قال علي للزبير (في يوم الجمل) أتذكر يوم مررت مع رسول الله (ص) في بني غنم فنظر الي فضحك وضحكت اليه فقلت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك : صه ، انه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وانت له ظالم ، فقال : اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لا أقاتلك أبدا » . ثم ترك زبير الحرب ، ولم يحارب مع علي ، وتوجه الى وادي السباع قاصدا المدينة ، فقتل هناك . (راجع الحاشية السابقة) .

(١٤٦) الحوءب من مياه العرب على طريق البصرة . قال ياقوت : « وفي الحديث ان عائشة لما أرادت المضي الى البصرة في وقعة الجمل مرت بهذا الموضع ، فسمعت نباح الكلاب ، فقالت : ما هذا الموضع ؟ فقيل لها : هذا موضع يقال له الحوءب ، فقالت : انا لله ، ما أراني الا صاحبة القصة . فقيل لها : وأي قصة ؟ قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول وعنده نساؤه : ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوءب سايرة الى الشرق في كتيبة » وهمت بالرجوع فغالطوها وحلفوا لها انه ليس بالحوءب » (معجم البلدان ٣٥٢/٢ ــ ٣٥٣ . وانظر أيضا مسند الامام أحمد بن حنبل (٥٢/٦ و ٩٧) .

(١٤٧) عن أبي بكرة قال : « كان النبي (ص) يصلي بنا فيجيء الحسن وهو ساجد صبي صغير حتى يصير على ظهره ــ أو رقبته ــ فيرفعه رفعا رفيقا ، فلما صلى صلاته قالوا : يا رسول الله ، انك لتصنع بهذا الصبي شيئا لا تصنعه بأحد ، فقال : « ان هذا ريحانتي ، وان ابني هذا سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » (حلية الأولياء ٢\٣٥) وانظر أيضا صحيح البخاري والترمذي والنسائي ومسند أحمد بن حنبل .

« زويتْ لي الأرض حتى رأيت مشارقَها ومغاربَها وسيبلغ مُلْكُ أمّتي إلى حيث زويَ لي منها » (١٤٨) ومعنى زوي أي جُمعَ . وانه أخذ يومَ الخندق المعولَ وضرب به كدْيةً كانت استصعبتْ على مَن يحفر فخرجتْ منها نارٌ فقال عليه السلام : « لقد رأيت من بين هذه النار مدائن كِسْرى. ثم ضرب ضربةً أخرى فخرجتْ نارٌ فقال لقد رأيت من بينهـا مدائن قَيْصر ولَيَمْنَحنّها الله على أمّتي من بعدي » (١٤٩) .

---

(١٤٨) عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : « ان الله زوى (جمع) لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها ، وأعطيت الكنزين ، الأحمر والأبيض (المراد كنزي كسرى وقيصر) واني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة (أي بقحط يعمهم) وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال : من بين اقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا » (صحيح مسلم ١٧١/٨) .

(١٤٩) جاء في صحيح البخاري عن جابر قال : « إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة (وعند النسائي : صخرة لا تأخذ منها المعاول) فجاءوا الى النبي (ص) فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقام وبطنه مشدود بحجر (من الجوع) — ولنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبي (ص) المعول فضرب ، فعادت (أي الكدية) كثيبا أهيل . وعند أحمد والنسائي : فاشتكينا ذلك لرسول الله (ص) ، فجاء فأخذ المعول فقال : بسم الله ، فضرب ضربة فنثر ثلثها ، وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله اني لأبصر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، واني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الأن ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة » . وهذا القول النبوي الكريم أثبتت الأحداث فيما بعد صدقه فصار من أعلام النبوة التي لا تخطىء ، فقد تم استيلاء المسلمين على كل الأماكن التي ذكر النبي (ص) انه اعطى مفاتيحها ، وتم كل ذلك في عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ويروى انه عليه السلام كان إذا رجع من سَفرةٍ بدأ بالمسْجد فصلّى ركعتَين ثم أتى فاطمةَ رضي الله عنها ، فأتاها عند مُنْصرَفِه من الخنْدق فجعلتْ تبكي وتَلْثِم فاه ، فقال لها : « ما لك يا فاطمة تبكين ؟ قالت : « يا رسولَ الله أراكَ شعِثاً نصباً قد اخلولقتْ ثيابُك . قال : « يا فاطمة انّ الله بعث أباك بأمْر لا يُبقي على وجه الأرض بيتٌ مَدَر أو شعْر إلا أدْخَلَ فيه عزًّا أو ذلاً حتى يَبْلغ حَيْث بلَغَ الليل [١٥٠].

وروي عن أنس بن مالك [١٥١] انــه قال لي : كنت مع النبيﷺ في حائط فسمعت قرعَ الباب ، فقال لي : قم يا أنس افتَح له البابَ وبشّرْه بالجنّة ، وأخبرْه انــه يَلي أمْرَ أمّتي من بَعدي » ، فذهبتُ فإذا أنا بأبي بكر رضي الله عنه فبشّرته وأعلمتهُ ما سمعته وانصرفت ، فقَرَعَ البابَ قارعٌ آخر ، فقال : قم وافتَحْ له البابَ وبشّره بالجنة وبأنه يَلي أمْرَ أمتي من بَعْد أبي بكر ، ففتحت ، فإذا أنا بعمر رضي الله عنه ، ففعلت ما أُمرت به . ثم سمعت قرْعَ الباب ، فقال لي عليه السلام : قم وافتح له البــاب وبشّره بالجنة وبولاية أمر الأمّة بعد عمر ، فإذا أنا بعثمان رضي الله عنه »[١٥٢].

---

(١٥٠) انظر مسند أحمد بن حنبل ٤/٦ .

(١٥١) انظر الحاشية التالية .

(١٥٢) عن سعيد بن المسيب قال : أخبرني ابو موسى الأشعري رضي الله عنه ، أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال : لألزمن رسول اللــه (ص) ، ولأكونن معه يومي هذا ، قال : فجاء المسجد ، فسأل عن النبي (ص) فقالوا : خرج وجّه ها هنا ، قال : فخرجت على أثره أسأل عنه ، حتى دخل بئر أريس ، قال : فجلست عند الباب ، وبابها من جريد ، حتى قضى رسول الله (ص) حاجته وتوضأ ، فقمت اليه ، فاذا هو قــد جلس على بئر أريس وتوسط قفّها وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر ، قال : فسلمت عليه ، ثم انصرفت ، فجلست عند الباب ، فقلت ←

وروي عنه عليه السلام انـه كان يقول : « لا تقوم الساعة حتى تروا أقواماً كأنَّ وجوهَهم المَجَانُ المُطْرقة [١٥٣] ، وانه ﷺ يقول : « أيُّ

لأكونن بواب رسول الله (ص) اليوم ، فجاء أبو بكر ، فدفـع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أبو بكر ، فقلت : على رسلك ، قال : نعم ، ثم ذهبت فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن ؟ فقال : « ائذن له ، وبشّره بالجنة» ، قال : فأقبلت حتى قلت لأبي بكـر : أدخل ، ورسول الله يبشرك بالجنة ، قال : فدخل أبو بكر ، فجلس عن يمين رسول الله (ص) في القفّ ، ودلى رجليه في البئر ، كما صنع رسول الله (ص) وكشف عن ساقيه ، ثم رجعت ، فجلست ، وقـد تركت أخي يتوضأ ويلحقني ، فقلت : إن يرد الله بفلان (يريد أخاه) خيرا يأت به ، فاذا انسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رسلك، ثم جئت الى رسول الله (ص) فسلمت عليه ، وقلت : هذا عمر يستأذن ؟ قال : « ائذن له وبشّره بالجنة » فجئت عمر رضي الله عنه فقلت : اذن ويبشرك رسول الله (ص) بالجنة ، قال : فدخل فجلس مع رسول الله (ص) في القف عن يساره، ودلى رجليه في البئر ، ثم رجعت فجلست ، فقلت إن يرد الله بفلان خيرا ــ يعني أخاه ــ يأت به ، فجاء انسان فحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان . فقلت : على رسلك ، قـال : وجئت النبي (ص) فأخبرته ، فقال : « ائذن له ، وبشّره بالجنة ، مع بلوى تصيبه » قال : فجئت فقلت : ادخل ويبشرك رسول الله (ص) بالجنة مع بلوى تصيبك ، قال : فدخل فوجد القف قد ملىء ، فجلس وجاههم من الشق الآخر . قال شريك : فقال سعيد بـن المسيب : فأولتها قبورهم . (صحيح مسلم ١١٩/٧) .

(١٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر » . (صحيح مسلم ١٨٤/٨) .

بلدانكم حُرْشَةَ؟ فقيل له : خُراسان، قال: ستفتح عليكم من بعدي»(١٥٤).
وما يشكُّ أحدٌ من أبناءِ هذه الدولة العبَّاسيَّة وغيرهم أنَّ أبا مُسلم (١٥٥) خرجَ وهو غير شاكٍّ في أنَّ الغلبة والخلافةَ لأهلِ هذا البيت (١٥٦) ، وانه

---

(١٥٤) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول: « ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» (صحيح مسلم ٥٢/٦ وأحمد بن حنبل ١٥٧\٤) وانظر ايضا سنن أبي داود وابن ماجه .

(١٥٥) هو أبو مسلم الخراساني (١٠٠ – ١٣٧ هـ) أحد كبار القادة ، ومؤسس الدولة العباسية . ولد في ماه البصرة (مما يلي أصبهان) عند عيسى ومعقل ابني ادريس العجلي، فربياه الى أن شب ، فاتصل بابراهيم بن محمد (زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها) فولاه ابراهيم أمر الدعوة في خراسان ، وطلب من دعاته اطاعته ، فحارب أبو مسلم عمال بني أمية ، وسقطت مدن ايران وخراسان بين يديه واحدة بعد أخرى . وبويع لأبي العباس السفاح بالخلافة (سنة ١٣٢ هـ) فخطب أبو مسلم باسمه ، ومات السفاح ، وخلفه أخوه المنصور ، فرأى من أبي مسلم ما أخافه ان يطمع بالملك فقتله سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) برومة المدائن . أخباره كثيرة .

(١٥٦) عن محمد بن الحسن الشامي قال : حدثني محمد بن أبي صفوان الثقفي قال : قال أبو مسلم : شهدت خطبة يزيد الناقص بمسجد دمشق وأنا مع الامام ابراهيم فقال لي : يا عبد الرحمن هذا آخر ملك بني أمية ، قد جاءهم ما كانوا يوعدون ، (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (الانعام : ٤٥) شمِّر يا عبد الرحمن، شمِّر ، الوحى الوحى (أي البدار البدار) والنجا النجا ، الحق بشيعتي وانصاري بعقوة خراسان . قال أبو مسلم : فأوصاني بوصاياه وأمرني بأمره فخرجت من فوري ذلك، فأزال الله ملك بني أمية ، وقطع دابرهم ، وأظهر حق بني العباس ، فما انصرفت الى العراق الا وأبو العباس خليفة قد استوسقت له البلاد ، واجتمعت عليه الأمة ، وظهر أمر الله وهم كارهون، ولله عاقبة الأمور » (أخبار الدولة العباسية ص ٢٥٧) .

لمـــا اقترب من الحِيرَةِ[١٥٧] ، وجّه مَن يَسألُ عمَّن كانَ فيها من بني العبّاس[١٥٨] ، فلما رآهم الرسولُ قـــال : « أيّكم ابنُ الحارثيّة ؟ وهو أبو العباس[١٥٩] أميرُ المؤمنين غفرَ اللهُ له ، لأنه كان في الحديث أنّ أوّلَ مَن يُستخلَف ابن الحارثية[١٦٠] لا يشكّون فيه . وأعجبُ مِن هذا أنّ بني أميّة لم يكونوا يشكّون في أنّ الخلافةَ صائرةٌ إلى أهلها من أهلِ هذا البيت ، فكانوا يقتلونهم ويطلبونهم تحت كلّ حجَرٍ . وكان أهلُ خراسان يُرسِلون إليهم الرسلَ وهم بالشّراة[١٦١] تأميلاً لهم ، ولا يشكون في أمْرِهم

---

(١٥٧) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة . افتتحها خالد بـن الوليد سنة ٦٣٣ م .

(١٥٨) في الكامل لابن الأثير ، وغيره من كتب التاريخ ، ان أبا حميد محمد بن ابراهيم الحميري – وهو أحد الدعاة السبعين – دخـل الكوفة فلقي خادما لابراهيم بن محمد يقال لـه سابق الخوارزمي ، فعرفه ، فسأله عن ابراهيم ، فأخبره ان الخليفة الأموي مروان بن محمد قتله، وان ابراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس واستخلفه من بعده ، وانه قدم الكوفة ومعه أهل بيته ، فصار اليهم وهم في سرداب ، فلما دخل عليهم سأل أبو حميد : أيكم ابن الحارثية ؟ فأشير له الى أبي العباس، فسلم عليه بالخلافة وقبّل يديه ورجليه وقال : مرنا بأمرك ، وعزّاه بأخيه ابراهيم ، ثم مضى وأحضر أصحابه ، وأخرج أبا العباس، فبايع الناس له .. » .

(١٥٩) هو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبـد المطلب، أول خلفاء الدولة العباسية . لقب بالسفاح لكثرة ما سفح مـن دماء الأمويين . ولد سنة ١٠٤ هـ (٧٢٢ م) وبويع له بالخلافة جهرا فـي الكوفة سنة ١٣٢ هـ ، ومرض بالجدري فتوفـي شابا بالأنبار سنـة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) .

(١٦٠) انظر في ذلك سيرة السفاح في مختلف كتب التاريخ .

(١٦١) كتلة صخرية تبدأ في شمالي الحجاز وتنتهي في فلسطين والأردن.

حتى قُتل منهم مَن قُتل . ثم ظهر الأمرُ في الوقت الذي قدّر اللهُ أن يظهرَ بأحاديثَ مأثورةٍ ، ولقد بلغَنا أنه ورد على أبي العباس رحمَه اللهُ فتحُ اليَمن والسِّنْدِ في يوم واحدٍ . فأظهر اغتماماً شديداً بذلك ، فقال له أهلُ بيته : يا أميرَ المؤمنين انه يومُ سرور ، فما هذا الحزنُ ؟ فقال لهم : أنَسيتُم الحديثَ المأثورَ عن النبيّ ﷺ : إن فتَحَ فاتحٌ اليَمنَ والسِّندَ في يوم واحدٍ فقد حَضرَ أجَلُه» . فحمّ مِن يومهِ ومات بعد أيّامٍ(١٦٢).

---

(١٦٢) ذكر محمد بن عبدالله بن مالك الخزاعي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من اسحاق بن عيسى بن علي ما يرويه عن أبيه في قصة السفاح ، فأخبره عن أبيه عيسى انه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة فوجده صائما ، فأمره أن يحادثه في يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده . قال : فحادثته حتى اخذه النوم فقمت عنه وقلت : اقيل في منزلي ثم أجيء بعد ذلك . فذهبت فنمت قليلا ثم قمت فأقبلت الى داره ، فاذا على بابه بشير يبشر بفتح السند وبيعتهم للخليفة وتسليم الأمور الى نوابه . قال : فحمدت الله الذي وفقني في الدخول عليه بهذه البشارة ، فدخلت الدار فاذا بشير آخر معه بشارة بفتح افريقية ، فحمدت الله فدخلت عليه فبشرته بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء ، فسقط المشط من يده ثم قال : « سبحان الله ، كل شيء بائد سواه، نعيت والله الى نفسي، حدثني ابراهيم الامام عن أبي هشام عن عبدالله بن محمد بن علي بن ابي طالب عن رسول الله (ص) انه قال : « يقدم علي في مدينتي هذه وافدان ، وافد السند والآخر وافد افريقية ، بسمعهم وطاعتهم وبيعتهم ، فلا يمضي بعد ذلك ثلاثة ايام حتى أموت » . قال : وقد اتاني الوافدان فأعظم الله اجرك يا عم في ابن أخيك . فقلت : كلا ، يا امير المؤمنين ان شاء الله . قال بلى ان شاء الله. لئن كانت الدنيا حبيبة الي فالآخرة أحب الي ، ولقاء ربي خير لي ، وصحة الرواية عن رسول الله بذلك أحب الي منها والله ما كذبت ولا كذبت الخ . .» نقل ذلك ابن كثير عن ابن عساكر وقال : وفيه ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جدا .

ورُوي عن النبي ﷺ أنــــه كـَتـَب إلى كسرى [١٦٣] وقيصر [١٦٤] كتابين [١٦٥] دعاهمـــا إلى الاسلام وبَدَأ بنفسه . فوضع قيصرُ كتابه على الوِسادة وأجابهُ بجواب حَسَن . وأمّا كسرى فإنه مزّق كتابَه وكتب إلى فيروزَ الدّيْلَمي [١٦٦] وهو باليَمَن يأمُره بالَمسير إلى النبي ﷺ وأخْذه

(١٦٣) لقب ملوك فارس . والمقصود هنا كسرى الثاني وهو ابرويز بن هرمز (٥٩٠ – ٦٢٨ م) .

(١٦٤) هو هرقل الأول (٦١٠ – ٦٤١ م) .

(١٦٥) انظر نص الكتابين في كتاب « مكاتيب الرسول » ج١ ص ٩٠ و ١٠٥ وفي كتب التاريخ والسيرة النبوية . حمـل الرسالة الأولى لكسرى عبدالله بن خرافة ، وحمل الثانية لقيصر دحية بن خليفة الكلبي .

(١٦٦) هو ابو الضحاك فيروز الديلمي . أمير ، صحابي يمـاني، فارسي الأصل ، من أبناء الذين بعثهم كسرى لقتـال الحبشة . توفي سنة ٥٣ هـ .

وفي الطبقات الكبرى والسيرة الحلبية وسيرة زيني دحلان وغيرها ان كسرى كتب الي باذان عامله على اليمن : ان ابعث من عندك رجلين جلدين الى هذا الرجل الذي بالحجاز ، فليأتياني بخبره ، فبعث باذان قهرمانه (وهو فيروز أو بابويه) مع رجل آخـر اسمه خرخسره . فقدما المدينة وأعلما رسول الله بما قدما له ، فقال لهما رسول الله (ص) أرجعا حتى تأتياني غدا ، فجاءاه في الغد ، فقال لهما : ان ربي قد قتل ربه ــ رب باذان ــ كسرى في هذه الليلة ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، أخبرا باذان ذلك عني وقولا له : ان ديني وسلطاني سيبلغ الى منتهى الخف والحافر ، انك أن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك . فخرجا وقدما على باذان وأخبراه الخبر، فقال : والله ما هذا كلام ملك ، واني لأراه نبيا . ولم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبر بقتل كسرى ، فأسلم وأسلم معه أبناء فارس الذين كانوا معه باليمن » .

وقتلِه ، فقال : « اللهمَّ مزِّقْ مُلْكَه » (١٦٧) فتمزَّق مُلكُه كما ترون .
وسار إليهِ فيروزُ واعلَم النبيَّ ﷺ بما قد أُمر به فيه ، فقال له النبي (ص) :
« إنَّ ربِّي أعلَمني انه قد قُتل ربُّكَ فأمسكْ عني حتى يَصحَّ عندكَ الخَبَرُ .
فأتاهم الخبرُ بذلك وأسلم فيروزُ لِما رأى وسمع ، ودعا مَن كان باليمن من أبناءِ الفُرْس إلى الاسلام فأسلموا. فلما خرج باليمن الكذَّاب العَنْسي (١٦٨) يدَّعي النبوةَ كتب إليه النبيُّ (ص) يأمرُه بقتلهِ ، فدخَلَ عليه فيروزُ وهو نائمٌ ولَوَى عنقَه ودقَّها فقتله . وقال عليه السلام : « إنَّ هذا الأمرَ لا يزال في قُريش » يعني الخلافة (١٦٩) .

(١٦٧) لما وصلت رسالة النبي (ص) الى كسرى دعا من يقرأها له ، فاذا فيها : من محمد رسول الله ، الى كسرى عظيم فارس ، فغضب لأن رسول الله (ص) بدأ بنفسه ، ومزق الرسالة قبل أن يعلم ما فيها ، فعاد الرسول الى النبي (ص) وأخبره الخبر ، فقال : مزق كسرى ملكه ، وقيل دعا عليهم أن يمزقوا كل ممزق، وقال: اللهم مزق ملكه. انظر الكامل ج٢ ص ٢١٣ والطبقات الكبرى ج١ ص ٢٦٠ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٦١ والسيرة الحلبية ج٣ ص ٢٧٧ .

(١٦٨) هو عيهلة بن كعب بن عوف العنسي : متنبىء مشعوذ ، أسلم لما اسلمت اليمن ، وهو من أهلها ، وارتد في أيام النبي (ص) فكان أول مرتد في الاسلام ، وادعى النبوة ، فاتبعته مذحج، وتغلب علي نجران وصنعاء . واتسع سلطانه حتى غلب على ما بين مفازة حضرموت الى الطائف الى البحرين والاحساء الى عدن . قتله فيروز الديلمي في خبر طويل أورده ابن الأثير (الكامل ج١ ص ٣٣٦ — ٣٤١) .

(١٦٩) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (ص) : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان » (صحيح مسلم ٣/٦) وفي رواية البخاري : « ما بقي منهم اثنان » . قال الشيخ ناصر الدين الألباني : والمراد به (الأمر) هنا الخلافة . يعني لا يزال الذي يليها قرشيا . والحديث خبر بمعنى الأمر ، فهو كقوله (ص) : « الأئمة من قريش » . وهو حديث صحيح ، بل قال الحافظ ابن حجر : انه متواتر ، فقول بعض الاحزاب الاسلامية : انه حديث ضعيف ، مما يدل على جهلهم بالسنَّة أو انحرافهم عنها » .

وقال ﷺ للعبّاس عمّه وقد أتاه بعبد الله رحمةُ الله عليهما صغيراً : « إنّ هذا سيكون مِن أفقه أمّتي وأعلمهم بالتأويل والتنزيل » ودعا له وتفل في فيه وقال : اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويلَ [170] . فكان كما قال ، وسمّي لذلك الحَبْر [171].

ومِن الدلائل على ما يوجب الله للنبيّ عليه السلام وللمؤمنين به ما جاءَ في الأحاديثِ المشهورةِ الشائعةِ من استسقاءِ عمر بن الخطّاب بالعبّاس بن عبد المُطّلِب رضي الله عنهما عامَ الرمادةِ [172] ، فإنه أخذ بيده وتقدم وقال : اللهمّ إنّا جئناك نستسقيكَ ونستشفعُ إليك بعَمّ نبيّك ، فما برِحوا حتى ارتفعتْ سحابةٌ ثم أرسلتْ مطراً جَوْداً [173]. وكان يقول لأصحابه : « والذي بعثني بالحق لإنْ كنتم أمسيتُم وُضعاءَ لتشرقُنّ حتى تصيروا نجوماً يهتدي بكم المهتدون » . ويقال أن فلاناً حدّث عن رسول الله (صلعم) وقال عنه كذا وكذا ، فقد ترون ذلك كما قال .

ورُوي أنّ عِكْرِمةَ بن أبي جهل [174] قتل في الحرب رَجلاً مِن الأنصارِ وعكرمةُ يومئذٍ مُشركٌ فتبسّم النبيّ (صلعم) ، فقال له رجلٌ من الأنصار : يا رسولَ الله تبسّمتَ ان قَتل رجلٌ من قومِكَ رجلاً منّا ؟ قال : « لا ، ولكن تبسمتُ لأنهما جميعاً في درجة واحدةٍ في الجنّة »

---

(170) انظر حديث رسول الله (ص) في ابن عباس في كتاب الاصابة لابن حجر .

(171) الحبر : العالم .

(172) سنة ١٨ هـ .

(173) للتوسع في ذلك ، راجع « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ج ٢ ص ٥٥٥ ، حوادث سنة ١٨ هـ .

(174) من صناديد قريش في الجاهلية والاسلام . أسلم بعد فتح مكة ، وحسن اسلامه ، فشهد الوقائع ، وولي الأعمال لأبي بكر رضي الله عنه . استشهد في اليرموك ، أو يوم مرج الصفر .

فأسلم عكرمةُ بعد ذلك واستشهد في وَقْعةِ أجْنادَين (١٧٥) بالرُّوم .

وقال عليه السلام لِعَدِيّ بن حاتم (١٧٦) : أَسْلِمْ يا عديّ تَسْلَم ، أظنُّ الذي يَمنعك يا عديّ من ذلك خَصاصة (١٧٧) تراها بِمَن حولي وإنكَ ترى الناسَ علينا إلْباً واحداً ، هَلْ رأيتَ الحيرةَ ؟ قال: قلتُ لا ، قال: يُوشِكُ الظَّعينةُ أن ترحلَ بلا جِوارٍ حتى تطوفَ بالبيت ، ولَتَفتَحنّ علينا كنوزُ كسرى بن هرمز ثلاث مرّاتٍ ». قال عديّ: فلقد رأيتُ جميعَ ما قال عليه السلام (١٧٨) . وقال أبو بكر رضي الله عنه حين ارتدّتِ

---

(١٧٥) حول اسلام عكرمة واستشهاده ، راجع « الاصابة » و « تهذيب الأسماء واللغات » ج١ ص ٣٣٨ ، و « الكامل في التاريخ » انظر فهرسته ، و « رغبة الآمل » ج٧ ص ٢٢٤ .

(١٧٦) سبقت ترجمته .

(١٧٧) في مسند أحمد ومعجم البغوي وصحيح البخاري : غضاضة .

(١٧٨) عن أبي عبيدة بن حذيفه قال : قال عدي بن حاتم : لما بعث النبي (ص) كرهته كراهية شديدة ، فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم ، فكرهت مكاني أشد من كراهته ، فقلت : لو أتيته ، فان كان كاذبا لم يخف علي ، وان كان صادقا اتبعته ، فأقبلت ، فلما قدمت المدينة استشرفني الناس فقالوا : عدي بن حاتم : فأتيته فقال لي : يا عدي أسلم تسلم » . قلت ان لي دينا ، قال : انا أعلم بدينك منك ، الست تراس قومك ؟ قلت : بلى . قال : الست تأكل المرباع ؟ قلت : بلى . قال : فان ذلك لا يحل لك في دينك ، ثم قال : أسلم تسلم . قد أظن انه يمنعك غضاضة تراها ممن حولي، وانك ترى الناس علينا البا واحدا . قال : هل اتيت الحيرة ؟ قلت : لم آتها وقد علمت مكانها . قال : يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت ، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز . فقلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ، وليفضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته . قال عدي : فرأيت اثنتين الظعينة وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى وأحلف بالله لتجيئن الثالثة » رواه احمد في مسنده والبغوي في معجمه ، وآخر الحديث عند البخاري من وجه آخر .

العرَبُ [179] ، ووجَّـه إليهم بالجيوش : إنَّ رسولَ الله (صلعم) قد وعدَ المسلمين بالنصْر والفتْح مِن الله ، وإن الله يُظهرُ دِينَــه على كلِّ دين ولن يخلفَ اللهُ وعْـدَه . فقد صدَّق الله ظنَّـه وحقَّق قولَ النبيّ (صلعم) وارتفع الشكُّ .

---

(179) انظر في اخبار الردة « الكامل في التاريخ » ج٢ ص ٣٤٢ وما بعدها، وغيره من كتب التاريخ .

الباب السادس

في امية النبي صلى الله عليه وسلم وان الكتاب الذي انزله الله عليه وانطقه به آية للنبوة

ومن آيات النبي (صلعم) هذا القرآن، وإنما صار آية لمعان لم أر أحداً من مؤلفي الكتب في هذا الفن فسرها بل أطلق القول والدعوى فيه. وما زلت وأنا نصراني (*) أقول ويقول عم لي كان من علماء القوم وبلغائهم ان البلاغات ليست من آيات النبوة لأنها مشتركة في الأمم كلها، حتى إذا اعتزلت التقليد والألف وفارقت لزاز العادة والتربية وتدبرت معاني القرآن علمت أن الأمر فيه كما قال أهله، وذلك اني لم أجد لأحد عربي ولا عجمي هندي ولا رومي كتاباً جمع من التوحيد والتهليل والثناء على الله عز وجل، والتصديق بالرسل والأنبياء، والحث على الصالحات الباقيات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب في الجنة والترهيد في النار، مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءنا بكتاب

* راجع ترجمة المؤلف في أول الكتاب .

هذه نسبتُه ونعته وله مِن القلوب هذا المحلُّ والجلالة والحلاوة ومعه هذا النصْرُ واليُمن والغلَبة ، وكان صاحبُه الذي نزل عليه أُمّيًّا لم يعرفْ كتابةً ولا بلاغةً قطّ ، فهو مِن آيات النبوة لا شكَّ فيه ولا مِرْية .

وأيضاً فإني رأيتُ جميعَ الكتبِ المخلدةلا تعدو أن تكون إمّا في آدابِ الدنيا وأخبارِ أهلِها وإمّا في الدِّين . فأمّا كُتُبُ الآدابِ والفلسفات والطبّ فإن غرضَها ومَغْزاها غير هذا الغرض ولن تُذكر مع كتب التنزيل وأما ما كان منها في الدين فأوّلُ مُسمّياتِها وموجوداتِها التوراةُ (١٨٠) التي

(١٨٠) وردت كلمة التوراة في القرآن في ١٨ موضعا منهـا عشرة مواضع وردت فيها منفردة ، وسبعة مواضع وردت فيها معطوفة بكلمة انجيل، ووردتا مرة واحدة عطفت عليهما كلمة القرآن ، قال تعالى : « وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن » . وتشير آيات أخرى الى القرآن باسم الكتاب ، قال تعالى : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل » . وتبشر التوراة بقـدوم النبي (ص) قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عـن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » . كما تشير بعض آيات القرآن الى ان اليهود حرفوا التوراة كما حرفها النصارى لانكار نبوة محمد عليه السلام ، من ذلك قوله تعالى : « مـن الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » والاشارة الى « الذين هادوا » يقصد بها اليهود ، وقوله تعالى « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه بعد ما عقلوه وهم يعلمون » والاشارة الى قوم موسى . وقوله تعالى « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه» والاشارة الى بني اسرائيل . وهذه الآيات الكريمة تشير الى أن اليهود قد حرفوا التوراة لانكار ظهور نبي أمي من أبناء اسماعيل . وتشير سورة الاعراف (الآية ١٥٦ — ١٥٧) الى التحريف في التوراة والانجيل . قال تعالى : « والذين هم

في أيدي أهــل الكتاب [181] . ونجدُ عامّتَها في أنساب بني إسرائيل ومسيرِها من مصر وحطّها وترحالِها وأسماءِ المنازل التي نزلوها ، وفيها مع ذلك سُنَنٌ وشرائع تبهرُ العقولَ ويعجزُ عنها حَوْلُ الرجالِ وطاقتُهم. فأما ما في القرآن مِن تلك الأخبار فإنما هي تذكيرٌ بأيّام الله وتمثيلٌ وتحذيرٌ

→

بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الــذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عــن المنكــر » .

والتوراة كلمة مستعربة من أصل كلمة « تورا » العبرية بمعنى قانون، ويقصد بالتوراة كتاب « العهد القديم » تمييزا له عن كتاب « العهــد الجديد » أو الانجيل ، ويؤلفان معا الكتاب المقدس ، كما يطلــق اسم التوراة بصفة أخص على الأسفار الخمسة الأولى من العهــد القديم (الذي يقسم الى ٢٤ سفرا عند اليهود أو الى ٣٩ سفرا عند النصارى) وتعرف الأسفار الخمسة الاولى باسم أسفار موسى ، وهــي مدونة أصلا باللغة العبرية ، بينما أسفار العهد الجديد مدونة أصلا باللغــة اليونانية . ومع أن اليهود ينسبون تدوين التوراة الى موسى الا ان التحقيق التاريخي يؤكد انها دونت في أزمنة متأخرة بأيد مختلفــة لاختلاف اسلوب تدوينها . وتشتمل التوراة على مجموعــة أخبــار وقصص وتشريعات تكررت فيها رواية الأحداث والأحكام مما يؤيد القول بأنها دونت في أزمنة متأخرة وبأيد مختلفة .

(١٨١) هم اليهود والنصارى تمييزا لهم عمن لا يدينون بدين سماوي ولا يؤمنون بكتاب إلهي كالوثنيين ، وهؤلاء يشير اليهم القــرآن الكريم باسم المشركين . وجاء هذا الاصطلاح في القرآن في ثلاثين موضعا ، قال تعالى : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا ممــا كنتم تخفون من الكتاب » وهو اشارة الى ان الكتب التي بين أيدي أهل الكتاب قد حرفت وطمس منها ما يبشر بنبوة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ، وهو ما أشرنا اليه أيضا فــي الحاشية السابقــة .

وتنذيرٌ . وأمـــا الانجيل (١٨٢) الذي في أيدي النصارى فإنّ جلّه خبرُ المسيح ومولده وتصرّفه ؛ وآدابٌ مع ذلك حسنةٌ ومواعظ كريمة وحِكَمٌ جسيمة وأمثال رائعة وليس فيها مِن السُّنَن والشرائع والأخبار إلاّ اليسير القليل .

وأما كتابُ الزبور (١٨٣) ففيه أخبارٌ وتسابيح ومزامير بارعةُ الحسْنِ فائقةُ الحلاوةِ وليس فيها شيءٌ من السُّنَنِ والشرائع. وأما كتاب أشعْيا (١٨٤) وارميْا (١٨٤) وغيرهما من الأنبيــاء فجُلُّها لَعنٌ لبني اسرائيل وبشارات بالخزْي المعدّ لهم وإزالةُ النِّعم عنهم وإنزال النِّقَم والسطوات بهم وهَنات سوى ذلك ، قد لسن وَطعَن عليهــا الزنادقةُ الخبَثةُ ، وقالوا انّ الحكيمَ الرحيمَ يتعالى عن أنْ يُوحي بمثلها ويأمر بما فيها مِن رشّ الدماءِ على المذابح وعلى ثياب الكهنة والأئمة وإحراق العظام وذِكْر الرُّفوثِ والفُروث وما أشبههُ وتتابع الغضبِ والسخطات والإسْتِنَان بالجـــلاءِ عن البُيوت إذا

---

(١٨٢) سبق التعريف بالانجيل .

(١٨٣) زبر الكتاب وزبَره : كتبه . والزبر : الكتابة ، والزجر عن الباطل ، والزبر : الكتاب ، والجمع زبور ، وكتبنا في الزبور ، أي في المزبور وهو المكتوب . ويشمل جميع الكتب المنزلة ، وغلب على مزامير داود عليه السلام وكلها حكم ومواعظ ، وكان اذا قرأها بصوته المؤثر ترنو له الوحوش وتسبح معه الطير والجبال . وزبر الأولين : كتبهم ، مثل التوراة والانجيل . والمقصود هنا مزامير داود . قال تعالى « ولقــد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا» وقال « إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعد ، وأوحينا الـى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيـوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا » وقال « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

(١٨٤) سبقت تراجم انبياء بني اسرائيل صفحة ٤٨ ــ ٤٩ .

تلمّعت جدرانُها بالبياض ، لأنّ ذلك بَرَص يعتري البيوتَ . وما أُمر به قومٌ منهم بأن يمشي بعضُهم إلى بعضٍ مُصلّتِين وأن يتجالدوا صابرين حتى يتفانوا ضرْباً وخبْطاً ، ففعلَ القومُ ذلك ولم يَعْصوا وأجابوا إلى التفاني والاستقتال ولم يمتنعوا ، ومَن سارعَ إلى مثلِها فهو مطيعٌ وليس بعاصٍ ووليٌّ وليس بعدوّ ، ولا يستحقُّ الأولياءُ وأهلُ الطاعةِ أن يُؤمَروا بالتفاني والتقتيل .

ثم أمرَهم موسى عليه السلام، أن يأتوا جبلَين متقاربَين ، ويصْعدَ أحدَ الجبلَين ستةُ أحياءٍ منهم ويصعد ستة أحياءٍ الجبلَ الآخرَ ، وأن يقرأ قومٌ منهم نواميسَ (١٨٥) التوراةِ التي لا يَحْملها الرجالُ ولا الجبالُ ناموساً ناموساً وسنّةً سنّةً ويقولون إنّ مَن خالف هذه النواميسَ وقصّر فيها وأضاعَ شيئاً منها فهو ملعونٌ وتجاوبَهُم القبائلُ التي على الجبلِ الآخرِ بالتأمين لأولئك اللاعنين بأعلى أصواتِهم فلم يدَع أحداً منهم إلاّ عمّه باللعنة . وحمَلَهم على أن يلعنوا أعقابَهم مِن بعدِهم مجتهدِين طائعين في ذلك كلّه غيرَ مخالفين ، فصاروا إلى البَوارِ مِن قبلِ أن يستقرَّ بِهم الدارُ ، وإلى اللعنةِ الشاملةِ من قبل أن يريحوا رائحةَ الغلَبةِ والسَّعةِ .

وفي مثل قولِ حزْقِيال النبي ، أنّ الله أمره أن يحلقَ رأسَه ولحيتَه بسيفٍ صارمٍ حادّ . ومثل قول هوشاع النبي ان اللهَ أمره أن يتزوّجَ بامرأة مشهورةٍ بالزناءِ فولدتْ له ابنَين وأمره أن يسمّي أحدَهما «لا أرْحم» والثاني «لَيْسوا حِزبي» ليعلمَ بنو إسرائيل اني لا أرحمُهم ولا اعتدُّ بهم أولياء وحِزباً . وقال هوشاع عن الله في اليهود : إنّ أمّهم زانية وأنهم

---

(١٨٥) الناموس صاحب السر المطلع على باطن أمرك . والناموس أيضا الكذاب والنمام . والمقصود هنا الشريعة .

وُلدوا لغير رِشْدَةٍ . وقولُ بعضِ الأنبيـــاءِ لليهود عن اللهِ ان أُمَّـكم أعجَبتْنهـــا ذكورُ أهْلِ مصر . وخطب أشعيـــا على بني اسرائيل بخطبةٍ ثم قال: انّ قائلَ ذلك هو الربُّ الذي نورُه بصهيون[186] وتنُّورُه ببيتِ المقْدِس .

فأمَّـا القرآن فلن يُوجدَ فيه حرْفٌ ممَّـا يُشبِـه ذلك ، بـل منسوجٌ بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسُّنن والشرائع والخبَر والأثـَر والوعْـــد والوعيد والرغْـبة والرهبـة والنبوات والبشارات بالأمور الجميلة التي تليق بجلال الله وحكمتـِه وطَوْله وبَسْط الأمل في الغفران والرأفـــة وقبول التوبة والمعاني التي ترتاحُ لها الأنفسُ وتستريح إليها الآمال فلا تقْـنط . بل يقول الله فيـه : إنّ اللهَ غفُورٌ رَحيمٌ[187] . وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا الله[188]. ويقـــول : « يَا عِبَادِيَ الَّذينَ أسْرَفوا عَلَى أنْفُسِهمْ لا تَقْنَطوا مِنْ رَحْمَةِ الله إنّ الله يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إنهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ[189]. ولذلك استحقّ أنْ يُقال ان هذا الكتابَ آية من آيات النبوّة إذ لم يكن له نظيرٌ مذ خلقَ الخلْقُ وخطّ في الرَّقّ . وإنه لَيشتملُ على فضائل أخرى باهرة ذات أنوار وأسرار وهي : انّ تلك الكتبَ ، بل هذه التي للحكماءِ خاصةً ، إنما ألـّفها قومٌ أدَباء علماء بعد تفكُّر وارتياض ، وبعد أن نشأوا في المدُن وسمعوا الأخبارَ وثافنوا[190] العلماءَ .

---

(١٨٦) تلة في بيت المقدس عليها المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة وهيكل سليمان .

(١٨٧) البقرة : ١٧٣ ، واللفظ في ٧١ آية .

(١٨٨) آل عمران : ١٣٥

(١٨٩) الزمر : ٥٣

(١٩٠) ثافنه : جالسه ، كأنه ألصق ثفنة ركبته بثفنة جليسه . وثفنه : لزمه ، ودفعه .

فأما النبيُّ (صلعم)، فلم يكن كذلك، بل أمّيٌّ أبْطَحيٌّ لم يسمعْ مِن مصريّ ولا روميّ ولا هنديّ ولا فارسيّ، ولا اختلفَ إلى مجالس الأدباء لطلَب أدَب وقراءَة كتاب، وجاء بكلام بَهرَ أهلَ اللغة وغمر أهلَ الفصاحة والسلاطة، وخضعتْ له رقابُ الأمّة، فإنه قال عن الله عز وجل: «قلْ فأتوا بعشْر سُوَر مِثْله مفترَيَات وادْعُوا مَنْ استَطَعْتُمْ مِنْ دُون الله إن كنْتُمْ صَادِقينَ»[191]. وقال: «قُلْ فأتُوا بسُورَة مِنْ مِثْله وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُون الله إنْ كنْتُمْ صَادِقينَ[192]». فما كان في القوم مَن تَزَمْزَمَ ونطق بل بَصْبَصوا وأذعنوا ودانوا. وقد يحتجُّ علماءُ أهل الذّمة[193] بأن النبيَّ عليه السلام كانأُمّيًّا وان الله لا يَبخلُ على أنبيائِه برسم الكتابة إذ كان أحسن ما اختصّهم به وأقلّ ما علّمهم من غيبهِ وآياتهِ، والجوابُ فيه ان الله تعالى خصّ كلاً منهم بما رأى جلّ وعزّ، فمنهم الخطيبُ البارعُ مثل داوود، ومِنهم التّمتام[194] والألثغ[195] مثل موسى، ومِنهم من أحيَا الميتَ دون غيره[196]، ومِنهم من فلَق

---

(١٩١) هود : ١٣

(١٩٢) البقرة : ٢٣

(١٩٣) أصطلاح يقصد به اليهود والنصارى. والذمّة لغة هي العهد والعقد والأمان. وفي الحديث «يسعى بذمتهم أدناهم». ويعرف أهل الذمة بأهل العهد وأهل الكتاب.

(١٩٤) الذي يتردد في التاء

(١٩٥) اللثغة النطق بالسين كالثاء أو بالراء كالغين أو كالياء. والألثغ من كان بلسانه لثغة. أنظر كلام الجاحظ على اللثغة والحروف التي تدخلها في «البيان والتبيين» (١ : ٣٤ و ٧١).

(١٩٦) النبي الذي أيده ربه بالمعجزات الباهرة من إحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص هو عيسى عليه السلام. وقد وردت الاشارة اليه في القرآن الكريم بلفظ المسيح ١١ مرّة، وبلفظ عيسى ٢٥ مرة، وبكنيته ابن مريم ٢٣ مرة.

البحرَ وفجَّر مِن الصخر ينابيعَ المياه (١٩٧) ولم يُعْط ذلك غيره . ومِنهم حكيمٌ كاتبٌ مثل سليمان (١٩٨) ، ومِنهم أُمّيٌّ مثل داوود ، فإنه قال في زبوره : « مِن أجل إني لم أعرف الكتابة » فلم يُزْر ذلك به كما انه لم يُزْر بالمسيح أن لا يكون ملاعبَ الأسنةِ أو من رُماةِ الحدَق أو لا يكون ماسحاً ولا مُهندِساً . وكما أنه لم يُزْر بموسى أن لا يكونَ لسِناً خطيباً أو ماشياً على الهواءِ وأن لا يكون أبرأَ الأكمهَ والأبرصَ ، وأن لم يُزْر به وبداوود ونُظَرائِهما عليهم السلام ، أن لا يكون اللهُ رفعهما إلى السماء كما

---

(١٩٧) النبي الذي فلق البحر وفجَّر من الصخر ينابيع المياه هو موسى بن عمران عليه السلام . قال تعالى : « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا أضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (البقرة : ٦٠) وقال: « وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، وظلّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (الاعراف : ١٦٠) وقال تعالى في قصة موسى مع فرعون : « فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون . قال كلا إنّ معي ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » (الشعراء : ٦١ – ٦٣) .

(١٩٨) خصّه الله بخصوصيات خارقة للعادة ، فقد علمه منطق الطير ، وسخّر له الريح ، كما سخر له الجن تقضي حاجاته ، وتصنع له العجائب . ويعتبر عصره عصر الخوارق والعجائب ، وفي القرآن الكريم قصص تشير الى ذلك ، مثل قصة بلقيس ملكة سبأ ، وقصة وادي النمل ، الخ . وقد لقب بالحكيم لرجاحة عقله .

رفع غيرَهما (١٩٩) . فليس لقائلٍ أن يقول بَخلَ على فلانٍ النبيّ بما جاد به لفلانٍ النبيّ بل قائلُ ذلك مُعاندٌ ماردٌ .

أما نرى أنه لم يُعَب شمعونُ الصفا ولا متّى ولوقا تلامذةُ المسيح عليه السلام بأن لم يكونوا بلغوا مَدَى فولوس في بلاغته وبيانه ، وكذلك النبيُّ ﷺ لم يشِنْه أنه أُمّيٌّ مثل داود ، بل جعل اللهُ ذلك آيةً باهرةً وحجّةً على مَن كفَر به من قَوْمه إذ كان قد صحّ عند الأمم وأهلِ الذمّةِ أنه لم يجيء بهذا القرآن بفضلِ بيان أو حكمةٍ أرضيّة . ولقد كان عليه السلام مُوجزاً في كلامهِ نزُوراً يذمُّ المِكثارَ المِهذارَ ويترسّل في القول، بلغَنا أن عائشةَ رضي الله عنها كانت تقول: انه لم يكن النبي (صلعم) يَسْرِدُ الكلامَ سرْدَكُم ، كان كلامُه نَزْراً وأنتم تَنثُرُونه نثراً . ولقد ذهب يوماً يتكلّم فضاقَ به فسكت ثم قال: « إن هذا البكاءَ أمرٌ يكون في الأنبياءِ ». والبكاءُ الإقلالُ ، مِن قولهِم بِئرٌ بَكِيَّةٌ أي قليلةُ الماءِ ، وشاةٌ بكيةٌ إذا كانت مُنقطعةَ اللبنِ .

وسَمِعَ عليه السلام واحداً يَتَشدّقُ ويُشقّق الكلامَ، فقال له اسكتْ ، ثم أقبلَ على مَن حضَر فقال : « قولوا بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان إنّ أحبّكُم إليّ وأقربَكم مني يومَ القيامةِ أحسنُكم عمَلاً ، وإنّ أبغضَكم إليّ وأبعدَكم مني يومَ القيامةِ أسوأكم عملاً ، وإني أبغضُ الثرْثارين والمُتَشدّقِينَ

(١٩٩) النبي الذي توفّاه الله ورفعه الى السماء هو عيسى ابن مريم . قال تعالى : « وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما » (النساء : ١٥٧/١٥٨) .

والمتفيهقين » فالأمّية التي عابه بها أهلُ الذمّةِ غير مُزْرِيةٍ به ولا عاتبة بل حجّةٌ وبرهانٌ مُنيرٌ . فلو جاءَ بمثل هذا الكتابِ الذي قد وصفتُهُ رجلٌ أديبٌ خطيبٌ لكان كذلك آيةً مِن الآيات ، فكيف إذا جاء به رجلٌ بَدَويٌ أُمّيٌ . فإنَّ ذلك يَشْهدُ له ان اللهَ أنْطقه وروحَ القدسِ سدّده له وأعانه عليه .

الباب السابع

في أن غلبة النبي صلى الله عليه وسلم آية من آيات النبوة

ومن آيات النبي عليه السلام هذه الغلبةُ التي احتجّ بها المسلمون كافّةً ، وقد كنتُ أقول فيها مثلَ الذي قال غيري مِن النصارى ، ان الغلبةَ أمرٌ مشترَكٌ في الأمم وما كان مشتركاً فليس بآيةٍ من آيات النبوّة ، حتى إذا أفَقْتُ من سكْرةِ التّيه ، وهَبَبْتُ مِن سِنةِ الحيرة ، وانجابتْ عني فتنةُ التقليد [٢٠٠] علمتُ أن ذلك ليس كما قالوا . وذلك انه ﷺ خرجَ وحيداً فريداً يتيماً عائلاً كما قال اللهُ عز وجل : « ألَمْ يجِدْكَ يَتِيماً فآوَى، وَوجَدَكَ ضَالاً فهَدَى ، وَوجَدَكَ عَائِلاً فأغْنَى » [٢٠١]. فدعا العرَبَ قاطبةً والأمم عامةً إلى الإيمان بالله عز وجل ، والناسُ يرمونه عن قوسٍ واحدةٍ ويزدرون به ويتشاوشُون له ، فما نَهْنَهه ذلك ولا فلّه ، بل باح بالدّين ولم ينكفِتْ ومضى قدماً لِما أمره الله ولم يلتفِتْ . فلما رآهم

---

(٢٠٠) أي بعد أن هداه الله الى الاسلام . قال تعالى : « ومن يهد الله فما له من مضل » (الزمر : ٣٧)

(٢٠١) الضحى : ٦ — ٨

يَنْبذون أمْرَه ويتهمونه ولا يدخلون في دِين الله ونعمته طَوْعاً أدخلَهم فيه كَرْهاً، حتى ظهرتِ الدعوةُ ودانتِ العربُ قاطبةً، وتتابعتْ فيهم الآياتُ والنبوّاتُ واحلَولى لهم الدّينُ وسطع اليقينُ، فبلَغ من حُبّهم له بعْد البغْضةِ وانقيادِهم بعد العداوة ما قد يروْن ويَسْمعون.

فمن ادّعى غلبةً كانت باسم اللهِ منذ خلَق اللهُ الدنيا، لها مِن الشرائطِ المَحاسنِ، والدعاءِ إلى خالق السماءِ والأرض، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والنهي عن الشُّركاءِ والأنداد والفَواحشِ والنجاسات، ثم ظهرت هذا الظهورَ والإستعلاءَ في أقطارِ الدنيا وآفاقها وبرّها وَبحْرِها، مِن لَدُن السُّوسِ الأقصى (٢٠٢) إلى فيافي الترْك والتبّت (٢٠٣) بالبَكّائين والبَهالِيل، والإشارة باسم إله إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب وسائرِ الأنبياءِ، وكان لدُعاته من الزهد في الدنيا والإطراح لأسبابها ورفْعِ الهمَمِ وحسْمِ النفوسِ عن كل لذّةٍ وشهوةٍ، والقنُوع بالقُوت المسك، والأمر بالتسوية في القَسم والعدْل في الحُكْم، حتى لو أنّ مُسلماً مؤمناً قتَل ذمّياً كافراً قُتل المسلمُ به قَوَداً وعدْلاً (٢٠٤)، عَلمْنا علْماً يقيناً أن تلك الغلبةَ

---

(٢٠٢) منطقة في المغرب الأقصى. راجع معجم البلدان لياقوت.

(٢٠٣) التبّت الآن دولة في آسيا الوسطى تحيط بها الجبال الشامخة منها حملايا. وهي دولة دينية رئيسها دالاي لاما وعاصمتها لاسا، المدينة المقدسة عندهم.

(٢٠٤) بالنسبة للكافر الحربي، فان المسلم اذا قتله، فانه لا يقتل به اجماعا، وأما بالنسبة للذمي والمعاهد، فقد اختلفت فيهما أنظار الفقهاء، فذهب الجمهور منهم الى أن المسلم لا يقتل بهما لصحة الأحاديث في ذلك، ولم يأت ما يخالفهما.

وقالت الأحناف وابن أبي ليلى: « ان المسلم اذا قتل الذمي أو المعاهد بغير حق، فانه يقتل بهما، لأن الله تعالى يقول: « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ».

وقال مالك والليث: « لا يقتل المسلم بالذمي، الا أن يقتله غيلة، وقتل الغيلة أن يضجعه فيذبحه، وبخاصة على ماله ».

للتوسع في هذا الموضوع راجع كتاب « فقه السنة » (٥٢٧/٢) « والفقه على المذاهب الأربعة » المجلد الخامس.

تقوم مقامَ آيات النبوّات لا محالة .

فأمّا مـــا عارضونا به مِن غلبات الأمم فإنهم إذا فارقوا الأهواءَ التي تُعمي وتُصمّ ، وميّزوا العللَ ، علموا أن غلبةَ الاسكندر وأرْدَشيرَ بن بابك (٢٠٥) وغيرهما لم تكن في الله ولا للدعاءِ إلى الله ولا إلى أنبيائــه ، بل لطلب الغلبة والعزّ والسُّمعة ، وهم مِن بين دَهريّ (٢٠٦) أو ثنَوي (٢٠٧) أو

---

(٢٠٥) أردشيـــر اسم أطلقه المسلمـــون على عـــدد من ملوك الفرس مـــن الساسانيين أو الأكاسرة . ويعرف أردشير في المصادر الفارسيـــة القديمة باسم « ارتخشتر » أو « أرتخشيرشا » . وأردشير بن بابك (أردشير الأول) هو مؤسس السلالة الساسانية (نحو ٢٢٦ — ٢٤١). كانت بينه وبين أخيه سابور حروب انتهت بموت الثاني . كما قتل أخوته خشية الثورة عليه ، ثم أخضع العرب النازلين على مصـــب دجلة وساحل الخليج ومدّ سلطانه الى خراسان شرقا وميديا غربا ، وارتبطت سيرته بكثير من القصص في المراجع العربية .

(٢٠٦) الدهريـــة مذهب اعتقادي اشتق اسمه من الدهر والقول بأزليتـــه وقدمه ، وان الحياة بما في ذلك أفعال البشر تجري نتيجة للقوانين الطبيعيـــة . وقد نشأت هذه الفرقة في العهد العباسي ، وتأثـــرت بالفلسفـــة اليونانية ، واعتبر اتباعها من الزنادقة لأنهم لا يسلمـــون بوجود الله أو بأنه تعالى خالق هذا الكون ومدبره ، ويعتقد الدهرية ان حياة الانسان مدارها اللذة والألم في حدود المنفعة المادية كغيره من انواع الحيوان .

(٢٠٧) الثنويـــة مذهب ديني فلسفي يقول بأن العالم مركب من أصليـــن قديمين أزليين ، هما النور والظلمة ، يختلفان في الجوهر والطبع والصفات والفعل ، فجوهر النور الصفاء والنقاء والجمال ، وجوهر الظلمة القبح واللؤم والكدر ، وفعل النـــور الخير والصلاح والنظام والاختيار . وفعـــل الظلمة الشر والفساد والفوضى ، ومن أجناس الظلمة الدخان والحريق والسموم .

والثنويـــة مذهب قديم شاع خاصة في بلاد فارس (ايران) قبـــل

←

وَثَنيّ . فهذه لا تُقاس بغلبة الاسلام وجلالته وإشراقه ، ولهذه الغلبة بيِّنة أخرى كافية شافية وهي أنها لن تخلوَ أنْ تكونَ من الله أو من الشيطان ، فإنْ أقرُّوا أنها من الله فالإسلامُ إذاً حقٌّ يجب عليهم قبوله والدخولُ فيه ، وإن زعموا أنها من الشيطان فالشيطانُ إذاً موافقٌ لله وأنبيائِه غيرُ مخالف ، ومُطيعٌ غيرُ عاص ، إذ كان يَنْصرُ مَن دعا إلى الله الفرد الدائم ، ويُظهر دينَ مَن أمَر بالصوم والصلاة ، ويَنْهى عن الفجور والكفْر والفحشاءِ والمنْكر ، ومَن جعل تكبيرَ الله وتمجيدَه شعارَه عند اللقاءِ ومقدّمتَه عند الزحاف وجُنّتَه عند المداعسة والجلاد ، وإنّ مَن ظنّ بالشيطان أن يُعينَ على إظهار مثل هذا الدين وتأييده فقد أحسنَ فيه الظنّ وقالَ فيه الجميلَ وكذّب ما قال الله وأنبياءَه فيه . كيف يُعينُ الشيطانُ مَن دعا إلى مثل هذا الدين ، وفيهِ انجثاثُ أصْله ، وانبتاتُ أسبابهِ ، وإبادةُ جميع عَبَدَتهِ ودُعاتهِ .

وقد ظنّ قومٌ من الفسَقة بالمسيح عليهِ السلام مثل ذلك ، وقال فيه

المسيحية وبعدها وانتسبت اليه فرق تحمل أسماء أصحابها أقدمها الزرادشتية نسبة الى زرادشت وكان يمثل النور والظلمة بـ « يزدان واهرمن » ، ومنها الديصانية نسبة الى ديصان والمانوية نسبة الى ماني ، ثم المزدكية نسبة الى مزدك الذي قتل ابان حكم أنو شروان ، ومن الثنوية الطائفة « المرقونية » التي حاولت أن تمزج بينها وبين المسيحية .

وتقول الثنوية بأن هذا العالم نشأ عن امتزاج هذين الأصلين الأزليين ولكن الطوائف الثنوية اختلفت في تقرير طريقة هذا الامتزاج ، فمنهم من قال بأن النور وهو الذي يمثل عنصر الخير قصد اصلاح الظلام الذي يمثل عنصر الشر ، ومنهم من قال بأن امتزاج الخير بالشر حدث مصادفة ، ولم تتأثر الفرق الاسلامية العديدة بمذهب الثنوية الا قلة يسيرة اتهمت بالزندقة ، ذلك أن الاسلام يقوم على أصل أصيل وهو الوحدانية أو التوحيد وهو ما يتنافى مع القول بالثنوية . .

رَبَّانيو اليهود أن هذا انما يخرج الشيطانَ برئيس الشياطين ، فقال لهم المسيحُ : ان كلّ مملكة تفتن على نفسها فانها تَهلِكُ ولا تقومُ ، وكل مدينة يَقَع فيها التشتتُ والخلافُ فإنها لا تَدومْ ولا تثبُتُ ، قال : فإن كان الشيطانُ هو الذي يُخرج الشيطانَ فكيف يدومُ مُلْكُهُ وعزُّه ؟ فبهت اليهودُ عند ذلك . فهذه حجّتُنا على من قال في النبي ﷺ ما قالت اليهودُ في المسيح عليه السلام ، فإنّ ممّا ادى النبيُّ عليه السلام عن الله عز وجل في الشيطان قوله: « أَلا إنّ حِزْبَ الشّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرونَ »[٢٠٨] وقولُه: « إنّ الشّيْطَانَ لَكُمْ عَدوٌ فَاتخِذُوهُ عَدوّاً إنّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ليَكُونُوا منْ أَصْحَابِ السّعيرِ »[٢٠٩] . وقولُه : « فاخْرُجْ مِنْهَا فإنّكَ رَجيمٌ . وَإنّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إلَى يَوْمِ الدّينِ »[٢١٠] وقولهُ : لَأَملأَنّ جَهَنّمَ مِنكَ وَممّنْ تَبعَكَ مِنْهُمْ أَجْمعينَ »[٢١١] . وقولهُ : « يا أيُّهَا الّذين آمنُوا لا تتّبعُوا خُطُوَاتِ الشّيْطَانِ »[٢١٢] . وقولهُ «قُلْ أَعوذُ بِربِّ النّاسِ .مَلِكِ النّاسِ .إلهِ النّاسِ. مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخنّاسِ »[٢١٣] ولقد أمر النبيُّ عليه السلام بالاستعاذة منه في كل صلاةٍ ووقتٍ في قولِه : أَعُوذُ بِالسّميعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشّيْطَانِ الرّجيمِ[٢١٤] .

فإن كان الشيطانُ ينصر مَن يلعنه ويُنذر الناسَ شرّه ، لم نأمَنْ أن يكونَ جميعُ ما ظهر من الأديان باسم الله الفرد الواحدِ هو موافق للشيطان ومن عندِه . وقد أجمعت الامم كلُّها على ان الشيطانَ انما يأمرك بالشركِ

---

(٢٠٨) المجادلة : ١٩ (٢٠٩) فاطر : ٦ . (٢١٠) سورة ص : ٧٧ – ٧٨ .
(٢١١) سورة ص : ٨٥
(٢١٢) النور : ٢١ (٢١٣) الناس : ١ – ٤ .
(٢١٤) أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

بالله وعبادةِ الأوثان والنّيران ، ويـُزيّن الزناءَ والفجورَ والغدرَ ،وفيه محبّتُه ووسوستُه ، وأنه عدوٌّ لله وعدوٌّ لانبيائه الذين يأمرون بخلاف ذلك كلّه. فالله إذاً بريٌّ من حزب الشيطان والشيطانُ بَريٌّ من حزب الله وأوليائه ، وهذه الغلبةُ من الله لا من غيره .

الباب الثامن

في ان الداعين الى دينه والشاهدين بحقيقة امره كانوا خيار الناس وابرارهم

وقد ظنّ قومٌ بحَوارييّ النبي ﷺ الزورَ والزيغَ وقالوا فيهم فـــأثموا وحـــادوا عن سبيلهم فضلّوا . وأنا ذاكرٌ من فضائِلهم وزهْدِهم وتورّعِهم ما يدعو إلى حسْن الظنْ بهم ويُكفُّ عن تنقُّصهم .

في زهْدِ ابي بكر رضوانُ الله عليه

فأوّلُهم ابو بكر (٢١٥) رضي الله عنه، بلَغ من زهْدِه في الدنيا واستهانته بهـــا وتنزّهه عنها أنه دُعي إلى الخلافة وهي أرفعُ أُمور الدنيا قدْراً وأعظمُها شأنـــاً وأجمعُها لكل عزّ ورفعةٍ وقهْرٍ ولذّة عاجلةٍ وآجلةٍ

(٢١٥) أنظر في سيرة أبي بكر الصديق « أشهر مشاهير الاسلام » و« عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق » و «أبو بكر الصديق» لمحمد حسين هيكل ، ومثله لعلي الطنطاوي ، ومختلف كتب التاريخ .

وأجلبها لكل أمنية ، فامتنع منها وتأباها حتى أكرهوه عليها فطاف على الناس بعد ايام وهو يقول بأعلى صوته : هل من مُقيل هل من مُقيل ؟ فلما لم يجبه احد خطب الناس وقال : إن بيعتي هذه كانت فلتة وانما قبلتها أني خشيت الفتنة ، والله ما حرصت عليها يوماً ولا ليلة ولا سألتها الله سراً ولا علانية وما لي فيها راحة ولا لي بها طاقة » فهل سمع السامعون برجل أنبل من هذا نبلاً وأبلس ورعاً وأرفع همة إلى الأمور السماوية ؟

وقد بلغ من عفته وتوقيه أنه قدر لنفسه في كل شهر من الرزق ستين درهماً من مال المسلمين. ويقال انه سأل أن يؤخذ منه ماله ويدخل في بيت مال المسلمين وينفق من رزقه كما ينفق غيره فأبى المسلمون ذلك ، فقال لهم هذه خلافتكم رد عليكم ، لا والله لا أليها إلا على هذا » فأجابوه إلى ذلك. وبلغنا أنه رضوان الله عليه رئي بعد أن استخلف بأيام وهو يرفع قميصه لمن زاد . وقيل له في مرضه ندعو لك الطبيب ؟ فقال : « قد رآني الطبيب » قالوا : فما قال لك ؟ قال : « إنه يفعل ما يشاء » يعني الله ، فلما اشتدت علته قال : أين طبيبكم هذا ليردها إن كان صادقاً ؟ والذي أكرم وجه أبي القاسم ما في الأرض نفس تخرج أحب إلي من نفسي ، ولا نفس هذا الذباب الطائر ، وتعلمون مم ذلك » . قالوا : لا . قال : لأني خشيت والله أن يجيء أمر يحول بيني وبين الإسلام » ويريد به هفوة أو خطية .

وعهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته فقال : إن حفظت وصيتي يا عمر فإنه لا غائب خير لك أن تلقاه من الموت وأنت لاقيه لا محالة ، وإن ضيعت عهدي لا غائب شر لك أن تلقاه ولن تعجزه ». ولما حضرته الوفاة أوصى إلى عمر رضي الله عنهما فقال : إني لم أصب من مال المسلمين شيئاً إلا هذا البكر كنت أحمل عليه الماء فأشرب ويشربون منه ، وهذه الجارية كانت تخدمني وتخدمكم ، وهذه القطيفة ونبذها

برجلِهِ ، ثم قال : « وقد رددتُ ذلك كلَّه وأنا حيٌّ سويٌّ » وبلغ من خشيَتِه ومن عدلِه أنه اختصم إليه رجلان فكان أحدُهما يَدْخل في حجَّة الآخَر ، فنهاه أبو بكر مراراً فلم ينْتهِ ، فرفع الدرَّةَ . واتَّقاها الرجلُ بيدِه فأصاب اليدَ وانكسرتْ ومضى الرجلُ كذلك ، فاغتمَّ أبو بكر رضي اللهُ عنه غمّاً شديداً وقال لِعُمر : « لا وَلِيتُ هذا الأمرَ أبداً وما أوقعني فيه غيرُك » فقال عمر : واللهِ ان هذا الأمرَ ألزمُ لكَ من أذُنِك ، إي والله يُضرَب بالخشب وبالسيف ». ثم قام ومعه عُمَر حتى صار إلى الرجل ودفع أبو بكر الدرَّةَ إليه وبرك بين يديه وقال له استَقِدْ فلان ، يَكُنْ ذلك عاجلاً أحبُّ إليَّ من أن يكونَ آجلاً » فأبَى الرجل وقال : لقد كنتُ على أن أروح إليك وأسألك أن تستغفِر لي لأني أغضبْتك » . فقال عمر للرجل : « لَتفْعَلَنّ ولَتجعلنّه في حِلٍّ » قال الرجل : « فأنت في حلٍّ يا خليفةَ رسول الله غفَر الله لك » . فقام أبو بكر وهو يقول: « غفَر الله لكَ كما غفرتَ لي ، وعفى عنك كما عفوتَ عني ».

وخطَب رضي الله عنه فقال : « إني وليتُكم ولستُ بخَيْرِكم فإن استقَمتُ فأعينُوني وإن ضعفتُ فقوُّوني ، الضعيف عندكم هو القويُّ عندي حتى آخذَ له بالحقّ ، والقويُّ عندكم هو الضعيف عندي حتى آخذَ منه الحقَّ ، الصدْقُ أمانةٌ والكذب خيانةٌ ، ما أطعت الله أطيعوني فإذا عصيْتُه فلا طاعةَ لي عليكم ». فمن كان هذا زهده في الدنيا وقد ملَكها ، وهذا قولهُ في الخلافة وقد أكره عليها لِمَ يُظَنّ به قبولُ الباطل والقولُ به .

في زهد عمر بن الخطاب (٢١٦) وفضائله رحمة الله عليه ورضوانه

إنه لا شيءَ من أمر الدنيا أجلّ من الخلافة ولا اقلّ من القُوت والبلْغة ،

(٢١٦) للتوسع في سيرة عمر بن الخطاب راجع « أشهر مشاهير الاسلام » و « عمر بن الخطاب » لابن الجوزي ، ومثله لعلي الطنطاوي ، و« الفاروق عمر » لمحمد حسين هيكل ، و« عبقرية عمر » للعقاد ، و« الكامل » لابن الأثير ، ومختلف كتب التاريخ .

فمن أتته الخلافة صَفْواً عَفْواً فعفَّ عنها ، ورضي بالقُوت منها ، وقنع بالعري والبُؤس ، وافترش الحَصى وتوسَّد الذراع وحسم نفسه عن كل شهوةٍ ولذَّة ، وأتى بخزائن كسرى المصُونة منذ آلاف السنين فحقَّرها وقذَّرها ولم يمدَّ يده إلى درهمٍ ولا دينارٍ ولا دُرَّةٍ ولا آنيةٍ ولا جوهرةٍ ولا حُلةٍ ولا حِليةٍ ولا وصيفٍ ولا وصيفة منها ، فما في الأرض أزهدُ منه ولا أعفُّ ولا اكفُّ . وكان إذا وجَّه جيشاً قال : « يا أيها الناس ان عليَّ لكم ما ضمنتُ يوم وليتُكم ، لا آخذ من مالكم درهماً إلاَّ بحقهِ ، وإذا صار إليَّ لم أخرجه إلاَّ في وجههِ ، ولا أجمِّركم في البُعوث ، ولا أكلِّفكم فوق طاقتكم ، وأكون ابا العيال حتى تنصرفوا » . فكان يختلف إلى منازل المغيبات فيسلم عليهنَّ ويشتري حوائجهنَّ بنفسهِ وهو أمير المؤمنين ويأتيهن بكتب ازواجهنَّ وينفذ إليهم كتبهنَّ . ويقال انه رأى امرأةً مغيبةً قد حملت جرَّةً فأخذ عمر رضي الله عنه الجرَّة وحملها على رأسهِ حتى أتى بها منزلَها . وأنه مرَّ بشيخ نصرانيّ وهو يسأل ويقول : « اللهمَّ احكم بيني وبين المسلمين جبوني شابّاً وأسلموني كبيراً » فقال عمر : هاك عمر ، ومضى مبادراً حتى ملأ غرارةً من دقيقٍ ودعا بحمَّال ليحملَها ثم قال للحمَّال : لا أنا أولى بحملها » فحملها على رأسهِ ، وأتى بها الشيخَ مع دراهم دفعها إليه وأجرى له في كل شهر قوتهُ .

وَبُعِثَ إليه بسلَّة من حَلْواء فقال : هل أهدى لجميع المسلمين مثلها؟ قالوا : لا ، قال : « فلا حاجةَ بي إلى مرفق أو مطْعم لايعمُّ جميع المسلمين » وأمر برفعها من بين يديه . وقيل له في مرضتهِ : نأتيك بالطبيب ؟ قال : لو كان شفائي في مسح أذني ما مسحتها ، نعم المَذْهوب إليه ربِّي » ونظر إليه أهل الشام وقد نزل عن بعيره وهو يقوده وانتهى إلى نهرٍ فجلس وخلع خفَّهُ بيده وخاض النهر فقالوا : « ما رأيْنا ملكاً في رهبانيَّة غير هذا » . ويقال ان عَليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه كان في حائط له يعمل ، فسمع

صوتاً عاليـــاً ، فقال له الحسن بن علي عليهما السلام : « يا أبتي اصعَدْ تَر عجباً » فإذا هو بعمر يعْدُو خلْف بعير قد نَدّ من مـــال الصّدَقة وهو يتصبّب عرقاً ، قال علي رضي الله عنه : « هذا الأحوذيُّ بن حَنْتَمَة الذي لانَ في غير ضعف واشتدّ في غير عُنْف ».

ولما أتي بالهرمزان (٢١٧) ملك الأهواز(٢١٨) وعليه هيئَتهُ ولباسهُ والناس يتعجّبون منه قال لهم : أين أمير المؤمنين ؟ قالوا : « هو ذاك النائم » قال:

---

(٢١٧) للتوســع في سيرة الهرمزان وقصته مع عمر والمسلمين ، راجـع « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ج ٢ ص ٥٤٢ وما بعدها ، وغيره من كتب التاريخ .

(٢١٨) الأحواز (وهو الاسم الصحيح) اقليم عربي يقع غــربي ايران على شاطىء الخليج العربي ، تبلغ مساحته ١٥٩،٦٠٠ ألف كيلومتر مربع، وعدد سكانه ثلاثة ملايين ونصف المليون عربي حسب احصاء ســنة ١٩٦٢ ، وقرابة مائة ألف ايراني ، أغلبهــم جاء الاقليم بعد استيلاء ايران عليه أيام رضا شاه بهلوي ليكونوا شوكة في جنــب العرب ، وليسيطروا على اقتصاديات الاقليم ، وليكونوا عونا للحكومة تحصي تحركات العرب . من أشهر مدنه (١) « الاحواز » وتقع الى الشرق من المحمرة حوالي ١٢٠ كم، وهي مركز الاقليم ، يبلغ عدد سكانهــا ٢٠٠ ألــف نسمة ، ونسبة العرب فيهــا حوالي ٧٠٪ من مجمــوع سكانها . أطلق العرب القدماء عليها اسم « سوق الاحواز » لتميزها عن اسم الاقليم «الاحواز» (٢) عبادان ، وتقع جنوب المحمرة بـ ١٨كم، وهي من مدن الاقليم القديمة . فيها أشهر مصفاة للنفط في الشرق، وهي ميناء لتصدير النفط . ونسبة العرب فيها أقل من ٤٠٪ مــن مجموع سكانها ، وذلك لوجود الموظفين والعمال الايرانيين المشتغلين في شركة النفط .

للتوسع في تاريخ الاحواز أنظر كتاب « الاحواز ــ عربستان » للسيد علي نعمة الحلو ، في ثلاثة أجزاء ، وهو أفضل مرجع عن هذا الجزء من الوطن العربي الذي تحتله ايران الآن .

فأين حجبتَهُ ؟ قالوا : ليس له حجبةٌ . قال : فأين شُرَطُه ؟ قالوا: « هو شرطيٌّ نفسِهِ » قال : فأين مَجلسُ مُلكِه ووِسادُه ؟ قالوا : « مَجْلِسُه الأرضُ والترابُ وفرْشَتَهُ الحَصَى ووِسادُه يدُه » قال لهم : إنَّما قوينتم علينا بهذا ، هانتْ عليكم الدنيا والحياةُ ورَغبْنا فيهما » . ولما أُتي بخزائن كسرى وجواهِرِه صُبَّ ذلك في المَسْجد صبّاً ، فأظهر اغتماماً ، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين إنه يومُ سرورٍ ، فقال : إنه لم يُفتحْ مثلُ هذا الفتْحِ على أحدٍ إلّا صار بأسُهم بينهم » وجلس فكان يقسم المالَ بالكفّ وابنهُ جالسٌ ناحيةً كأنه شاةٌ كَسيرٌ ، فلما رآه لا يُعطيه شيئاً قال : « يا أبَتي كأنَّك لا تري لي في هذا المال حقاً » قال : « بلى يا بُنيَّ ، ولكني أخاف أن يتسع كفي لك » فقال بعض من حضر فإني أدفع إليه ما حفنت لي واحفن لي غيره ، ففعل ذلك . وتناولت بُنَيَّةٌ له درهماً من المال فصاح بها فلم تلقه ، فقام إليها عمر رضي الله عنه ، فألقته الصبية في فيها ، فلم يزل يعصر حلقها حتى رمت به . وأهدى له رجلٌ حلَّتين فباعها واشترى بثمنهما خمسة رؤوسٍ وأعتقهم وقال : إن رجلاً آثر قِشرين يلبسهما على عتْق هؤلاء لغبينُ الرأي .

زهد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه

يقال إنه لما استُخلِف علي بن أبي طالب (٢١٩) كرَّم الله وجهه رُؤي بعد أيام وهو يرفع سيفه لمن زاد وهو يقول :« لو كان لنا عشاء ليلةٍما بعناه»

---

(٢١٩) للتوسع في سيرة علي بن أبي طالب راجع كتاب « الامام علي » لعبد الفتاح عبد المقصود ، و« ترجمة علي بن أبي طالب » لأحمد زكي صفوت ، و« أعيان الشيعة » لمحسن الامين ج ٣ ، و« عبقرية الامام » للعقاد ، و« الرياض النضرة » للمحب الطبري ، ومقدمة شرح نهج البلاغة ، ومختلف كتب التاريخ .

وكان من أحوج الناس إليه فاضطرته الحاجة إلى بيعه وهو يستغلُّ من ضيعة له في كل سنةٍ مالاً عظيماً وكان يخلي بيتَ المال في كل يوم ويرشهُ وينام فيه وهو يقول: «ياصفراءُ غُرّي غَيري خَلا لكِ الجوُّ فابيضّي واصفَرّي». ويقال أنه كانت له قَطيفةٌ مُتَجرّدةٌ باليةٌ فألقتْ عليه وعلى عياله الجارية قطيفةً من قطَفِ الصدقةِ فأنْكر خَمْلَها وقال: ما هذه؟ قالت: قطيفةٌ من مال الصدقة، فألقاها عن نفسهِ وقال: «لقد أصردْتمونا بقيْةَ لَيْلتِنا». وناداه رجلٌ وهو في بيتهِ فخرج إليه مُسرعاً وهو يقول: والبُكاه.

زهد عمر بن عبدالعزيز [٢٢٠] وعبدِالله بن عمر بنالخطاب [٢٢١] وعدّةٍ من خيار المسلمين رضي الله عنهم اجمعين.

فان قال قائلٌ: إنّ هؤلاءِ قد كانوا مُعتادِين للبؤس وأنه لم يسُغْ لهم

---

(٢٢٠) الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم. وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام. ولي الخلافة سنة ٩٩هـ وتوفي سنة ١٠١هـ، ومدة خلافته سنتان ونصف. للتوسع في سيرته راجع «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي، و«عمر بن عبد العزيز» لأحمد زكي صفوت، و«سيرة عمر بن عبد العزيز» لعبدالله ابن الحكم، و«الخليفة الزاهد» لعبد العزيز سيد الأهل، و«حلية الأولياء» ج ٥ ص ٢٥٣ وما بعدها وفيه طائفة كبيرة من أخباره، ومختلف كتب التاريخ.

(٢٢١) صحابي، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. ولد سنة ١٠ ق.هـ، ونشأ في الاسلام، وهاجر الى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة. أفتى الناس في الاسلام ستين سنة، وكان جريئا جهيرا، غزا أفريقية مرتين، الأولى مع ابن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حديج. كفّ بصره في آخر حياته وتوفي بمكة سنة ٧٣هـ، وهو آخر من توفي بها من الصحابة. أنظر في ترجمته «نكت الهميان» ص ١٨٣ و«الطبقات الكبرى» لابن سعد ج٤ و«حلية الأولياء» ج١ ص ٢٩٢ و«الاصابة» الترجمة ٤٨٢٥ و«صفة الصفوة» ٢٢٨/١ وتهذيب الأسماء» ٢٧٨/١ ومختلف كتب التاريخ.

غير ما فعلوا ، فقد يكون الرجلُ معتاداً للبؤس فإذا صار إلى السَّعَةِ اتّسع وتخرّق في اللذاتِ واستدرك منها ما فات في خَوالي الأزمنةِ . فهذا معاوية [٢٢٢] وابنهُ يزيد [٢٢٣] ومن بعده من خلفاء بني أميّة قد تمتّعوا ونالوا لذّاتهم من كل مأكولٍ ومشروبٍ وملبوس ومشموم ومحبوبٍ ومعشوق ، فما انتطح فيه عنزان ولا امتنع عليهم اثنان ، ما خلا الوليد بن يزيد بن عبدالملك[٢٢٤]،

---

(٢٢٢) معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية في الشام . ولد سنة ٢٠ ق.هـ . وولي الخلافة سنة ٤١هـ ، ومات سنة ٦٠هـ . للتوسع في سيرته راجع كتاب « الاسلام والحضارة العربية » ١٤٦/٢ و«تاريخ اليعقوبي» ٢\١٩٢ و«الكامل» لابن الأثير ج٤ أنظر فهرسته، ومختلف كتب التاريخ ، و« منهاج السنة » ٢٠١/٢ وما بعدها ، و« معاوية بن أبي سفيان في الميزان » للعقاد ، و« المحبر » أنظر فهرسته ، وهو فيه ص ٤٧٣ «من المؤلفة قلوبهم» و«الاعلام» للزركلي ١٧٢/٨ وما فيه من مراجع .

(٢٢٣) ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام ، ولد بالماطرون سنة ٢٥هـ ، وولي الخلافة سنة ٦٠هـ ، وتوفي سنة ٦٤هـ . في أيامه كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن علي رضي الله عنهما سنة ٦١هـ . أنظر في سيرته « منهاج السنّة » ٢٣٧/٢ وما بعدها ، و« رغبة الآمل » ٨٣/٤ ، وتواريخ الطبري وابن الأثير والخميس واليعقوبي ، و« الاعلام » ٢٤٤/٩ وما فيه من مراجع و« يزيد بن معاوية » لعمر أبو النصر . وفي تاريخ المانوزي ـ الجزء السادس من المعسول ـ ان ليزيد هذا سلالة باقية الى الآن في جهة تازونت بسوس المغرب الأقصى ، يعرفون ببني يزيد ، ويقدر عددهم بمئتي أسرة ، انتقل أسلافهم من الأندلس لما اضمحل فيها ملك بني عمهم بني مروان في القرن الرابع الهجري ، وفيهم بقية من العلماء ، ولهم مكتبة من أعظم الخزائن العلمية في السوس .

(٢٢٤) من ملوك الدولة المروانية بالشام . ولد سنة ٨٨ ، وولي الخلافة سنة ١٢٥ فمكث سنة وثلاثة أشهر، خلع بعدها وقتل (سنة ١٢٦هـ). للتوسع في ترجمته أنظر « تاريخ الاسلام » للذهبي ١٧٣/٥ وما ←

فـــإنه كشف القناع وخلع العذار وأهمل الامر وبُلي بالإيتسار (٢٢٥) والقدر الجاري . وهذا عمر بن عبدالعزيز ، رحمة الله عليه ، وقد تقدّمهُ عدّةٌ مما ذكرْنا من أصحاب الملاهي وإخوان الدنيا ، فلم يلتفتْ إلى شيءٍ من ذلك ، فلقد بلغ من نسكه واستهانته بالدنيا بعد أن كان أنعم أهل دهره بدنـــاً ، وأطيبهم ريحاً، وأحسنهم زينةً ، وأشدّهم في كل شيءٍ نيقةً، أنه صعد المنبر بعد ان استُخلف فقال : « والله ما تمنّيت هذا الأمر قطُّ ، ولا سألت الله فيه في سرٍّ ولا علانيةً فمن كان كارهاً لنا فالآن » . وأنّ ممّا حقق به قوله هذا أنهُ تهدّمت درجة في داره فرمَّها بعض أهله ، فقال عمرُ رضي اللهعنهُ: سبحان الله ، كأنّ الذي صَنَعَ نـَفْسٌ على أنْ أخرج من الدنيا ولمّا أضعُ لبنةً على لبنةً » . ثم أمر بهدمها .

وأنه أتي في يوم بارد بماءٍ مسخّن فقال للجارية : من أين لكم هذا؟فقالت: سَخّنّاهُ حيث يُطبخُ طعامُ المسلمين » فقال : « لولا انـّكِ أتيتِنْها بجهالة لم تخْدميني بعدَها ، أُردُدِي عليهم ثمَـن الحطَـب » . واشترى له غلامهُ ثوبـاً بعشرةِ دراهم فقال : « هذا لـيّنٌ جداً أريدُ أدونَ من هذا »، فقال الغلامُ : لقد اشتريتُ له قبلَ الخلافةِ ثوبَ وَشْيٍ بسبعمائة دينار ، فقال: أريد أرفعَ من هذا . وأنه قيل له يوماً أن بني أميّةَ قد اشتدّ عليهم ردُّك المظالم فقال: بوُدّي أن اللهَ قد ردّ لي كلّ مَظْلمةٍ على أني كلما رددتُ مظلمةً قطع من جَسَدي أنْمُلة فيكون آخرُ مظلمةٍ أردُّها مع خروج نفسي » . وكان يقول ما كَذبتُ منذ عَقَلْتُ ، أن الكذب يشين اهْله . وكَتب إليه عـــاملُ

بعدها ، و« تاريخ الخميس » ٢/٣٢٠ وأمالي المرتضى (تحقيق أبي الفضل) ١٢٨/١ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي ٣\٧١ و« العبـر » لابـن خلدون ٣ أنظر فهرستــه و« الكامل » لابن الأثيـر ٥/٢٦٤ و« الاعلام » ٩\١٤٥ وما فيه من مراجع .

(٢٢٥) كذا بالأصل .

حمص (٢٢٦) يسأله أن يزيدَ في ثمَن قراطيسهِ ودهن مصباحهِ ويستأذنهُ في مَرَمّة سُور المدينة ، فكتب إليه : ارقّ القلَمَ وأوجز الكلامَ وأجمَع حاجتَين في حاجة ، وأما دهنُ المصباح فإنّ عَهدي بك وأنت تخرج في الليلة الظلماء إلى المسجد لا مصباح معك ، وأمـا سورُ المدينة فَحصّن مدينتَك بالعدل ونقّ طـُرقَـها من الجور .

وكتب إليه والي العراق بأن قد اجتمعت عنده اموالٌ عظيمة ، فـأمره أن يُوسع بها على المسلمين وذَراريهم في أرزاقهم ، فكتب إليه أنه قد فعَل وحصلت أموالٌ ، فأمره أن يُزوّج أبكار الرجال من أبكار النساء ، فكتب إليه أنه قد فعَل وحصل مالٌ ، فكتب إليه أن يقوي أهل الذمّة على العمارة ويجعله سلفاً عليهم فلا حاجةَ لعمر وآل عمر في شيءٍ من ذلك .

وبلغَنا أن عبدالله بن عمر ابن الخطاب ، رحمةُ الله عليهما ، اشتهى في مرضهِ عنباً فوجدوا عنقُوداً واشتروه له بدرهم ، وجاء سائلٌ فأمر بدفعهِ إليه ، فذَهبوا فاشتروه من السائل وردوه إليه ، فجاءَ سـائلٌ آخر فدفعه إليه وأبى أن يذوقَ منه .

وبلغنا أن الربيع بن خيثم (٢٢٧) رحمة الله عليهِ لما مرض قالوا: لو دعوتَ

---

(٢٢٦) حمص : مدينة قديمة في سورية . افتتحها العرب سنة ٦٣٦م فأصبحت قاعدة أحد الأجناد . من آثارها القلعة وضريح الصحابي ، سيفالله الفاتح الكبير خالد بن الوليد .

(٢٢٧) كذا بالأصل ، وفي الكامل لابن الأثير (١٢٢/٤) خثيم . وهو زاهد من أهل الكوفة . توفي سنة ٦٣هـ .

بطبيب ، قال : قد أردت ذلك ثم قصّرت فقلت أين عاد [٢٢٨] وثمود [٢٢٩]

---

(٢٢٨) عاد هم قوم هود، ينسبون الى عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح: يقال : انه كان في بابل ، ورحل بولده وأهله الى اليمن ، فاستقر في الأحقاف (بين عمان وحضرموت) وكانت له ولبنيه من بعده حضارة، وعناية بالعمران . من آثارهم : أبنية حجرية لا تزال انقاضها في حضرموت ، جلها في « وادي عدم » وشرقيه ، وفي نواحي « وادي سونة » وان صحّ أن أطلال « جش » من آثار عاد فيكون فريق منهم قد هاجر من جنوبي الجزيرة الى شماليها . وفي علماء الأخبار من يذكر أن « عادا » قبيلتان : الأولى « عاد ارم » هذه ، وقد بادت ، وأصبح اسمها رمزا للقدم ، حتى قيل : مجد عادي ، أي قديم ، ونسبت اليها في زمننا « العاديّات » أي التي لا يعرف عصرها ، و« عاد الأخيرة » قالوا : انها « بنو تميم » ومنازلها في رمال «عالج» المتصلة بوبار ، و« وبار » ما بين نجران وحضرموت وبين مهرة والشحر . وقال ابن حبيب : عاد ، من قبائل العرب العاربة الذين « الهموا » العربية فتكلموا بها .
وقد أشار القرآن الكريم الى عاد في آيات عدة بأنهم عصوا نبيهم هودا واستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، فأهلكهم الله لكفرهم وجحودهم وجورهم ، ولما يئس هود منهم هو ومن آمن معه رحل الى الحجاز قبل أن يحيق بهم عذاب الله . وقد ورد ذكر عاد في ٢٤ موضعا من القرآن الكريم .

(٢٢٩) ثمود هم قوم صالح ، ينسبون الى ثمود بن عامر بن ارم ، من بني سام ابن نوح : رأس قبيلة من العرب العاربة في الجاهلية الأولى . كانت اقامته في بابل ورحل عنها بعشيرته الى الحجر (بين المدينة والشام) ثم انتشروا بين الشام والحجاز ، وبقيت آثارهم في الحجر المعروفة بمدائن صالح الى اليوم . وفيها من عجيب الآثار بيوت منقورة في الصخور . وفي المؤرخين من يرى انهم كانوا وبادوا قبل زمن موسى ، وأن الكتابات الأرمية التي هي على بعض القبور كتبت بعدهم . وورد ذكرهم في تاريخ « الاشوريين » وانهم غلبوا سنة ←

وقارون [٢٣٠] ، بين ذلك كثيرٌ ، كان فيهم اطبّاء فلم يبقَ المداوون ولا الذين داووا ، فما معنى الطبيب والموت لا مدفع له » .

وولي البصرةَ رجلٌ من أهل الشام وكان يستدرج القرّاءَ ويتأتّى لهم

→

٧١٥ قبل الميلاد وأسكنت بقاياهم في مقاطعة «السامرة» بفلسطين . وقدماء اليونان يسمونهم « ثموديني » ويسمون الحجر Agra ودلت الاكتشافات الحديثة على أن بقايا من ثمود أدركت ايام المسيح وعاشت بعد الميلاد . وبين الكتابات الثمودية نص أرخ بسنة ٢٦٧ للميلاد . ونقل الدكتور جواد علي أن في المتاحف الأوربية الآن وفي مكتبات بعض الجامعات وفي أوراق المستشرقين مجموعة من النصوص الثمودية يزيد عددها على ١٧٠٠ نص وجدت في منطقة حائل (بنجد) وأرض تبوك وتيماء ومدائن صالح والسلاسل الجبلية الممتدة بين هذه المنطقة والحجاز . ووجد بعضها في الطائف وبقرب الوجه وفي شبه جزيرة سيناء وفي الصفا (شرقي دمشق) وفي مصر واليمن ، ويشك في صحة نسبة الكثير منها الى الثموديين . ورد ذكر ثمود منفردا أو مقرونا باسم عاد (السابقة) في ٢٦ موضعا من القرآن في بعضها تفصيل لقيام نبي بينهم يدعى صالحا كانت معجزته أن أخرج من الصخر ناقة عشراء ، ولكن ثمود عقرتها فأهلكهم الله وقضى على مدينتهم ، قيل بالصاعقة وقيل بزلزال .

(٢٣٠) كان قارون أحد أقارب موسى عليه السلام ، اتخذه فرعون مصر وزيرا له ، وولاّه على قومه فظلمهم وابتز أموالهم حتى اكتظت خزائنه بها ، وكان يعتقد أن هذا المال الطائل قد ناله باجتهاده وجدارته واستحقاقه له ، فبنى القصور الفخمة التي كان أشهرها فيما يقال قصر التيه أو قصر لابيرانت المشرف على بحيرة قارون بمحافظة الفيوم بمصر ، وقد نصح له الناصحون أن يخفف من غلوائه وغروره ، وأن يحسن كما أحسن الله اليه بالصحة والجاه والثراء ، ولكنه أبى وظل سادرا في ضلاله حتى خسف الله به وبداره الأرض جزاء جبروته وطغيانه . وقد ورد ذكر قارون في ٣ مواضع من القرآن الكريم .

حتى يَقْبلوا أرزاقهُ وصلاتهِ ، فعرض ذلك على امرأة ناسكة فقالت : يافاضح القرّاء ، والله اني لأستحيي أن اسألَ مالِكَ الدنيا شيئاً مِن أمْرِ الدنيا فكيف أسألُ ذلك مملوكاً مِثْلي فقيراً » .

وبَلغ بعضَ وُلاةِ الكوفةِ من الهاشميّين عن رجُلٍ مستور زهْدٌ ووَرَعٌ ، فبعث إليه بمال عظيم ، وامتنع الرجل من قبوله ، وظنّ الهاشميُّ انه مِمَّن يبغض دولتهم ولا يستحلُّ مالهم فهمّ به ، وبلغ ذلك الرجل فقام وصلّى ركعات وقال : « يا ربُّ انّهم رغّبوني فيما زَهّدتني فيهِ وأرادوني على ما نهيتني عنه ، فاقبضني إليك » ، فوجدوه ميتاً في مِحرابهِ .

وحجّ بعضُ الخلفاء فأتى زاهداً من زُهّادِ مكة فما رفع إليه رأسه وأحضره مالاً عظيماً ليفرّقه فيمَن يرَى ، فأبى ان يقبله وسأله أن يوصيه فقال : اتّق الله فيما استرْعَاكَ من أمورِ المسلمين واكتف بالقرآن هادياً ومؤدْباً » .

فهذا زُهدُ عدّةٍ من الملوك وخيار الأمة الذين لا يوجد لهم شبيه ولا شروى في ملوك الأرض وأمم الأنبياء مذ كانت الدنيا . فمن كان كذلك لم يظنّ بهم الأباطيلُ والكذبُ . ولقد اعتنقتهم الدنيا فهربوا منها ، وأقبلتْ عليهم بمحاسن وجهها فأدبروا عنها، وألقتْ إليهم أفلاذ كبدها ودفائن كنوزها ونصبتْ لهم غرائب فخاخها وبدائع خدعها وفتنها فما دنوا منها وقنعوا بالأطمار والأسمال وبالمطعم الجشب العلث ، وقد كانوا قبل الاسلام اصحابَ عزّ ونخوة وسعة وماشية ونعم وأرباح وتجارات . أقول ذلك بالحقّ الذي لا أحبُّ شيئاً إلّا فيه ، ولا أنصرُ قولاً إلّا له ، ولا أؤمّل فوْزاً إلا به. فإن كان من صبر هذا الصبر وغلب الدنيا هذه الغلبة يُظن به الكذبُ والمخْرَقةُ فلمْ يسلمْ من هذه الظنة والتهمة غيره .

لأنّ تلامذة موسي والمسيح ، عليهما السلام ، وإن كانوا أبراراً أطهاراً ،

فإن الحقّ لا يُستحى منه ويستحق تقديمه ، ومتى أتهم أمثالُ من سمّينا فبالحري ان نتهمَ من لم يبلغ درجة زهدهم ولا أبتلي بمثل محنتهم وخلاصهم ، لأنهُ ان كان من ترك مصيدةً (٢٣١) وفارق مصلحة (٢٣٢) أو خرج عن مهنة (٢٣٣) أو مزرعة من حواريي موسى والمسيح عليهما السلام يجبُ قبولُ قوله وتصديق خبره ، فبالحري أن يصدّق من ملك الخلافة بأسرها فكانت أدق في عينه من تفلة في نهر ، بل بعَثرة في بحر .

فإن قال قائلٌ أن أصحابكم إنما صبروا على ما ذكرت طلباً للعز والرياسة عارضناهم بمثله وقلنا : فكذلك يظنُّ بأصحابكم ، إنهم لما انتقلوا من حال السُّوقَةِ والقلة إلى أن أطاعهم المطيعون ، وتبرّك بهم المتبرّكون ، واجتمع إليهم أهل الأموال والأقدار ، ونفذَت أوامرهم في الأهل والمال ، تاقتْ أنفسهم إلى الرياسةِ فصَبروا في حبّها على الجفاءِ والخشونةِ . فقد بلغكم مافعل شمعون الصفا برجل باع ضيعته وأتاه بثمنها متقرّباً به إليه فكان جزاءُه عنده أنْ غضب عليه وسأل اللهَ أن يُميته وأهله من ساعتهِ ، لأنّ البائس لم يكن أتاه بالثمن كلهِ بل ذخر لنفسهِ وأهلهِ بعضهُ . فإن الحرْصَ مما لا يظنُّ بحواريي المسيح ، فكذلك ظُنّوا بحواريي محمد عليه السلام .

فإن قالوا : إن أصحابكم هؤلاء وإنْ كانوا خياراً في أنفسهم أبراراً ، فإنهُ لما كانتْ شهادتُهم لابن عمّهم وفي استمالةِ الناس إلى دينه شككنا

---

(٢٣١) يقصد سمعان بن يونا . كان صياد سمك على بحيرة طبرية فدعاه المسيح عليه السلام وسمّاه كينا أو الصخرة (بطرس) وأقامه رئيسا للرسل .

(٢٣٢) لعله يقصد متّى من تلاميذ المسيح الاثني عشر ، فقد كان عشارا في كفرناحوم .

(٢٣٣) لعله يقصد لوقا من تلاميذ المسيح . فقد كان طبيبا .

فيهم ، قلنا : وكذلك أصحابُكم أيضاً ، فما شهد لموسى وعيسى إلا بنو عمّهما . فإنْ قالوا : وما حاجتنا إلى شهادات أُممِنا لنا مع إيمان صاحبكم بأنبيائنا ؟ قلنا : فما تقولون فيمن قبل قولهم قبل ظهور النبي ﷺ ، أهو مُصيبٌ أم مُخطىءٌ ، رشيدٌ أو غويٌّ ؟ على أنّ بين نعتِ المسيحِ الذي يؤمنُ به أهلُ الإسلام (٢٣٤) وبين مسيحِكم بَوْناً بعيداً جداً ، فإنّ النصارى يقولون انه قديمٌ ، وهو عندنا حديثٌ ، ويذكرون انه خالقٌ وهو عندنا مخلوق ، وأنه قُتل وهو عندنا حي (٢٣٥) . فهذه نعوت مُتضادّة غير مُتشابِهةٍ .

---

(٢٣٤) المسيح عيسى بن مريم ، في نظر الاسلام ، هو عبدالله ورسوله وكلمته التي القاها الى مريم وروح منه ، ولا غرابة في خلق عيسى بغير أب ، لأن الله قادر على كل شيء ، خلق آدم من تراب ، وعيسى هو آخر أنبياء الله ورسله من بني اسرائيل .

(٢٣٥) لما بلغ عيسى الثلاثين نزل عليه جبريل بالوحي ، وبدأ بتبليغ رسالته الى قومه بني اسرائيل ، وقد أيده ربه بالمعجزات الباهرة من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص ، فناصبه أحبار اليهود العداء لما رأوا في دعوته من الآيات البينات ما سوف يقضي على نفوذهم ، ويذهب بالأموال التي يجمعونها بالباطل ، فوشوا به وسعوا في قتله والتخلص منه ومن دعوته ، ودبروا مكيدتهم للقضاء عليه ، ولكن الله أحبط تدبيرهم برفعه الى محل كرامته ، والقاء شبهه على من خانه من أتباعه وهو يهوذا الاسخريوطي فقتلوه . والحقيقة في نهاية عيسى انه لم يقتل ولم يصلب ، والقول بأنه صلب كفر صريح في نظر الاسلام ، لأن الله توفاه ورفعه اليه . قال تعالى : « اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك اليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ، ثم الي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » (آل عمران : ٥٥) . وقال : « وقولهم انّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما » (النساء : ١٥٧ ــ ١٥٨) .

وأيضاً فإن الواجبَ لله على الناسِ كافةً طلبُ الحقّ واتّباعُه في كل دهر ، والواجب للناس على الله جلّ ذكرُه تأييدُ الحقّ وإظهاره وقطع حجج الشاكّين فيه . ولسنا نشكّ في أن كثيراً من الأمم المحيطين بأرض مصر والشامات قد كان يبلغهم خبرُ موسى عليه السلام وسائرِ الأنبياء وتتوقُ أنفسهم إليه وإلى أخبار المسيح قبل ظهور محمد ﷺ وعليهم ، ويسألون عنها مَن طرأ عليهم ، فهل كان يجب عليهم قبولُ ما يبلغهم عنها والتصديقُ به أوْ لا ؟ فإنْ لم تُوجبوا قبوله كفرتم بكل نبيّ ، وإنْ أوجبتم ذلك قلنا ولِمَ وجَبَ؟ فإنما كان الذين يُخبرون بذلك ويشهدون به يهوداً ونصارى ، ومَن قبِل قول أمثالِهم واغترّ به فهو مخالِفٌ للحق في قولكم ، راكن إلى الأباطيل والزور ، لأنه صدّق فيها قولَ أمّتيها وبني عمّها الذين لم توجَد عندهم آية ولا دلالة ، فإن كان قبولُ ذلك واجباً على تلك الأمم قبل أن يَشْهدَ لهم به محمد النبي ﷺ فقبول خبر أصحاب النبي ﷺ أيضاً واجبٌ ، لا سيما وقد شهدت الأنبياء له ، ووصفوا مخرجه وزمانه ، وذكروا من تصحيح ذلك ما ليس لأحدٍ أن يدّعيه سوى المسلمين ، لأنه إذا ادّعت اليهودُ تلك النبوّات التي أنا ذاكرها مكابرة وجهلاً ، فما عسى يقول النصارى وهم يشهدون بأن الله قطع دابرَ اليهود ، ومحا دينهم عن جريد الأرض ، وأخبر أنه غير موجب لهم رحمةً ، ولا مُقيلٌ لهم عثرَةً ، ولا قابلٌ منهم صَرْفاً ولا عدلاً إلاّ بالرجوع عنها ومفارقة أسبابها .

الباب التاسع

في انه لو لم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم لبطلت نبوات الأنبياء

لو لم يظهر النبي ﷺ لبطلت نبوّات الأنبياء في اسمعيل عليه السلام وفي النبي عليه السلام خاتم الأنبياء بالضرورة ، لأن الله عز وجل لا يُخلف وعده، ولا يكذّب خبره ، ولا يُخيبُ راجيه . ولقد كان بشّر ابراهيم عليه السلام ، وهاجر (٢٣٦) رحمة الله عليها ، ببشاراتٍ بيّناتٍ سارّات ، ولم نرَها تمّت وظهرت إلاّ بظهور النبي ﷺ . ولقد بُشّرت هاجرُ من ذلك بما لم نرَ امرأةً من النساء الماضين بُشرت به بأكثر منه بعد مريم الطاهرة والبتول أمّ المسيح عليه السلام ، على أن مريم عليها السلام بُشرت بالمسيح مرّةً واحدة ، وبُشرتْ هاجرُ باسماعيل مرتين، وبُشر أبوه عليه السلام مراراً . ثم ذكرَ الله عز وجل هاجرَ بعد وفاتِها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء مراراً ، وأنا موضحٌ ذلك في أبوابه إن شاء الله .

---

(٢٣٦) أمة ابراهيم الخليل عليه السلام وأم اسماعيل الابن الاكبر له .

فأمَّا ما أوحى اللهُ تعالى إلى ابراهيم عليه السلام في اسمعيل وحده ، فهو قوله على لسان موسى عليه السلام في السِّفْرِ الأوَّل من التوراة في الفصل العاشر منه ، ان الله قال لإبراهيم عليه السلام : قد أجَبتُ دعاءَك في اسماعيل وباركتُ عليه وكثرتُه وعظمتُه جداً جداً وسيلِدُ إثنَي عشرَ عظيماً وأجعله لأمة عظيمة ، فهذا في ترجمة مارقس الترجمان . فأمّا في التوراة التي فسّرها الاثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود ، فإنه يقول : إنه سيلد اثنتي عشرة أمةً من الأمم ، فليس يكون من المواعيد والبشارات في أحد أكثر من قول الله عز وجل : اني قد باركتُ فيه وكثرتُه وعظمته جداً جداً ، وأقلُّ من هذا عن الله عز وجل كبيرٌ وأصغرُه جليلٌ ، لأن القدْر الذي يراه الله كبيراً عظيماً جداً جداً ، فلا قدْر أعظم منه ، فهذا تبكيتٌ وتكذيب لذلك الجِلْفِ الجافي الذي وقع في اسماعيل وعابه بقول الله فيه انه يكون عيْرَ الناس ، وأنا مُفسّر ذلك في هذا الباب توبيخاً لذلك المائِق المشعوف .

وقد كان موسى عليه السلام تنبأ بمثل هذه النبوّة في السفرِ الأول والفصل التاسع وقال : انه لما هربتْ هاجرُ من سارة (٢٣٧) تراءى لها مَلَكُ الله وقال : يا هاجرُ أمَةَ سارة ، من أين أقبلتِ وأين تُريدين ؟ قالت هاجرُ مجيبةً له : أهرب من سيدتي سارة . قال لها ملكُ الربِّ : ارجعي إلى سيدتك واخضعي لها فإني سأكثر ذرّيتك وزرْعك حتى لا يُحصون كثرةً ، وها أنتِ تحبَلين وتلِدين إبناً وتُسمّيه اسمعيل ، لأن الله قد سمع تبتُّلك وخشوعَكِ ، وهو يكون عيْرَ الناس وتكون يده فوق الجميع ويدُ الجميع مبسوطة إليه ، ويكون مَسْكنَه على تخوم جميع إخوته » . فهذه بشارة ثانية شافهَ الملَكُ بها هاجر عليها السلام عن الله عز وجل مشافهة ، وأخبرَ أن الله جاعلٌ يدَ إبنها العُليا وأيدي جميع الناس عنده السُّفلى ، ولم نرَ

---

(٢٣٧) امرأة ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسحاق .

ذلك من نبوّة موسى عليه السلام تمت وظهرت إلا بعد ظهور محمد النبي ﷺ.

وقال موسى في السفر الأول والفصل الثالث عشر : إن الله قال لإبراهيم عليه السلام : « إني جاعل ابن أمتك أيضاً لأمة عظيمة لأنه من زرعك » فهذه بشارة ثالثة في اسمعيل عليه السلام . وقال موسى بعقب هذا القول : إنه لما أصبح ابراهيم أخرج هاجر وولده عن منزله طلباً لمسرة سارة ، وانتهى إلى ما أمره الله به فيها ، وأنه دفع إليها زاداً ومزاداً، وحمل الصبي على كتفها ووجهها لطيتها ، فشخصت هاجر وضلت في البرية التي يقال لها بير سبع (٢٣٨) ونفد ماؤها فوضعت الصبي تحت أصل شيح وانتبذت

(٢٣٨) بئر السبع أقصى المدن الفلسطينية جنوبا ، تقع الى الجنوب الغربي من الخليل والى الجنوب الشرقي من غزة على بعد نحو ٤٨ كيلومترا من كل منهما ، أي أن موقعها على رأس زاوية يمتد أحد ضلعيها شمالا شرقيا الى الخليل والثاني شمالا غربيا الى غزة . وتعلو عن سطح البحر ٢٨٦ مترا وقد دعيت بهذا الاسم نسبة الى وجود سبعة آبار قديمة فيها . وهي عريقة في القدم ، كانت في عهد الرومان محط القوافل . وقد فتحها العرب في أيام عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، الذي أقام فيها بعد تنحيته عن ولاية مصر. وزادت شهرتها كثيرا في العهد الأموي ، الا أن قلة الأمطار وكثرة المحل وتحول طرق التجارة ، أدت الى تأخرها حتى هجرت في القرن الخامس عشر الميلادي وأصبحت خرابا ، الى أن جدد بناؤها بطريقة حديثة في أواخر العهد العثماني (١٩٠٩م) وأنشىء لها خطان حديديان يصلها أحدهما بوادي الصرار والآخر برفح ــ الا أنهما نزعا في عهد الانتداب البريطاني عام ١٩٢٧م. وتعود أهميتها الى أنها السوق الطبيعي لملتقى القبائل البدوية الكثيرة الضاربة في منطقة النقب . فكان البدو يجتمعون فيها لبيع الأغنام والابقار والخيل والبغال والحمير والابل والدواجن على اختلاف أنواعها ، وكذلك المنتوجات الحيوانية من سمن وصوف وجلود ، ويستبدلون بهذه السلع حاجاتهم من ملابس وبن وسكر وغير ذلك . وكان يقطنها في أواخر عهد الانتداب البريطاني سنة ١٩٤٨ ما لا يقل عن (٧) آلاف نسمة .

بقدر مرْمى حجَر ٍ لئلا ترى مَوتَ ابنِها، وإنها لكذلك(٢٣٩) باكية حزينة، وسمع الله صوتَ الصبيّ ونادى ملك الله هاجر مِن السماء وقال : مـا بالـُك يا هاجر ؟ ليَفرَحْ روعُك ، فقد سمع الله صوت الصبيّ ، قومي احمليه وتمسكي به فإن الله جاعله لأمـّة عظيمة » وإن الله فتح عينيها فإذا هي ببئر ماء ٍ ودبَّبتْ فملأت المزارَةَ منه وسقت الصبي منه ، وكان الله معهـا ومع الصبي حتى َتربّى ، وكان مسكنه في برّية فاران ، وأقبل على الرمْي يتعلمه .

فهذا من نبوةِ موسى عليه السلام في اسمعيل وفي أُمه ِ هاجر، شبيهٌ بقول جبريل المـَلـَك لمريمَ البتولِ : « إنّ ربنا معكِ يا أيتها المباركةُ في النساءِ »، ففـُتِنَ النصارى بذلك وقالوا : ان اللهَ كان حالاً فيها لقول جبريل لها : ان رَّبنا معكِ ، وقال موسى عليه السلام في هاجرَ مثلَ ذلك، وهو أن الله كان معها ومع الصبيّ حتى تربى .

فهذه اربع بشاراتٍ خالصة في اسمعيل عليه السلام ، نزل اثنتان منها على ابراهيم واثنتان على هاجر ، فليُوجدنا ذلك الغـَمَزُ الغافل بشارات من الله تعالى تتابعتْ في مولود على والديه منذ كانتِ الدنيا بأكثر واشهر وأصحَّ من هذه. فأمّا ما َبشّر اللهُ به ابراهيمَ في جميع ذُرّيتِه ووُلدِه ، فإنهُ أيضاً بشارتان إحداهما قولُ الله عز وجل لابراهيم حين قرَّب ابنـَه للذبيحةِ : من أجل انكَ فعلت هذا الفعل ولم ُتشفقْ على وَلدِك وفرْدِك ، فهـا أنا أُقْسِم بنفسي لأباركنّ عليك ، ولأكثرنّ ذرّيتَك ، ولأجعلنـّهم في عددِ نجوم السماء ورَمل سواحل البحـار ، ويَرِث وُلدُك بلدانَ أعدائهم ويتبرّك بهم جميعُ أممَ الأرض » وتقول التوراةُ أيضاً إن ابراهيمَ قال : ها أنا ميتٌ وما لي ولـَدٌ وعقِب ، وإنما يرِثـُني عبدي وتِلادُ بيتي ». فقال له الربُّ : كلاّ لن يرثـَك

(٢٣٩) كذا في الأصل . ولعله « لذلك » .

هذا بل يرثُك الذي يخرجُ من صُلبِك ، فاخرُج وأنظرْ إلى نجوم السماءِ ، فإن كنتَ مُحصياً لها فإنك ستُحصي وُلدَك أيضاً » .

فتلك البشاراتُ الأربعُ المتقدِّماتُ خالصة لإسماعيل وحده ، ويُشاركُ اسماعيلُ اسحق وغيرَه من إخوته في هاتَين ، فتلك ستُّ نبوّات وبشارات قاهرات فيه (٢٤٠) . ويزعم ذلك الجلفُ الجرمقاني الخبيثُ الغبيُّ ان اسماعيل غير معدود في وُلدِ ابراهيم عليه السلام ، وانما تمّتْ هذه الكلماتُ وظهرتْ بظهور النبي ﷺ ، فأما قبل ذلك فقد علمت النصارى واليهود كافةً انه لم يزل بنو ابراهيم المعروفون به المنسوبون إليه في طائفة من طوائف الدنيا ، فريق منهم بمصر خَوَل للفراعنة والقِبْط مُمتهنون مقهورون ، وفريق في ناحية البوادي وأرضِ الحجاز بالجفاءِ والحروب . ثم انتقل مَن كان منهم بمصر إلى الشام ، ويُغاديهم ويُراوحهم فيها من حَوْلهم بالحرب ، ثم لم يلبثوا ان صاروا مُشَرَّدين ومطرودين ، مسلوباً عزُّهم ، زائلاً مُلكُهم ، مُنتشراً جمعهم في آفاق الدنيا وأقطارها ، فقد ضربتْ فيهم فوائجُ السودان وأمواجُ الحُمْرَان ، حتى إذا ظهر النبيُّ ﷺ ، تمّتْ تلك النبواتُ وظهرتِ البشاراتُ بعد دهرٍ طويل ، وغلب بنو اسماعيلَ على مَن حَوْلهم فهشموهم هَشْماً وذرُّوهم في الهواءِ ذرّاً ، كما قالت الأنبياءُ عليهم السلام ، وطحنوهم طحناً ، وانتشروا في آفاق الدنيا كالدَّبا ، ومازجوا الأممَ كالدِّماءِ والأرواحِ ، وعلَوهم عُلوَّ الثرَيّا فيما بين الهند والحبشان والسُّوس الأقصى وبلادَ الترك والخزَر ، وملكوا ما بين الخافقَين وحيثُ يصْطكُّ موجُ البحرَين . وظهر ذكرُ ابراهيم على أفواهِ الامم كلها صباحَ مساءَ ، فليس من رجل وامرأة ، عبد أو أمَة ، غني أو فقير ، مسرور أو مكروب ، في بر أو بحر ، إلاّ وهو يوحِّد الله ويكبِّر إلهَ ابراهيم ويعوذ به .

---

(٢٤٠) في الأصل فيهم ، والصواب ما ذكرناه .

فأما اليهودية فإنما كانت ظهرت في طائفة ٍ من الناس ، وأما المسيحية فإنها وإن كانت قد ظهرت في أمة كبيرة جليلة ، فإنه لم يكن لهم [٢٤١] في بلد ابراهيم وزوجته سارة ، ولا في بلاد آبائها وأجدادهما ، ولا في بلد هاجر وآبائها سلطانٌ قاهر ولا عزٌّ ظاهر كما جعل الله لهم بالنبي ﷺ ، وسآتي بشهادات الأنبياء على ما ادّعيت ، وأبدأ بالرد على ذلك الجلفِ الجُرمَقاني الذي انتقصَ اسمعيلَ وعابَه بما وصفه الله به ، ولولا غباوتُه وسخفُه لعَلِم أن لِألفاظ التنزيل وجُوهاً وأسراراً لا يعرفها إلّا الراسخون في العلم . فقد قالتِ التوراة أن الله صار أسداً وافترس بني اسرائيل ، وقيل فيها ان الله نار محرقة ، وليس الله بنار ولا سبع ضار وإنما ضرب به مثلاً للغضب والإحتدام والمعاقبة والانتقام. وسمّى المسيحُ رئيس حوارِيه الذي استرعاه أمر أمته شمعون الحجَر ، وسمّى أمته كلها النعاج ، وسمى المسيح نفسه حمَلَ الله وخروفه ، فلو عارض معارض ذلك السفيه المائق بذلك لكان له أن يقول : إن العيْرَ أعزُّ وأمنع من الحمل الذي يأكله الذئب ويطمع فيه الكلب والثعلب ، فلا شيء في ذوات الأربع أقل وأضعف منه ، فإن رجع ذلك الجاهل الأنوَكُ ومن يقول بقوله إلى تأويل هذه الأسماء، رجعنا نحن أيضاً إلى التأويل وقلنا :

ان تأويل العير يشتمل على عدّة معان منها ، ان الله تبارك وتعالى أشار بهذا الاسم أن اسمعيل عليه السلام يأوَى المعاطشَ والفلَوات، ويمنعُ جانبه، ويكون مغواراً غيوراً كالعير الذي يأوى البراري ويخصي الذكر من جُحشانه للغيرة ويغيرُ على قطعان غيره من الفحولة ، فلا يزال يحارب الفحل ويُراكله ويُكادمُه حتى يغلبَ على عانتِه وقطيعه ، فإذا حازهنّ حرسَهن وذَبَّ عنهن وطلب نتاجهُن ولا يأكلهن كما تفعل الأسد والذئاب ، فإن تلك إنما

---

(٢٤١) في الأصل له ، والصواب ما ذكرناه .

تطلب الغلبة للأكل والإستراط وتطلب الاعيار الغلبة للنشاط والإستنباط ، وسمّاه الله بهذا الاسم أيضاً لئــلا يجدَ الجاحدون سبيلاً إلى إنكار مَسكن اسمعيل عليــه السلام من البراري ، وان الله صيّره في تلك البراري لمعنى جليل القدر لطيف ، وهو أنــه جلّ وعزّ أحبّ أن يصون نسبه ويحفظ حرّيته من أن ينـال مثلما نِيلَ به غيره من الإسترقاق في الأمم كما سبيَ ومزق غيره .

فليفهَم ذلك الخيّـاب الخاسر هذه المعاني ، ولا يتمرّس بمن أخبر الله تبارك وتعالى أنه قد بارك عليــه وعظمه جداً جداً ، فإن من صغر من عظم الله كان كمن عظم من صغره الله ، وكفى بمن فعـل ذلك خزْياً وتوبيخاً . وللعَير معنى أيضاً كان يستعمله العجم وسائر الأمم فإنهم كانوا يسمّون من كان فاتِكاً نَهِيكاً نجِــداً جوْزْ . ولذلك سمي بهرام جوْزْ ، ومعنى الجور هو العَيْر ، وبه سمي أهل طبرستان الجورية ، ولهذا سمي الرجـل الشجاع الأرْيحيُّ « جوْزْ مَرْدَانْ » أي عيرَ الرجال كقول العرب للرجل الشجاع: فلان كَبش العشيرةِ ، وتشبيههم إياه بفحولةِ الإبل وقرومِهـا وبغير ذلك من الحيوان .

الباب العاشر

في نبوات الأنبياء على النبي صلى الله عليه وسلم وعليهم

وقد قدّمت ذكر أربع نبوّات في اسماعيل عليه السلام فيها من الشواهد على حقيقة أمة النبي ﷺ ما لا يجهله إلاّ جاهل ، ولا يجحده إلاّ غبيّ ، وبأنهُ لو لم يبعث النبيُّ ﷺ لبطلت النبوات واستحالتْ . وأنا ذاكرٌ مما بقي من نبوات الأنبياء عليهم السلام عليه ما هو كالمشاهدة والعيان ، فإن منهم من قد وصف زمانه وبلده ومبعثه وتبعه وأنصاره وصرّح باسمه تصريحاً.

فالنبوة الخامسة الدالة عليه المشيرة إلى نبوته وحقه قول موسى عليه السلام في الفصل الحادي عشر من التوراة من السفر الخامس ، وهو الأخير لبني اسرائيل: ان الربّ إلهكم يقيم نبيًّا مثلي من بينكم ومن إخوتكم فأسمعوا له». وقالت التوراة في هذا الفصل بعينه مؤكداً لهذا القول وموضحاً له ، انهُ قال الرب لموسى عليه السلام : إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم ، وأيما رجل لم يسمعْ كلماتي التي يؤديها ذلك الرجل باسمي أنا أنتقِم منهُ ، ولم يقم

الله نبياً من إخوة بني اسرائيل إلاّ محمداً عليهِ السلام . وقوله من بينهم تأكيداً وتحديداً انهُ من ولدِ أبيهِم لا من ولدِ عمومتهِ ، فأمّا المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء صلى الله عليهم فإنهم كانوا منهم أنفسهم . ومن ظنّ بأن الله تعالى لم يُميز بين مَنْ هو مِنَ القوم أنفسِهم ومَنْ هو مِنْ إخوتهم فقد ظنّ عجزاً ، فأمّا مَن ادعى ان هذه النبوةَ في المسيح عليهِ السلام فقدظلمَ بخلتَين وتجاهل من وجهَين ، أحدهما ان المسيحَ عليه السلام من ولدِ داوود ، وداوود منهم انفسهم وليس من إخوتهم ، والثانية ان من قال مرةً ان المسيحَ هو خالق غير مخلوق ، ثم زعم ان المسيحَ مثْل موسى ، فقد تناقضَ خبَره وتذبذبَ قوله ، وان من زعمَ ان هـذه النبوةَ في يَشوع بن نون (٢٤٢) فقد أخطأ ، لأن يَشوع ليس يُعدُّ في الأنبياء ، ولم يؤد عن الله تعالى إلى بني اسرائيل شيئاً سوى ما أداه موسى عليـه السلام ، ولأنه من القوم أنفسهم وليس من إخوتهم ، والنبيُّ الذي أقامه الله تعالى من بني إخوتهم هو محمد (صلعم) ، وهو الذي من خالفه انتقم الله منه ، فقد ترون آثار النقمة بيّنة على من خالفه ، ودلائل النعمة ظاهرة على من قبله .

وقال موسى في هذا السفر في الفصل العشرين : إن الرب جـاء من طور سينين (٢٤٣) ، وطلع لنا من ساعير (٢٤٤) ، وظهر من جبل فاران ، ومعه عن يمينـه ربوات القدّيسين فمنحهم العز وحبّبهم إلى الشّعوب ودعا بجميع قديسيه بالبركة . ففاران هي البلدة التي سكنها اسمعيل عليـه السلام ولذلك قدّم الله ذكَـرها في التوراة في قوله : فكان يتعلّم الرّمْي في بريّة

---

(٢٤٢) خادم موسى وخلفه . أدخل العبرانيين أرض كنعان وقاد جيشهم في محاربة العمالقة فاجتاز الأردن ، ودخل أريحا .

(٢٤٣) هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ، في صحراء سيناء .

(٢٤٤) قيل هو اسم لجبال مكة . أنظر معجم البلدان لياقوت .

فاران . وقد عَلِم الناس كلهم أن اسمعيل سكن مكة ، فوُلده وأعقابه فيها وفيما حَولها يعرفون مأوى جدّهم ولا يجهلون بلده ووطنه ، وقد طلع الربُّ من فاران ، فإن لم يكن كما ذكرْنا فليُوجدونا رباً ظَهر من جبل فاران ، ولن يفعلوا . فأما اسم الربّ هاهنا فإنه يَقع على النبي (صلعم) وهي كلمة مستعملة من العَرب والعَجم في الله عزّ وجلّ ، وفي عباده ، كقولك ربُّ البيت ، وقول السريانيين لِمن أرادوا تفخيمهُ « مَار » أي يا رَبي ويا سيّدي ، ومار بالسريانية هو الرب [٢٤٥] .

نبوات داوود على النبي صلى الله عليهما وسلم كثيراً

وقال داوود النبي عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين : « من أجل هذا بارك الله عليكَ إلى الأبد ، فتقلّد السيف أيها الجبّار لأن بهاءَك وحمْدَك البهاءُ والحمْد الغالب ، إركب كلمةَ الحق وسمْتَ التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهَيبة يمينك ، وسهامك مسنونة والأمم يخرُّون تحتك » . ولا نعرف أحداً تجب له هذه المعاني ، من تقليد السيف ، وشَحذ النُّصول ، وهيبة اليمين ، ووقوع الأمم تحته ، إلاّ النبي (صلعم) فقد ركب كلمة الحقّ ، وتواضع لله بالديانة ، وشاهَد المشركين حتى ظهرَ الدِّين .

وقال داوود عليه السلام في المزمور الثامن والأربعين : إن ربّنا عظيمٌ محمود جداً ، وفي قرية إلهنا وفي جَبله قدوس ومحمد ، وعمّت الأرض كلها فرحاً » . فهذا من نبوة داوود عليه السلام ، هو الإبانة والتصريح الذي لا تلابسه شكوك فقد سمّى [٢٤٦] النبيّ تسميةً .

---

(٢٤٥) قال في المنجد : مار كلمة سريانية معناها سيد ، وأكثر استعمالها للقديسين .

(٢٤٦) في الأصل سمّاه .

وقال داوود عليه السلام في المزمور الخمسين : ان الله أظهر من صهيون إكليلاً محموداً ، فالله يأتي ولا يُهمل ، وتحرق النيران بين يديه وتضطرم حواليه اضطراماً » أفما ترون أن لا يخلي داوود النبي عليه السلام شيئاً من نبواته من ذكر محمد أو محمود كما قد تقرأون ، ومعنى قوله إكليلاً محموداً أي انهُ رأس وإمام محمد محمود ، ومعنى محمد ومحمود وحميد شيء واحد في اللغة، وانما ضرب بالإكليل مثلاً للربّانية والإمامة .

وقال أيضاً في المزمور الثاني والسبعين ماأكد به وشدّد النبوات المتقدمة، انه يجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، وانه يخرُّ اهل الجزائر بين يديه على ركبهم وتلحس أعداؤه التراب . تأتيه ملوك تارسيس (٢٤٧) والجزائر بالقرابين ، وتقرّب إليه ملوك سبأ وملوك سابا القرابين ، وتسجد له الملوك كلّهم ، وتدين له الأمم كلّها بالطاعة والإنقياد ، لأنهُ يخلص المضطهد البائسَ ممن هو أقوى منه ، ويتفقد الضعيف الذي لاناصر له ، ويرأف بالضعفاء والمساكين ، وينجي أنفسهم من الضُرّ والضَيم ، وتعزّ عليه دماؤهم ، وأنه يبقى ويعطى من ذهب بلاد سبا (٢٤٨) ويصلى عليه في كلّ

---

(٢٤٧) بلاد ورد ذكرها في الكتاب المقدس . كان الفينيقيون يقصدونها قديما في طلب المعادن الثمينة ، وقد يكون موقعها على الساحل الأطلسي الاسباني (المنجد) .

(٢٤٨) سبأ : بلاد في جنوب غربي الجزيرة العربية (اليمن) . ذكرت في كتب العهد القديم وفي مؤلفات العرب واليونان والرومان . كانت على جانب عظيم من الحضارة . تعاطى سكانها تجارة الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان : من كبار ملوك اليمن في الجاهلية الأولى . قيل اسمه عبد شمس وقيل عامر . ويظن أنه كان في القرن العشرين قبل الميلاد . ملك صنعاء وما جاورها ، ووصفه ←

وقت ، ويبارَك عليه كلّ يوم مثل الزروع الكثيرة على وجه الأرض، ويطلع ثماره على رؤوس الجبال كالتي تطلع [٢٤٩] من لـُبْنـَانَ وينبت في مدينته مثل عشب الأرض ويدوم ذكره إلى الأبد ، وأن أسمهُ لموجود قبل الشمس فالأمم كلهم يتبرّكون به وكلـّهم يحمدونهُ » . فهذه نبوة شافية كافية ما فيها لبس ولا إظلام . فما نعلم أحداً ملك ما بين البحْر والبحْر ، وبين الأنهار التي ذكرها الله في التوراة ، وهي دجلة [٢٥٠] والفرات [٢٥١] وبيْشون [٢٥٢]

مؤرخوه بالشجاعة وعلو الهمة، وقالوا : انه طمح الى اخضاع القبائل النائية ، فحاربها ، وأولع بالعمران فابتنى مدينة مأرب وفيها السد . وقالوا : ان سبأ أول من خطب في الجاهلية ، ولم تكن الخطابة على ملاء من الناس معروفة قبله. وقالوا : انه أغار على بابل ففتحها وأخذ اتاوتها ، وانه أول من فتح البلاد وأخذ الاتاوات . وأعقب نسلا كثيرا، قال النسابة الكلبي : ولد لسبأ : حمير وكهلان وصيفي وبشر ونصر وأفلح وزيدان والعود ورهم وعبدالله ونعمان ويشجب وشداد وربيعة ومالك وزيد ، فيقال لبني سبأ كلهم السبئيون ، الا حميرا وكهلان ، فان القبائل قد تفرقت منهما ، ومن قال انه سبىء فليس بحميري ولا كهلاني ، وانما هو من أبناء سبأ الآخرين . وقد ورد ذكر سبأ في موضعين من القرآن . قال تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » (النمل : ٢٢) وقال : «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» (سبأ : ١٥) .

(٢٤٩) في الأصل : كالذي يطلع

(٢٥٠) نهر ينبع في تركيا شرقي جبال طوروس ثم يجري في العراق مارا في الموصل وبغداد . تمتزج مياهه بمياه الفرات عند القرنة فيكونان شط العرب الصالح للملاحة .

(٢٥١) نهر نبعه في أرمينيا ، يجري في تركيا مخترقا جبال طوروس وسورية والعراق حيث تتسرب منه مياه كثيرة الى الأراضي المنخفضة المجاورة فتظهر بحيرات أهمها الحبانية ، ثم يلتقي بنهر دجلة عند القرنة (أنظر الحاشية السابقة) . اعتبر الفرات قديما أحد أنهر الفردوس الأربعة ودعي بالنهر الكبير .

(٢٥٢) لم أعثر على اسم هذا النهر ومكانه فيما بين يدي الساعة من

وجيحون (٢٥٣) وخرّت الملوك بين يديه سجداً على الرُّكب ، ولحس أعداؤه التراب ، وأتته ملوك اليمن بالقرابين ، إلاّ النبيّ ﷺ وأمته وإلاّ مكة وما فيها من أثر قدَم ابراهيم ، ولا نعلم أحداً يصلي ويبارك عليه في كل وقت غير محمد ﷺ ، وهو قول الأمم : اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد ». أيّة دلالة أشهر ، ونبوة أظهر وأنور من هذه . ولقد ختم داود النبي عليه السلام نبوته هذه بأنْ قال : فالامم كلها يتبركون به ويحمّدونه ويسمّونهُ محمداً ، ومعنى محمد ومحمود واحد .

وقال داوود عليه السلام في المزمور المائة والعشرة : إن الرب عن يمينك ، وهو يَكسر في يوم رجزه الملوكَ ويُضعِف رُكن الملك ، ويحكم بينهم بالحقّ ، ويكثر القتلى والجيفَ ويقطع رؤوس بشرٍ كثيرٍ في الأرض ، ويشربُ في سفره من ماءِ الأودية ، ومن أجل هذا يسمو للمعالي رأسه ». فهذه أيضاً صفة كالعيان ، فمن ذا الذي كان الربُّ عن يمينه والذي حكم بالحقّ وضرب الرّقاب وأكثر القتلى والجيفَ غيرُه وغيرُ أُمّتِه ﷺ .

وقال في المزمور المائة والتاسع والأربعين : « من أجل ان الربّ ارتاحَ لشعبه ، وتَطوّل على المساكين بالخلاص ، فليتعزّز الأبرارُ بالكرامة ، ويسبحونه على مضاجعهم ، ويكرموا الله بحناجرهم ، لأنّ في أيديهم السيف ذا الشفرتين للانتقام من الشعوب وتوبيخ الأمم وإثقال ملوكهم بالقيود وعليتهم ومكرميهم بالسلاسل ليحملهم على القدر المكتوب المبرم فالحمد لجميع أبراره » . أما ترون

←

مصادر . ولعل المؤلف يقصد به وادي بيشة ، قال الزمخشري : بيشة واد يصب من اليمن . وانظر معجم البلدان ١\٧٩١ والبكري ٢٩٣/١ .

(٢٥٣) نهر نبعه من جبال بامير بالهند ، يجتاز آسيا السوفياتية ويصب في بحر آرال .

يهديكم الله هذه للصفات خالصةً للنبي ﷺ ولأمته ؟ فهو الذي معهُ السيفُ ذو الشفرتين ، وهو المنتقِمُ بأمته من جبابرة فارس وطغاة الرُّوم وغيرهم ، وهو الذي قيَّدت أُمتُه الملوكَ وساقتْ جِلَّتَهم وأولادهم في السلاسل والأغلال ، وهم الذين يُسبِّحون الله على مضاجعهم ويُكبِّرونهُ صباح مَساءَ تكبيراً وفي كلِّ وقت ، وذلك قولُهم : اللهُ أكبرُ كبيراً والحمدُ للهِ كثيراً.

وقال عليه السلام في المزمور المائة والثاني والخمسين ، فسَمَّى البلد والأهل فلم يدع موضع مقال ولا اعتلال ، وهو مزمورٌ ينسبُ إلى اشعْيا النبي عليه السلام : لترتاح البوادي وقراها وَلْتَصِرْ أرض قيذار [٢٥٤] مروجاً وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمْدِ الربِّ ويُذيعوا تسابيحه في الجزائر ، لأنَّ الربَّ يجيءُ كالجبَّار وكالرجل المِحْرَب المتلظي للتكبر فهو يزجر ويتجبر ويقتل أعداءه » فلِمَن البوادي يا بني عَمِّي يهديكم اللهُ إلا لهذه الأمة ، أو مَن قِيذَار إلاّ وُلدُ اسماعيل عليه السلام وهم سكان الكهوف الذين يحمدون الرب ويذيعون تسابيحه في الهواجر والأسحار ، ومَن ذا الذي زَجَر وتجبر وقتل أعداءَه غيرُ محمدٍ ﷺ وأمته ؟ فأما معنى قولِه ان الرب يجيءُ ، فقد بيّنَّا انهُ اسمٌ واقعٌ على السادات والعُظماء .

(٢٥٤) قيدار : قبيلة عربية سكنت ربوع تدمر ومنطقة الجنوب الشرقي من دمشق .

نبوات اشعيا على النبي صلى الله عليه وسلم

قالَ في الفَصْلِ الثاني مِنْ كِتابِهِ : إنَّ الرَّبَّ يَتَعَزَّزُ ويَتَعَالَى يَوْمَئِذٍ وَحْدَهُ عَلَى جَميعِ صَنَوْبَرِ (٢٥٥) لُبْنَانَ المُسْتَطِيلَةِ الشَّامِخَةِ ، وَعَلَى جَمِيعِ شَجَرِ البلوط (٢٥٦) التي بأَرْضِ بَيْسَانَ (٢٥٧) وَعلى جَمِيعِ

(٢٥٥) الصنوبر جنس أشجار حرجية من فصيلة الصنوبريات . يشمل أصنافا عديدة يزرع بعضها للتزين، ويستخرج من بعضها روح البطم .

(٢٥٦) شجر كبير غليظ الساق متين الخشب ، ثمرته بيضوية الشكل لها قمع يغطي قاعدتها وقشرة يابسة قاسية تضم بزرة واحدة .

(٢٥٧) قرية فلسطينية تقع الى الجنوب من طبريا وعلى بعد ٦ كيلومترات غربي نهر الأردن والى الجنوب الشرقي من مرج ابن عامر ، وهي المدينة الكنعانية القديمة المعروفة في العهود السحيقة باسم (بيت شان) . وكانت في مختلف العصور التاريخية ، وخاصة العهد الروماني، صلة الوصل بين فلسطين وسورية والبلاد الواقعة شرقي نهر الأردن ، وكانت الأراضي التي حولها كثيرة المستنقعات مما أدى الى انتشار الملاريا ، الا ان هذه المستنقعات اختفت بسبب زراعة عدد وافر من أحراج شجر الكينا فيها . وتغلب مزروعات المنطقة الحارة على الاراضي المحيطة بها وبصورة خاصة أجود انواع الموز ، فالنخيل فالقطن . كما ان لزراعة الحبوب اهميتها في اراضي المدينة . وقد بلغ عدد سكانها في أواخر عهد الانتداب البريطاني البغيض ما يزيد على (٥) آلاف نسمة . وقد سقطت بيد اليهود أعداء العروبة والاسلام في ١٢ أيار (مايو) سنة ١٩٤٨ ، بعد هجوم استمر ٣ ساعات ولم يكن في حوزة مناضليها الذين استماتوا في الدفاع الا بنادق عادية . وقد سمح اليهود لسكانها بالبقاء شرط ان يسلموا أسلحتهم . وبعد شهر واحد أمروهم بالرحيل بالقوة . فلم يبق في المدينة عربي واحد .

الجبال الرَّواسي، وعلى كُلِّ قُلَّةٍ مُنيفةٍ، وعلى كُلِّ قَصْرٍ رَفيعٍ، وعلى كُلِّ جَبَلٍ مَنيعٍ، وعلى جميعِ سُفُنِ تَارْسيسَ، وعلى كُلِّ مَنْظَرَةٍ رائعةٍ بهيَّةٍ، ويُبيدُ الأوثان بَيْدُودَةً ظاهرةً، ويُغيِّبُ في صُدوعِ الصُّخُورِ وأنْفاقِ التراب مِنْ قُدَّامِ خَشْيَةِ اللهِ تعالى ومِنْ بَهاءِ حَمْدِهِ». فوافق إشعْيا داوودَ النبيَّ عليهما السلام في قوله: إنَّ بَهاءَكَ وحَمْدَكَ هُوَ الحَمْدُ الغالِبُ، فكأنَّهُما خَرَجا مِنْ مِشْكاةٍ واحدةٍ، فأمَّا تأويلُ الجبال والشَّجَر فإنَّهُمُ الأكابرُ والأصاغرُ والملوكُ، وَمثلُ ذلك كثير في كُتُبهم.

وقال في الفصل الثالث عن اللهِ تعالى: إني رافع آيةً للأُمَمِ مِنْ بَلَدٍ بعيد، وأصْفِرُ لَهُمْ مِن أقاصي الأرْض صفيراً فيأتُونَ سِراعاً عِجالاً، لا يَمَلُّونَ ولا يَعْثُرُونَ ولا يَنْعَسُونَ ولا يَنامُونَ ولا يَحُلُّونَ مَناطِقَهم، ولا يَنْقَطعُ مَعْقَدُ خفافِهِمْ، سهامُهُمْ مَسْنونَةٌ، وقِسِيُّهُمْ مُوتَرَةٌ، وحَوافِرُ خيلِهِم كالجَلاميد صَلابَةً، وعَجَلُهُمْ مُسْرِعَةٌ مِثْلَ الزَّوابع، وَزَئيرُهُمْ كَزَئيرِ اللُّيوث وكَشِبْلِ الأسد الذي يَزأرُ ويَثِبُ للفَريسَةِ، فلا يَنْجُو منْهُ ناجٍ، ويَرْهَقُهُمْ يومئذ مِثْلَ دَوِيِّ البحر واصْطِكاكِه، وَيَرْمُونَ بأبصارِهمْ إلى الأرض فلا يَرَوْنَ إلاّ النَّكَبات والظُّلُمات، وَيَنْكَسِفُ النُّورُ عَنْ عَجاجِ جُمُوعِهِمْ» فهذا قَوْلُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ، وهؤلاء بنو إسماعيل عليه السلام وأُمَّةُ النبيِّ ﷺ، الذينَ صَفَرَ اللهُ لَهُمْ صَفيراً فجاءُوا مِنْ بُلْدانِهِمْ سِراعاً لا يَمَلُّونَ ولا يسأمُونَ، وكانت سهامُهُمْ مَسْنُونَةً وقِسِيُّهُمْ مُوتَرَةً وحَوافِرُ خُيُولِهِمْ كالصَّفا والجُلْمُود، وَزَئيرُهُمْ كزئير الليوث، وَهُمُ الذينَ افْتَرَسوا الفَرائسَ شَرْقاً وغرْباً فما نجا من أَيْديهم ناجٍ، وصارَتِ الجَبابِرَةُ عِنْدَهُمْ كالنعاج، وثارَ مِنْ زحوفهمْ العَجاج، وضاقَتْ بهم المَناهج والفِجاج.

وقال في الفصل الخامس مُفسِّراً لِما تقدمَ مِنْ نبوَّاته عليه السلام: إن

الأمّةَ التي كانت في الظلمات رأتْ نوراً باهراً ، والذين كانوا في الدُّجى وتحت ظلال الموت سطعَ عليهم الضوءُ ، أكثرتَ منَ التبجح والاحزاب ولم تستكثر الاغتباطَ بهمْ ، فأمّا همْ فإنهمْ فرحوا بينَ يديْكَ كمَنْ يفرحَ يوم الحصاد ، وكالذين يفرحون عند اقتسام الغنائم لأنكَ فككْتَ النير الذي كانَ أذلّهُمْ والعصا التي كانت على أكتافهم وكسرتَ القضيب الذي كان يستعبد بهم مثل كسركَ من كسرت في يوم مدين (٢٥٨) . وذلك شبيه بما وصف اللهُ تعالى عن النبي ﷺ في القرآن وقال أنه يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم (٢٥٩) . فانظروا يهديكم الله وتبينوا من ذا الذي فكّ النير عن ولْد إبراهيم ، وأبطل سلطانَ الأعداء ، وبتر قضيب الأعزة ، وهل أشرق ذلك الضوءُ إلا على أهل تلك البادية الظلماءِ من عبّاد الأوثان من ولْد إسماعيل ؟

وقال في هذا الفصل : « إنهُ ولد لنا مولود ووهب لنا ابنٌ سلطانهُ على

---

(٢٥٨) مدين اسم قرية كانت على البحر الاحمر وكان بها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لبنات شعيب .

وجاء في التوراة ما يفيد ان مدين اسم ولد من نسل ابراهيم الخليل عليه السلام ، ثم أطلق الاسم على القبيلة التي تكونت من ذريته ، وأطلقت على مساكنهم وأرضهم التي كانت تمتد ما بين طور سيناء الى نهر الفرات وقد أرسل الله اليهم شعيبا نبيا ، وقد ورد ذكر مدين في ١٠ مواضع من القرآن الكريم .

(٢٥٩) قال تعالى : الذين يتّبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » (الأعراف : ١٥٧) . ومعنى الاصر في هذه الآية الكريمة : التكاليف الشاقة .

كَتْفه » . ومعنى قوله هذا إن نبوته على كتفه ، فهذا في كتب السريانية التي فسرها مارقوس ، فأما في العبرانية فإنه يقول : إن على كتفه علامة النبوّة، وهي التي يسميها أهل الإسلام خاتم النبوة (٢٦٠). فهذا تصريحٌ بصفة النبي ﷺ وإشارة إلى صورته وشاماته .

---

(٢٦٠) من الألقاب التي ينعت بها الرسول العربي الكريم (ص) : خاتم النبوة، وخاتم الانبياء والمرسلين ، وخاتم النبيين ، أي آخرهم ولا نبي بعده . وقد ورد هذا النعت في موضع واحد من القرآن . قال تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » (الاحزاب : ٤٠) .

ومما تذكره كتب السيرة ان النبي (ص) خرج الى الشام في سن الثانية عشرة في صحبة عمه أبي طالب ، فلما نزل « بصرى » (مدينة في سورية ـ محافظة حوران) بصر به راهب مسيحي يدعى «بحيرا» عرف انه النبي الموعود ، وحذر عمه عليه من اليهود . قال ابن سعد ان بحيرا قال للنبي : يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما اسألك ، فقال رسول الله ، (ص) : لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما ابغضت شيئا بغضهما . قال : فبالله الا اخبرتني عما أسألك عنه ، قال : سلني عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه ، فجعل رسول الله (ص) يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه ، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده ، قال : فقبّل موضع الخاتم وقال لأبي طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال أبو طالب : ابني ، قال : ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون ابوه حيا ، قال فابن أخي : قال فما فعل ابوه ؟ قال : هلك وامه حبلى به ، قال : فما فعلت امه ؟ قال: توفيت قريبا ، قال : صدقت ، ارجع بابن اخيك الى بلده ، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنّه عنتا، فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا ، واعلم أني قد أديت اليك النصيحة . » وكان رجال من يهود قد رأوا رسول الله، (صلعم) وعرفوا صفته، فأرادوا أن يغتالوه فذهبوا الى بحيرا فذاكروه فنهاهم أشد النهي وقال لهم : أتجدون صفته ؟ قالوا: نعم، قال : فما لكم اليه سبيل ، فصدقوه وتركوه ، ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرا بعد ذلك خوفا عليه ... » .

وقال في الفصل العاشر كاشفاً لمّا اشتبه ومبيناً لما اغتاص من نبوّاته : هكذا يقول الرّبّ ، إنك ستأتي من جهة التيمن [261] من بلد بعيد ومن أرض

(٢٦١) قال ياقوت : تيمن بالفتح وآخره نون موضع بين تباله وجرش من مخاليف اليمن ، وتيمن أيضا هضبة حمراء في ديار محارب قرب الربذة ، قال الحكم الخضري خضر محارب :

أبكاك والعين تذري دمعها الجزع بنعف تيمن مصطاف ومرتبع
جرت بها الريح أذيالا وغيّرها مر السنين وأجلت أهلها النجع

ولا أدري أيهما أراد ربيعة بقوله حيث قال :

وأضحت بتيمن أجسادهم يشبّهها من رآها الهشيما

وقال ابن السكيت في قول عروة :

تحن الى سلمى بحرّ بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا
تحلّ بواد من كراء مضلة تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا
وكيف ترجّيها وقد حيل دونها وقد جاورت حيا بتيمن منكرا

قال : تيمن أرض قبل جرش في شق اليمن ثم كراه ، قال : والناس ينشدونها بتيماء منكرا ، وهذا خطأ ، لأن تيماء قبل وادي القرى وهذه المواضع باليمن ، وقيل تيمن أرض بين بلاد بني تميم ونجران، والقولان واحد لأن نجران قرب جرش . قال وعلة الجرمي :

ولما رأيت القوم يدعوا مقاعسا ويقطع مني ثغرة النحر حائر
نجوت نجاء ليس فيه وتيرة كأني عقاب دون تيمن كاسر

وتيمن ذي ظلال واد الى جنب فدك في قول بعضهم ، والصحيح انه بعالية نجد. قال لبيد يذكر البرّاض وفتكه بالرحّال — وهو عروة بن ربيعة بن جعفر بن كلاب — بهذا الموضع وهاجت حرب الفجار :

وابلغ ان عرضت بني كلاب وعامر والخطوب لها موالي
بان الوافد الرحّال أمسى مقيما عند تيمن ذي ظلال

وقال في « قاموس الكتاب المقدس » : « تيمان : اسم عبري معناه اليميني أو الجنوبي، واسم قبيلة تسميت باسم بكر اليفاز بن عيسو والاقليم الذي تسكنه . وواضح ان الاقليم الذي كانت تسكنه واقع في الجزء الشمالي من أدوم . ويسمى أرض أبناء الشرق . ويدعى أيضا « تيمن » وقد اشتهر أهله بالحكمة . وربما كان مكانه الآن طويلان شرقي البتراء » .

البادية ، مسرعاً مقدّاً مثل الزوابع والزعازع من الرياح ، ولقد رأينا منظراً رائعاً هائلاً ظالماً يظلم ، ومنتهباً ينهب ، فأصعدي (٢٦٢) يا جبال عيلم (٢٦٣) وجبال الماهين (٢٦٤) فقد بَطل جميع ما كنت تنافسين وتناقشين عليه ، ومن أجل ذلك اعترت ظهري الرعدة ودير بي كما يُـــدار بالمرأة النفساء ، ولقد ذعرتُ حتى ما أَسمع ، وذهلتُ حتى ما أرى ، وهام قلبي وأذهلتني السماديرُ ، وصار ما كنتُ أُحبهُ مؤنساً أنيفاً وحشة عندي وشيئـاً هائلاً ، فانصُبُوا يا هؤلاء الموائد ، وارفعوا عيونكم أيتُها الرّبايا (٢٦٥) والجواسيسُ ، وكُلُـوا واشربوا ، ولتقم السادة والقادة إلى أترستهم فليدهنوها دهناً لأنّ الربّ قال لي هكذا امْضِ فأقم الرّبيئة على المنظرة ليخبر بما يرى ، فكان الذي رأى راكبين احدهما راكب حمار والآخرُ راكبُ جمل ، وسمع مقالاً كثيراً جمـاً وأسرّ صاحبُ المنظرة إليّ وقال في أُذني : إني أنا الرّب القيُّومُ وأنابالمرصاد والمنظر الأعلى ليلا ونهاراً» ،فبينما أنا كذلك إذ إذ أقبل أحدالراكبين وهويقول

(٢٦٢) في الأصل : فاصفري .

(٢٦٣) جاء في قاموس الكتاب المقدس : عيلام : بلاد فيما وراء دجلة والى الشرق من مملكة بابل ، والى الجنوب من مملكة أشور وميديا ، وعلى الضفة الشمالية لخليج العجم ، والى الغرب من مملكة فارس . وكانت عاصمتها شوشان (أي شوش) . وقد سميت بعيلام نسبة الى عيلام بن سام ، ونسله العيلاميون .. ، وعيلام اليوم جزء مـن دولة ايران وتسمى مقاطعة خوزستان » .

(٢٦٤) أي جبال مادي (ميديا) : قال في قاموس الكتاب المقدس : « مادي كلمة مشتقة من ماداي بن يافث الثالث . وهي اسم بلاد يحدها نهـر أركسيس وبحر قزوين الـى الشمال والشمال الشرقي ، وفرثيـة وهركانية وصحراء فارس من الشرق ، وفارس وسوسيانة مـن الجنوب ، وأشور وارمينية من الغرب ... ومادي الأن جزء من مملكة ايران الحالية » .

(٢٦٥) طـلائع الجيـوش .

هوت هوت بابل وتكسّر جميع آلهتها المنجورة على الأرض، فهذا الذي سمعت من الرب إله إسرائيل العزيز قد أنبأتكم». فهذه أيضاً نبوّةٌ مفصّحةٌ مصرّحةٌ لا يدفعها إلّا مَنْ غشّ نفسه ونبذ رشده ، فكما أنه ليس لقائلٍ عاقلٍ أن يتجاسر ويتجاهل فيقول : إنه قد كان في الدنيا راكب حمار أولى بهذه النبوّة من المسيح عليه السلام ، فكذلك ليس لِذي وَرَعٍ أو لبٍّ أن يقول: إنه قد كان في الدنيا راكب جمل أولى بهذه النبوّة من النبيّ ﷺ ومن أُمّته ، أوَما يَستحي أهل الفهم والعلم من أهل الكتاب أن يجعلوا مثل هذه النبوّة الواضحة الجليلة لِقوم أجلاف جُفاة ؟

ولقد شرح أشعيا النبي ذلك ولم يدعهم في عمى وفتح منهم الآذان الصمّاء فقال : إنّ هكذا يقول الرّب إنك ستأتي من جهة التيمَن . ثم فسّر ذلك فقال : من بلد بعيدٍ ومن أرض البادية » لئلا يدع لمحتجٍّ حجّةً . ثم زاد إلى ذلك فقال : هوتْ آلهة بابل وتكسّرت » ولم يزل في إقليم بابل ملوكٌ يعبدون الأوثان مرةً ثم النيران آخرةً حتى ظهر النبيّ ﷺ فاصطلم عزّهم وهدم بيوت أوثانهم ونيرانهم وأدخلهم في الدين طوعاً وكرهاً . أوَلم يستحيوا أن يقولوا: إن الأنبياءَ المهديين من آل إسحاق عليهم السلام تنبأوا على ملوك بابل وماهين وفارس والخوز (٢٦٦) وأضربوا عن ذكر مثل هذا النبيّ الجليل ، والأمّة الإبراهيمية العظيمة ، والدولة المنصورة ، وإن الله سترها عنهم أو كرهها منهم . فأمّا قوله : رأيتُ ظالماً يظلم، يعني به فارس

---

(٢٦٦) أي بلاد خوزستان ، وكانت تسمى قبل ذلك بلاد العيلاميين . أما اليوم فتعرف باسم « الأهواز » وقد سبق التعريف بها ، ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فليراجع كتاب « الأحواز » لعلي نعمة الحلو، فهو من أجل الكتب في بابه .

والخوز والنبط[٢٦٧] الذين ذكرهم وقـــال لهم : أرجعوا خائبين وتنحّوا

---

(٢٦٧) النبط أو الأنباط ، قبائل بدوية عربية ظهرت لأول مرة فــي القرن السادس قبل الميلاد في الصحراء الواقعة في شرقي ما يسمى اليــوم بالمملكة الاردنية الهاشمية . وفي القرن الرابع كانت لا تزال رحــالة تعيش فــي الخيام وتتكلم العربية ولا تهتم بالزراعة ثم تركت ــ في القرن الثالث ــ حياة الرعي الى حياة الاستقرار وعملت بالزراعــة والتجارة ثم تحولت الى مجتمع منظم في اواخر القرن الثاني قبــل الميــلاد .

وأول تاريخ ثابت للأنباط يرجع الى سنة ٣١٢ ق م حين صدوا هجمات القائد السلوقي انتيغونس الأعور ، أكبر قواد الاسكندر ، الذي احتل سورية وآسيا الصغرى وما بين النهرين سنة ٣١١ ق.م.

اتخذ الانباط مدينة البتراء عاصمة لهـــم لحصانتها ، ووسعوا سلطتهم ومراكزهم الى المنطقة الشمالية المجاورة حيث اعادوا بنـــاء المدن الأدومية والموآبية القديمة .

أشهر ملوكهم (١) الحارث الأول . ورد ذكــره في سفر المكابيين امتنع عن قبول ياسون لدى هربه من اورشليم سنة ١٦٩ ق م. (٢) الحارث الثاني : ذكره المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفس في كلامه عن حصار غزة سنة ٩٦ ق م ، شجع المدينة علــى مقاومة الحصــار اليهودي وقدم لها المساعدة . (٣) الحارث الثالث (نحو ٨٥ ــ ٦٠ ق م) تدخل في حرب الأخوين السلوقيين انطيوخس الثاني عشر وديميتريوس الثــالث . وبسط نفوذه على دمشق ، وحارب اليهود ، وحــاول أن يوقف امتداد النفوذ السياسي الروماني على انــه رحب بالاتصــال الثقافي بالحضارة الرومانية اليونانية . وهو أول من صك النقــود النبطية التي اقتبس لها النموذج المعروف عند البطالمة . (٤) الحارث الرابع وهو أشهر ملوك النبط ، تابع نشر الحضارة الرومانية في مملكته التي بلغت ذروتها في عهده ، ساعد اوغسطس في معركة مع اليهود سنة ٤ ق م . وقد تزوج هيرودس أنتيباس من ابنه الحارث ثم طلقها مفضلا عليها الراقصة هيروديا ، فحاربه الحارث وهزمه ...

←

مدحورين مسلوبين إلى بلدانكم . وقال في هذا الفصل : إنكم ستبيتون مساءً في الغيضة التي على طريق دورنيم [٢٦٨]. فتلقوا العطاش بالماء يا سكّان التيمن واستقبلوا بالأطعمة القوم المبدّدين المفرّقين لأن السيف بدّدهم ومن الشّفار المشحوذة والقسيّ الموترة والحرب العوان المستعرة كان تشرّدهم » .

فمن هؤلاء العطاش الذين أقبلوا من جهة التيمن الذين أمر الله عزّ وجل أهل بلدانهم بتلقيهم ؟ أو من هؤلاء الذين أجلتهم الحروب أو شرّدت بهم ؟ ومن الذين أمرَ الله باستقبالهم بالمياه والمطاعم غير العرب عند نهوضها لمحاربة الأمم المحيطة بهم الحائلة بينهم وبين المرعى والماء من الفرس والروم وغيرهم ؟

وقال في الفصل الحادي عشر : إنا سمعنا من أطراف الأرض مزموراً

→

وكانت مملكة الأنباط تضم في أقصى اتساعها جنوب فلسطين وشرقي الأردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمالي الجزيرة العربية . وكانت حضارة الأنباط عربية في لغتها ، آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ، ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية . قضى على الأنباط الامبراطور ترايانس الروماني .

(٢٦٨) في نبوءة اشعيا (الفصل ٢١) « بيتوا في غاب العرب يا قوافل الددانيين » . و « ددان » كما جاء في قاموس الكتاب المقدس : اسم لشعب كوشي ، وربما كان سكنهم في وقت ما بالقرب من رعمة في جنوب الجزيرة العربية ، وهم من نسل ابراهيم من قطورة زوجته بعد موت سارة . وكان الددانيون شعبا تجاريا له مكانة مرموقة في تجارة العالم القديم . وكانوا من بلاد العرب ويقطنون جنوبي الأدوميين ، وكانت طرق القوافل من الجنوب ومن وسط الجزيرة العربية تمر ببلادهم . ولا يزال الاسم باقيا في ديدان وهي مكان يقع الى الجنوب الغربي من «تيماء» . وكانت ددان التي تقع بقرب تيماء مركزا للتجارة في الجزيرة العربية. واسمها الحديث « العلا » في وادي القرى في شمال الحجاز ، وقد كانت محطا للقوافل كما كانت مركزا للتجارة الآتية من اليمن والهند الى البحر الابيض المتوسط » .

وترتيلاً للبرّ والخير وهو يقول: إن لي سرّاً إنّ لي سرّاً، ويقول : يا ويحيُ فجَرَ الفجّار فجَرَ الفجّار فجوراً،فهأنذا محدقٌ بكم يا سكان الأرض الرُّعب والمهواة والفخّ ، فمن نجا من الحرب وقــع في المهواة ، ومن صعد من المهواة اشتمل عليه الفخّ لأن أبواب السماءِ تفتّحتْ ، وتزعزعتْ أساسات الارض وارتاعت » . فهذا في تفسير مارقوس (٢٦٩) . فأمــا في العبرانيّ الذي هو الأصل فإنه يقول: « إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد » ومكة هي في أطراف الارض وعلى ساحل البحر ، فليعلموا متى وفي أيّ دهر نزل بأهل الإشراك والكفر من الرّوعــات والنقم والنكبات مثل ماعمّهم ونزل بهم في هذه الدولة .

وقال في الفصل السادس عشر مفسراً لما تقدم في النبوّات ومبكتاً لأهل المحك والغوايات : لتفرح أهل البــادية العطشى ولتبتهج البراري والفلوات ولتخرج نوراً كنور الشسلبذ (٢٧٠) ولتسترّ وتزه مثل الوعل لأنهــا ستعطى بأحمد محاسن لبنان، وكمثل حسن الدّساكر والرّياض ، وسيرون جلال الله عزّ وجلّ وبهاءَ إلهنا » أما ترون يهديكم الله مــاذا كشف لــكم النبي عليه السلام ونطق به الوحي من ذكر البوادي والقفار ، وما بشّرها الله تعــالى به من الجدّةِ والنضرةِ والكرامات المعدّة لها بأحمد عليه السلام . فهل يختلج شكّ بعد التسمية ووصف البادية المعطشة ؟

وقال في الفصل التاسع عشر ، فزاد إبانةً وإيضاحاً : هتف هاتفٌ في البدو وقال خلوا الطريق للرّبّ ، وسهلوا لإلهنا السّبيل في القفر ، فستمتلىء

---

(٣٦٩) كذا ورد في مخطوطات الكتاب ، وقد ذكر كذلك في الصفحــات السابقة .

(٢٧٠) كذا بالأصل . ولم أجد هذه الكلمة في نبوءة اشعيا (الفصل الخامس والثلاثون) وهو « الفصل السادس عشر » عند المؤلف كمــا ورد في بدايتــه .

الأودية كلها مياهاً وتفيض فيضاً ، وتنخفض الجبال والروابي انخفاضاً، وتصير الآكام دكداكاً والأرض الوعرة مذللةً ملساءَ ، وتظهر كرامة الرّب ويراه كلّ أحدٍ من أجل أن الرّب يقول ذلك » . فهل تعرفون يهديكم الله أمـةً دعاها الله من البدو والقفار ، وسهّـل لها الوعورة، وأخصب الجناب، وأمرع الجدوب ، وأترع لعطاشهم الاودية إتراعاً ، وأذل لها الجبابرة والاملاك الذين شبههم بالروابي والجبال ، إلا هذه الأمة التي صارت دجلة بين أيديهم كالشراك المذلل ، فإنهم لما انتهوا إليها قالوا بأجمعهم : إن الذي حفظنا في البر هو الذي يحفظنا في البحر ، ثم خاضوها خوضاً ووراءَهـا كسرى ومرازبته (٢٧١) وأجناده فلم يحفلوا به ولا نـكلوا عنه وهم عراةٌ حفاةٌ إنمـا يوقون رؤوسهم بالانساع .

وقال في هذا الفصل : إن الرب الإله سيظهر بالعزّ وذراعـه بالحول والقوة ، أجره معهُ ، وعمله أمامهُ ، كالراعي الذي يرعى قطيعهُ ويجمع غنمه بذراعه ويحملهم في حجره ويغذو الرواضع منهم بنفسه ، وقد بينّـا في ما مضى، وفي كتابي الذي في « الرد على أصناف النصارى » أن اسم الله واسم الرب واقعان على الناس أيضاً ، ومصداق ذلك في هذه النبوة ، فقد أخبر أن الرب الإله هو إنسانٌ أجرُه معهُ وعمله أمامهُ . وإنما عني به النبي ﷺ ،فهو الذي كان أجره معه ، وهو الذي عجل للمجاهدين في سبيل الله نوافله وفضله بالعز والغلبة الذين كانا معه ، وقوله أنهُ كالراعي الذي يرعى قطيعه ، فإنهُ شبه ذلك برأفة النبي ﷺ ، وتحنـّنـِه على أهل دينه ، فإنّ اللهَ عزّ وجلّ يقـُولُ فيه ﷺ : « لـَقـَدْ جاءَكـُمْ رَسُولٌ من أنـْفـُسـِكـُمْ عَزيزٌ عَلـَيـْهِ ما عَنـَدْتـُمْ (٢٧٢) حَرِيصٌ عَلـَيـْكـُمْ بالمـُؤْمِنينَ رَؤُوفٌ رحيمٌ » وقـال

---

(٢٧١) يقصد حماة الحدود ، أو حكام الثغور .

(٢٧٢) كذا بالأصل . والصواب : « عنتّم » . سورة التوبة ، الآية ١٢٨

عَزّ وجَلّ لموسى عليه السلام : إنّي جَاعِلُكَ إلهاً لِفرْعَوْنَ (٢٧٣) وقالَ في التّوْرَاةِ : انّ أبناءَ اللهِ عَزّ وَجَلّ نَظَرُوا إلى بَنَاتِ النّاس وَرَأوْهُنّ رُوقةً حِساناً فاتخذوهنّ » . وقال داوودُ النبيُّ ﷺ : قال الربُّ لربِّي . ففي هذا تبيانٌ أنّ إسمَي الإله والربّ كانا يقعان على الإنسان .

وقال أشعْيا عليه السلام في هذا الفصل : مَن ذا الذي نَبّهه البرّ مِن المشرق ودَعاهُ إلى موطىءِ قدَمِه ليُسلِمَ إليهِ الأمَم ويُذْهلَ مِنه الملوك ويَجعلَ سيوفهُ في عدد الثرى والبَرى ، وقسيّهُ في عددِ الحزَمِ المنثورةِ ، فهُوَ يغلبهم ويَضربُ وجوهَهمْ ثمّ يحْدِثُ سِلماً ولا يَطأ برجلِه سفراً » ، وهذا شبيهٌ بما قال اللهُ عزّ وجلّ في القرآن . فأمّا قوله : « مَن ذا الذي نَبّه البرّ من المشرق ، فإن أرض الحجاز والعراق ومـا والاها عند أهل الشام مشرق ، والشام عند أهل بَرْقة وأفريقية مشرق ، وأرض اليمن والحجاز عند الحكماء من التيمن ، والمدعُوُّ إلى موطىءِ قدَم خليل الله هو النبيُّ ﷺ وإليه أسلم اللهُ الأمم وبه وبّخ الملوك فذهلوا ، وهو الذي لا تُعدُّ رُماتهُ وسيّافوهُ ، وبه ضربَ اللهُ وجُوه الأمم وخذلهُمْ ثم أعقبهم الايمان والإسلام والسلم كما قال اللهُ عزّ وجلّ على لسان اشعيا النبيّ عليه السلام .

وقال في الفصل العشرين : يا آل ابراهيم خليلي الذي قوّيتك ، دعوتك من أقاصي الأرض ومن نجُودها وعواليها ، ناديتك وقلتُ لك إنك عبدي وأنا اجتبيتكَ ولم أستر ذلك ، فلا تخف لأني معك ولا ترهب فها أنا إلهك ، أيدتك ثم أعنتك ، وبيميني العزيزة البرّة مهّدتُ لك ، ولذلك يبهتُ ويخزى المستطيلون عليك ، ويضمحلُّ ويتلاشى الذين يمارونك ويشاقونك ، ويبيدُ القومُ المنازعُون لك ، تطلبهم فلا تحسّ منهم أثراً لأنهم يبطلون ويصيرون كالنسيءِ المنسيّ أمامك ، لأني أنا الربّ قوّيت يمينك ، قلت لك لا تخف فإني أنا عونك ومخلصك هو قدُّوس اسرائيل ، يقول الله الرّبّ أنا جعلتك مثل الجرجر الحديد الذي يدقُّ ما يأتي عليه دقّاً ويسحقه سحقاً ، وكذلك

(٢٧٣) هذه الجملة ليست آية من آي الكتاب المبين .

تفعل أنت أيضاً ، تدوس الجبال وتدقها وتجعل المدائن والتلال هشيماً تذروه العواصف وتلوي به هوج الرّياح ، وتبتهج أنت حينئذ وترتاح بالرّبّ وتكون محمّداً بقدوس اسرائيل » . فهذه نبوةٌ ناطقـــةٌ وقولٌ فصيحٌ غير أعجم ومعربٌ غير طمطم ، والمخاطب بـه من آل ابراهيم وولد اسمعيل المشبهين بالحجر المدق (٢٧٤) والحديد المسحق (٢٧٤) الذي يدق الجبال باسم إله محمّدٍ الذي سماه وقال انه يكون محمداً بالله جل وعز ، فقد وضح اليقين وانكشف الغطاء ، وإن شغب شاغبٌ فأكثر مـــا يمكنه أن يقول أن تفسير اللفظة السريانية هو أن يكون محموداً وليس بمحمد ، ومن عرف اللغة وفهم نحوها لم يخالفنا في أن معنى محمود ومحمد شيءٌ واحدٌ .

وقال في هذا الفصل: إن المساكين والضعفاءَ يستسقون ماءً ولا ماءَ لهم، فقد جفت ألسنتهم من الظماءِ ، وأنا الربُّ أُجيب حينئذٍ دعوتهم ولن أُهملهم، بل أفجّر لهم في الجبال والأنهار ، وأجري بين القفار العيون ، وأحدث في البدو آجاماً ، وأجري في الأرض العطشى مـــاءً معيناً ، وأنبت في القفار البلاقع الصنوبر والآس والزيتون ، وأغرس في القاع الصفصف السرو البهية ليروها جميعاً ويعلموا ويتدبروا ثم يفهموا معاً أن يد الله فعلت ذلك وقدوس اسرائيل ابتدعه » . فأين لكم يا بني عمي المحيد عن هـــذه النبوّة الواضحة الناطقة ، وما عسيتم تقولون فيها ، وقد سمى البلاد ووصف المعاطش والقفار والبلاقع وما فجر فيها من العيون وأجرى من الأنهار وغرس فيهـــا من أنواع الأشجار وسمى العطاش المساكين من أهل البوادي والحجاز، وأخبر أن يد الله عز وجل فعلت ذلك ؟ . فليس لمن دفع هذه النبوة وأنكرهـــا من دينٍ ولا حياءٍ ولا خلاقٍ ، فقد سمى النبي ﷺ في النبوّة التي قبلها ، فماذا بقي أيها الشاكّون ، وما العذر المقبول المنجي لمن تصامّ وتعامى عنها ؟

(٢٧٤) كـذا بالأصل .

وقال في الفصل الحادي والعشرين : « لتسبحني وتحمدني حيوانات البر من بنات آوى حتى النعائم ، لأني أظهرتُ المـاءَ في البدو وأجريت الأنهار في بلد أشيمون (٢٧٥) لتشرب منها أمتي المصطفاة . فلتشرب منه أمتي التي اصطفيتها » . فمن كان شاكّـًا فيما تقدم من النبوّات فلا عذر له إن جهل أو تجاهل أن النعائم لا تكون إلا بالبادية ، وإنما ذكر الثعالب والنعائم مثلاً ضربهُ لسكان البَوادي والفلوات ، فمن محك فيه وحاول تلبيسه فقد هلك .

وقال في الفصل الثاني والعشرين عن الله عزّ وجل : « أنا الرب ولا إله غيري ، أنا الذي لا يخفى عليه خافية ، أنا أخبر العباد بمـا لم يكن قبل أن يكون ، وأكشف لهم الحوادث والغيوب ، وأتم مشيئتي كلهـا فأدعو من البدو طائراً ومن البلد البعيد الشاسع» . هو النبي ﷺ ، وهو الذي ارتضاه الله لاجتهاده فيما أرضاه (٢٧٦) وأحبه . وإن بحثوا وتشاغبوا ، فليعلمونا أين هذا البدو والفلوات التي وصفها الله عز وجل ، ومن ذا الذي دعـاه فعمل بمرضاته .

وقال في الفصل الثالث والعشرين يخاطب الناس عن النبي ﷺ : اسمعي أيتها الجزائر وتفهّمي يا أيتها الأمم ، إن الربّ أهاب بي من بعيدٍ ، وذكر اسمي وأنا في الرحم، وجعل لساني كالسيف الصارم وأنا في البطن، وحاطني بظل يمينه وجعلني في كنانته كالسهم المختار ، وخرنني لسرِّه وقال لي إنك

(٢٧٥) في نبوءة اشعيا (الفصل الثالث والأربعون) القفر . قال : يمجدني وحش الصحراء بنات آوى وبنات النعام لأني أجعل مياها في البرية وأنهارا في القفر لأسقي شعبي المختار .

(٢٧٦) كذا في الأصل ولعله ارتضاه .

عبدي ، فصرفي وعدلي قدام الرب حقاً ، وأعمالي بين يدي إلهي ، وصرت محمداً عند الرب ، وبإلهي حولي وقوتي » ، فإن أنكر منكرٌ اسم محمدٍ في هذا الباب فليكن محمودا ، فلن يجد إلى غير ذلك من الدعاوي سبيلاً . وهو الذي جعل الله لسانه كالسيف ، وهو العربي المبين الذي خبأه في كنانتـه لسره وتدبيره الذي قد أظهره ، وهو الذي يقول في أمته صباح مساء : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال في الفصل السادس والعشرين ما يزيد بنبواته المتقدمة إنارةً وتأكيداً وتمهيداً ، وخاطب بها هاجر عليها السلام : سبحي ايتها النزور الرقوب ، واغتبطي بالحمد ايتها العاقر ، فقد زاد وُلد الفارغة المَجْفِيّةِ على وُلْدِ المَشْغُولَةِ الحَظِيةِ ، وقال لها الرّبُّ: أوْسِعي مَوَاضعَ خيامِكِ ومُدّي ستُورَ مَضَارِبِكِ ، لا تَنْفَسي ولا تَضْنَى بَلْ طَوِّلِي أَطْنَابكِ وَاسْتَوْثِقِي مِنْ أَوْتادِكِ مِنْ أَجْلِ أنّكِ تَتَبسّطينَ وتَنْتَشِرينَ في الأرْضِ يَميناً وَشِمَالاً ، وَتَرِثُ ذُرِّيّتُكِ الأمَمَ وَيَسْكُنُونَ القُرَى المُعَطّلَةَ اليَبَاب » فَلَيْتَ شِعْري ما عَساهُمْ يَقُولُونَ في هذهِ ،وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عزّ وَجَلّ سَارَةَ وَهاجَرَ جَميعـاً عَلَيْهِما السلامُ وَوَصَفَ عَلَيْهِ السلامُ خيامَ وُلْدِ هاجَرَ ، فإلى مَنْ تُضافُ هذه وبِمَنْ تليقُ إلاّ بوُلْدِ هاجَرَ وَذرّيّتها ؟ أَوْ لمنْ الخيامُ وَالطّنابُ إلا لوُلدِها ؟ لعلّكُمْ تقُولون انّهُ عنى بهذا الحبْشان والتّرْك فانهم أيضاً أصْحابُ عمدٍ وخيامٍ، وإنَّ منْ تعامى عنْ هذه وما قبلها لعمٍ قليلُ النظر لنفسهِ مُجاهرٌ بمعْصية ربهِ ، وما تركهم اللهُ عزّ وجلّ في شُبْهةٍ بلْ كرّر وأظْهر وأبان .

وقال أيْضاً عن الله عزّ وجلّ في الفصْل الثامن والعشرين : إنيأقْسمْتُ بنفْسي وأخرَجْتُ منْ فمي كلمة الحقّ التي لاخلْف لها ولا تبْديل ، انـهُ تخرُّ لي كلُّ ركبةٍ ويقسمُ بي كلُّ لسانٍ ، ويقُولون معـاً ان النعْمة منْ عنْد

الرّبّ » . فمن هذه الأمة التي تقسم باسم الله ؟ ومن ذا الذي يخرّ على الركب لاسم الفرد الواحد ويحدث بنعم الله صباحاً ومساءً ويفرّدُه بالدعاءِ والابتهال غير هذه الأمة ؟ فأما جماعة النصارى فإنهم ينسبون النعم والأفضال إلى المسيح ويقولون في افتتاح الصلوات على المذابح : لتتمّ علينا نعمُ يسوع المسيح.

وتنبأ اشعيا في هذا الفصل بما كشف بهِ أسرار النبوة المتقدّمة ، وبكت بهِ اهل العمى والسفاهة ، فلم يترك لمغالطٍ حجةً ولا لمعاند مخرجاً، وخاطب أيضاً هاجر فقال : أيتها المنغمسة المتغلغلة في الهُموم التي لم تنل حظوةً ولا سلوّاً، إني جاعلٌ حجرك بلّوراً، ومُوثق أساساتك بالحجر الأسماجوني[٢٧٧]، ومُزينٌ حيطانك بالحجر اللازورد ، وأبوابك بحجر البلق ، ومُزخرفٌ حدود بيتك بالأحجار النفيسة ، ويعرفني هنالك جميعُ وُلدك ولا يُنكرونني، وأعمّ أبناءك بالسلم وتكونين مزيّنةً بالصلاح والبرّ ، فتنحّي عن الأذى والمكاره لأنك آمنةٌ منها ، فانحرفي عن الانكسار والانخذال فلن يقرباك ، ومن انبعث من بين يديّ فإليك يكون وفيك حلوله، وتصيرين وزراً وملجأ لقاطنيك وسُكانك » . فتدبّروا يهديكم الله هذه فإنكم فهمون جدلون ، وانظروا لأنفسكم فانكم عندٌ مسؤولون ، هل تعرفون المذللة المتغلغلة في الهموم إلاّ هاجر ؟ وهل تقع هذه المخاطبة إلا عليها وعلى ولدها ؟ فأيُّ شيء أرفع وأعظم من شهادة الله لهم أنهم جميعاً يعرفونهُ ولا يجهلونهُ ، وأنه صيّر بلدهم وزراً وملجأً للناس أي حرماً وأمناً ، وبنيت مكة بالفسيفساءِ ونفائس الأحجار وحُمل إليها تيجان الملوك . فليسمع مقالي ونصحي من كان ذا أُذنين ، وليتدبّر هذه الشهادات والمقاييس ، وليخل بكتابي هذا وبكتاب الرّد على النصارى ، ويسترشد الله ويعمل لنفسه في فكاكها قبل أن يحلّ به هلاكها .

---

(٢٧٧) كذا بالأصل . وفي نبوءة اشعيا (الفصل الرابع والخمسون) : الاثمد . والاثمد حجر يكتحل به يعرفه علماء الكيمياء باسم «أنتيموان» .

وتنبأ في هذا الفصل (٢٧٨) ونادى وهتف فقال : « يا معشر العطاش توجهوا الى الماء والورود ومن ليس له فضة فليذهب ويمتار ويستسقي ويأكل من الخمر واللبن بلا فضة ولا ثمن » . فهذا من نبوّة أشعيا دالة على ما أنعم الله به على ولد هاجر من أمة النبي ﷺ ، وعلى أنهم صائرون الى ما وعدهم الله تعالى به في الآخرة من أنهارٍ من خمرٍ وأنهارٍ من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمرة لذة للشاربين ، فانظروا في هذه المشاكلة والموافقة التي بين النبوتين جميعاً .

وقال في هذا الفصل: إني أقمتك شاهدا للشعوب، ومدبرا وسلطاناً للأمم، لتدعو الأمم الذين لم تعرفهم ، وتأتيك الأمم الذين لم يعرفوك هرولةً وشدّاً، من أجل الرب إلهك قدوس اسرائيل الذي أحمدك ، فاطلبوا ما عند الرب، فإذا عرفتموه فاستجيبوا له، وإذا قرب منكم فليرجع الخاطىء عن خطيئته، والفاجر عن سبيله ، وليرجع إليّ لأرحمه ولينب الى إلهنا الذي عمت رحمته وفضله » . فمن تدبّر هذه النبوّة وكرر النظر فيها لم يحتج الى غيرها ، فقد سمى النبي ﷺ باسمه وقال : إن الله جعلك محمداً ، فإن آثر المخالف أن يقول ليس بمحمد بل محمود وافقناه فيه لأن معناهما معنى واحدٌ . وقد أتته الأمم هرولةً وشدا وجعله الله مدبرا للأمم وداعياً إلى الله كما قال اشعيا ، وسراجاً منيرا .

وقال في الفصل الثامن والعشرين : ان الله تعالى نظر ولم ير عدلاً وأنكر ذلك ، ورأى انه ليس أحدٌ يعين على الحق فعجب الرب منه ، وبعث وليّه فأنقذه بذراعه ومهد له بفضله ، فاستلأم العفاف كالدرع ووضع على رأسه سنور الإعانة والفلح ، ولبس لباس الخلاص لينتقم من المبغضين له والمعادين و يجازي أهل الجزائر جزاءَهم أجمعين ليتقي اسم الله في مغارب الارض وليخشع

---

(٢٧٨) أي « الفصل الثامن والعشرون » وفق ما ذكره المؤلف ، وهو في الطبعة العربية للكتاب المقدس « الفصل الرابع والخمسون » . وكلام المؤلف ابتداء من هذه الجملة هو في الطبعة العربية من الكتاب المقدس بداية الفصل الخامس والخمسون .

في مشارقها لجلاله » . وقد استلأم النبي ﷺ البر كالدرع، ووضع على رأسه سنور الإنقاذ والفلح ، ولبس لباس الخلاص والانتقام من أعداء الله، وجازى أهل الجزائر، وأظهر اسم الله في مشارق الأرض ومغاربها وخضع له أهلها. فأين المحيد عنه ؟ وكيف المدفع لهذه النبوّات التي قد تظاهرت عليه ؟ وأين المهرب من الله لمن عانده وتصام عن وحيه وندائه ؟

وتنبأ في هذا الفصل بما لا يردّه إلا الخاسرون ، ولا يجهله إلا الأجهلون الأعمهون ، فإنه ذكر أيضاً هاجر مخاطباً لها ولبلاد ولدها مكة وقال : قومي وأزهري مصباحك فقد دنا وقتك ، وكرامة الله طالعة عليك ، فقد تخللت الارض الظلام وغطّى على الأمم الضباب ، فالرب يشرق عليك إشراقاً ، وتظهر كرامته عليك ، وتسير الأمم الى نورك والملوك الى ضوء طلوعك ، ارفعي بصرك الى ما حولك وتأملي ، فإنهم سيجتمعون كلهم إليك ويحجونك ويأتيك ولدك من بلد بعيد ، وتتربى بناتك على الأرائك والسرر ، ويستروح قلبك من أجل أنهُ يميل إليك البحر ، وتحج إليك عساكر الأمم حتى تعمرك الإبل المربلة ، وتضيق ارضك عن القطرات التي تجتمع إليك ، ويساق إليك كباش مدين وكباش أعفا (٢٧٩) وتأتيك أهل سبأ ويحدثون بنعم الله ويمجدونهُ ، وتسير إليك أغنام

---

(٢٧٩) كذا بالأصل . وفي نبوءة اشعيا « الفصل الستون » من الطبعة العربية للكتاب المقدس : عيفة .

قال في قاموس الكتاب المقدس : « اسم عبري ومعناه ظلمة ، وهو ابن مديان بن ابراهيم ، ونسله من بعده ، حتى اختلط الاسم بين الرجل وبين القبيلة . واشتهرت القبيلة بالتجارة ، وكانت تسكن المناطق الشمالية في شبه الجزيرة العربية » .

قيذار (٢٨٠) كلها وتخدمك رخالات (٢٨١) نباوت (٢٨٢) ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني، وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمداً ».

فهذه أيضاً، يهديكم الله، نبوةٌ قد ظهرت وآيةٌ قد برّت وصدقت، وسارت الأمم إلى نور الدين، ومالت إلى هذه الأمة ذخائر البحر، وحجت إلى مكة أرسال الأمم، وعمر أهلها الإبل والقطرات عما يردها من الرواحل والجمالات، وحجّ إليها أهل اليمن وأهل سبأ، وأشهر من ذلك وألزم لأذان المخالفين، قيذار ونباوت، هما من ابناءِ اسماعيل عليه السلام، وقد احتوشوها وصاروا سادتها وخدامها، وجدد لبيت محمدته حمداً محمد ﷺ. فإن لم يكن ذلك كذلك، فليسموا لنا غير النبي ﷺ وغير مكة، وليعرضوا صفتهُ على هذه الصفات، ويقيسوا احواله إلى هذه النبوات، لينتهك الستر ويَبْدوَ اليقينُ.

وقال في هذا الفصل: هكذا يقولُ الربُّ انهُ سيترجاني أهلُ الجزائرِ

---

(٢٨٠) قال في قاموس الكتاب المقدس: « قيذار: اسم سامي معناه قدير أو أسود، وهو ابن اسماعيل الثاني. وهو أب لأشهر قبائل العرب وتسمى بلادهم أيضا قيذار. وكانوا في الغالب رعاة متبدين يعيشون في خيام سود وهم البدو. الا أن بعضهم كانوا متمدنين يسكنون المدن وهم الحضر، وكانوا أصحاب مواش كثيرة، وهم بارعون في الحرب ولاسيما في الرمي بالقوس وكان يحاربهم الاشوريون. وقد نكل بهم نبوخذ نصر حين زحف بعسكره الى بلادهم وخربها ... »

(٢٨١) الرخل (بالكسر) والرخل (بالفتح) والرخلة: الانثى من أولاد الضأن. والجمع أرخل ورخال (بالضم) ورخال (بالكسر) ورخلان ورخلة ورخلة.

(٢٨٢) كذا بالأصل، وفي نبوءة أشعيا (الفصل الستون): نبايوت. قال في قاموس الكتاب المقدس: « نبايوت: الابن الأكبر لاسماعيل، واليه تنسب احدى القبائل العربية التي وصفت بكثرة مواشيها. وهي ليست دولة الأنباط التي ازدهرت في القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية وفي شرقي الأردن ... ».

ومَن في سفنِ تارسيس كما فعلوا من قبلُ ، ويُوردون عليكِ أبناءكِ من بلدٍ بعيد ومعهم فضّتُهم وذهبُهم من أجل اسم الربّ إلهكِ قدّوس اسرائيل الذي أحمدكِ وأكرمكِ ، ويَبْني أبناءُ الغُرَباءِ سُورَكِ وملوكهم يخدمونكِ ، وتَنْفتحُ أبوابُكِ في كل وقتٍ وأوانٍ من آناء الليلِ والنهار فلا تنغلقُ ، ويدخل إليكِ أرسالُ الأممِ ويُقادُ إليكِ ملوكهم أسرى لأن كل أُمةٍ ومملكة لا تخضع لكِ تتبدّد ستورها وتصطَلم الشعوبُ بالسيفِ اصطلاماً ، وتأتيكِ الكرامةُ من صنوبَرَ لبنان البهيّ ومن أهلَها ليُبخّرَ به بيتي ويعظّمَ به موضع قدمي ومُستقرّ كرامتي ، وتأتيكِ أبناءُ القوم الذين كانوا يُذلّونكِ ، ويُقبّل آثارَ أقدامكِ جميعُ من كان يؤذيكِ ويضطهدُكِ ، وأجعلكِ كرامةً إلى الأبد وغبْطةَ وفرحاً إلى دهْرِ الداهرين ، وسترضعين ألبانَ الشعوبِ ، وستصيبين من غنائم الملوكِ ، وتتمزّزين من غاراتِكِ عليهم ، وتعلمين حينئذ أني أنا الرب مخلّصُكِ ، لأني أُعطيكِ بدل النحاس ذهباً ، وبدل الحديد فضةً ، وبدل الخشب نحاساً ، وبدل الحجارة حديداً ، وأجعل السلامة مُدبّركِ والصلاح والبرّ سلطانكِ ، ويكون الربُّ نوركِ ومصباحَكِ إلى الأبد » . فافهموا يا بني عمّي النبوّة وانظروا من ذا الذي بَنَى الغرباءُ سُورهُ وخدمهُ الأعزّةُ وسيق إليهِ الملوكُ مصفّدين مأسورين ، ومن ذا الذي أباد وأهلك بالسيف كلّ مملكة وملة لم تخضع له ، وهل تعلمون لقدَمِ خليلِ الله مستقرّاً مذكوراً غير مكة التي يحجها خاشعين ويرْفُلون إلى بابها ساجدين ويأتونها من أقاصي الدنيا مُلبّين ؟

وقال في الفصل الرابع والعشرين يُخاطبُ النبيّ ﷺ أيضاً : هكذا يقول الربُّ قدّوس اسرائيل للذي كانت نفسهُ مُستردَلةً مُهانةً ، ولِمَن كانت الأممُ تستخفُّ به وأتباع السلطان يهينونه ، ستقومُ له الملوكُ إذا رأوه وتسجد له السلاطينُ لأن وعْدَ الله حقٌّ ، وهو قدّوسُ اسرائيل الذي انتخبك واختاركَ ، وهو الذي يقول أجبتك عند الرضى، ولدى الشدائد

أعنتك واجتبيتك وجعلتك ميثاقاً للشعوب ونوراً للأمم لتطمئن بك الأرضُ، وترثُ تواريث الخرابات وتقول للأسرى اخرجوا وانفكوا، والمحبسين أظهروا وانطلقوا ، وارعوا ماشيتكم حينئذ في الطرقات لأن مراعيكم تكون موجودةٌ في كل جهة وسبيل ، لا يجوعون ولا يعطشون ولا تضربهم السمائم والشموس ، لأن رَحمانهم معهم وهو يوردهم مشارع المياه وينابيعها ، ويجعل الجبال كلها طرقاً وفجاجاً لهم ، ويستغنون لذلك عن المسالك والطرقــات ، ويتوافى القوم من بلد شاسع بعيد بعضٌ من جهة الجربياء وبعضٌ من البحر وبعضٌ من بحر سنيم (٢٨٣) فسبّحي ايتها السماء ، واهتزي ايتها الأرض فرحاً ، وابتهجي أيتها الجبالُ بالحمد ، فقد تلاقى الربّ شعْبَه ورحم المسـاكين من خلقه » . وهذا إفصـــاح وليس بجمجمة وتصريحٌ وليس بدمدمة ، ونبوّةٌ واضحةٌ مؤكدة لِما تقدَّم قبلها من النبوة . فلَعمري ما وَرِث الخَرابات ولا فكّ الأسرى من الحبوس والقد (٢٨٤) ولا رعى في الطرقات بعد الحصـار والجهد الذي كانت فيه العرب من قبل كسرى وقيصر ، ولا صُيّـرَت الجبالُ طرقاً وفجاجاً إلاّ لهذا النبي وأمتهِ التي ذكرها اشعيا النبي عليه السلام انها كانت مسترذلةً مهانةً ، فأما معنى قوله « قدوس اسرائيل » فانه لما خاطب بني اسرائيل سمى الله بالاسم الذي كان بنو اسرائيل يسمونهُ بهِ .

وقال في هذا الفصل وخاطب في بعضه هـاجر ومكة : أنا رسمتك على كفي فأسوارك أمامي في كل وقت ، وسيأتيك وُلدُك سراعاً ويخرج عنك من أراد ان يتحيفك ويخَرّبك ، فارفعي بصرك إلى ما فوقك ، وانظري فإنهم يأتونك ويجتمعون عن آخرهم إليك ، يقول اللهُ قَسَماً باسمهِ ، إني أنا الحي ،

---

(٢٨٣) في نبوءة اشعيا (الفصل التاسع والأربعون) : « هؤلاء من بعيد يأتون ، وهؤلاء من الشمال والغرب، وهؤلاء من أرض السينيين » .
(٢٨٤) كذا في الأصل ولعله القيد .

لَتَلْبسنهُم مثل الحلة ، ولَتتزينين بالأكاليل مثل العروس ، ولَتضيقَنّ عنك قفارُك وخراباتك والأرضُ التي آلجأوك إليها وضَغَطوك فيها من كثرة سكانها والرّاغبين فيها، وليهربنّ منك من كان يناويك ويهتضمك، وليقولنّ لك وُلْدُ عقمك أيتها النزورُ الرّقوبُ انهُ قد ضاقت بنـا البلادُ فتزحزحوا وانفرجوا فيها لنتسع في فيافيهـا ، وستُحدثين نفسك حينئذ فتقولين : من رزقني هؤلاء كلهم وها أنا وحيدةٌ فريدةٌ نزورٌ رَقوبٌ ، وهـا أنا مُسيبةٌ والهةٌ مُسترقةٌ ، فمن رَبّى لي هؤلاء ، ومن تكفل لي بهم ؟ » فأي تصريح وإبانة وتنوير أبْين وأنور من هذا ، فقد أقسم اللهُ بنفسه ، وبرّ قَسمهُ ولم يخلفْ وَعْدَه ، انه يُصير الأممَ لباساً لهم كالحلة وزينةً كالحلية ، فهكذا العرَبُ ، وهكذا مكة وما تَلْبس في كل سنة من فاخر الديباج والتـاج ، ويُحملُ إليها من نفيس الجواهر والصّدقات من دار الخلافة وآفاق المملكة ، أو مَن صاحبُ القفار والخرابات الذي كان مضغوطاً فيها مضطرا إليها غيرُ هذه الأمة البدوية الحجازية ؟ ومَن الفريدة الوحيدة الوالهة المسيّبة المسترقة التي خاطبها اللهُ غير هاجر ؟ فهَلْ من ناظر لنفسه ناصح ؟ وهل من مراقب عليها مشفق ؟

وقال في هذا الفصل : هكذا يقول الرب ، ها أنا رافعٌ يدي على الأمم وناصبٌ لها آيةً وهي أن الناس الذين يأتونك بأبناءِك على أيديهم ويحملون بناتك على اكتافهم ، وتكون الملوك ظؤُورتك وعقـائل نساءِهم وشرائفهنّ مرضعاتك ، ويخرّون على وجوههم سجّدا لك على الأرض ، ويلحسون تراب أقدامك ، وتعلمين حينئذ أني أنا الرب الذي لا يخْزى الرّاجون لي لديّ ». فهذه أيضاً نبوة لم تستخل ولم تبطل ، فلقد أتت الأمم من أقـاصي الشّرق والغرب ، والسند والهند ، وآفاق البربر والبوادي ، بنسل هاجر وعترتها الذين توالدوا في بلدانهم إلى مكة يزفونهم زفاً ويعبقونهم تعبيقاً. ولقدارضعتْ ملوكهم وعقائل نسائهم ابناءَ اسماعيل عليه السلام وبناته ، وخرّت الأمم لهم

بمكة على وجوهها سجّدا ، ولحست الجبـابرةُ مواقعَ قدم ابراهيم واقدام النبي ﷺ تذللا وتبركاً وتخشعاً .

وقال في هذا الفصل : من ذا الذي أقبل من أدوم (٢٨٥) وثيـابهُ اشد حمرةً من البسْر وأراه بهياً في حلله ولباسه ، وعزيزا لكثرة خيله واجناده، اني أنا الناطق بالحق والخلّص للأقوام ، وانّ لديْنا ليوم الفتنة نكلا ، ولقد اقتربتْ ساعة النجاة وحانتْ ســاعة تخليصي ، لأني نظرْت فلم اجدْ من يعينني وتعجبت إذ ليس من ينيب إلى رأيي ، فخلصني عند ذلك ذراعي ، وثبّت بالغضب قدمي ، ودست الأمم برجزي ، واشقيت حدودهم بغيظي واحتدامي ، ودفنت عزّهم تحت الأرض » . فتدبروا هذه أيضاً ولا تكونوا من الممترين .

وتنبأ اشعيا عن الله تعالى في هذا الفصل وتعقّب تلك النبوة فقال : اني جعلت اسمك محمّدا ، فأنظر من محالّكَ ومَساكنِك يا محمّد يا قدّوس، لأنك انت الربُّ أبونا ومُخلّصُنا ، واسمُكَ موجود منذ الأبد » .

فهذا شبيهٌ بما تقدّم من نبوّة داوود النبي عليه السلام في قوله : إنّ اسمه موجود قبل الشمس » وبقوله في الزبور أيضاً : انّ في جبَلِه قدّوساً ومحمّداً. وهذا هو التسمية وفيه الكفاية لِمَن لم تغلب عليه شقوته ولم يمدّ له في طغيانه. فأما معنى قول اشعيا النبي عليـه السلام : انه قدّوسٌ ، فإن القدّوسَ في اللغةِ السّريانية الرجُلُ البرّ الطاهر . وكذلك اسم الربّ واقعٌ على السادات

---

(٢٨٥) قال في قاموس الكتاب المقدس : « أدوم : الاقليم الذي كان يسكنه أبناء عيسو أو أدوم (وهو لقب عيسو) . وكان يطلق على هذا الاقليم اسم أرض سعير وهو اقليم وعر . ويمتد مسافة مائة ميل بين البحر الميت وخليج العقبة ، على جانبي غور العربة .

كما قد بيَّنا ، فمن لم يقنع بهذه ولم يخضع لها عاندَ الربّ صُراحاً ،وقد سمَّى النبي فيها مرّتين تسمية ً لم تدعهم في شبهةٍ ، فإن غالط مغالطٌ فقال ان قولَ اللهِ تعالى يا محمّد و يا قدّوس إنما يقع على المساكن التي ذكرها ، فإنّ الكتابَ السرياني ّ يكذّبه لأنه لو أراد بذلك المساكن لقال قدوسين ومحمدين ، ولم يقل قدّوساً ومحمّدا .

وقال في هذا الفصل . اعبروا اعبروا الباب وردوا الطريق على الأمة ، سهلوا السبيلَ وذللوها ونحّوا الحجارة عن سننها ، وارفعوا للأمة علَمـاً ومنارا فانّ الربّ أسمع نداءه مَن في أقطار الأرض ، فقـُلْ لابنهِ صهيون انهُ قد قربَ مجيءُ من يُخلـّصكِ ، أجْرُه معهُ وعملهُ قدّامهُ ، ويُسمّون شعباً طـاهرا خلـّصهم الرب ، وتسمَّين أنت أيتها القرية التي أدال اللهُ لها من أعدائها ولم يخـْذلْها ربها » . فهؤلاء هم الشعبُ الطـاهرُ الذي خلـّصَهم الربّ ، وتلك القرية المدالة مِن أعدائها المنتقم لها هي مكة وأهلها ، وهذا قائمٌ صحيحٌ في مَجازِ العرب ، فانهم يقولون : سَلِ القَرْيَةَ ، وهم يُريدون: سَلْ أهلَ القرْيةِ .

نبوة هوشاع النبي عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم

وقال هوشاع : قال الربّ أنا الربّ الإله الذي رَعيتك في البدْوِ وفي أرضٍ خرابٍ قفرٍ غير مأهولٍ ليس بها إنسٌ » . فهذه من نبوةِ هوشـاعَ شبيهة بما تقدّم مِن نبوات اشعيا ، فلسنا نعرفُ أحدا رعاهُ اللهُ في البدْوِ وفي ارضٍ قفرٍ غير النبي ﷺ .

وقال في هذا الفصل ، مؤكداً لقوله هذا يصِفُ أمّتَه انهـا أمة جليلة عزيزة لم يكن مثلهـا قطُّ ولا يكون ، وأن النارَ تحرقُ أمامَها وتتوقدُ وخلـْفها الضرائرُ .

فهذه الأمة العزيزة التي لم يكن مثلها أُمة قط ، ولا يكون ، وهذا النبي الذي ربّاه اللهُ ورعـــاه في القفرِ اليباب والبَدْوِ الخرابِ ، وهذه نبوّة موجزة كافية لِمَن وفّقَه الله لرشْده ، فإنّ مَن كان الله راعيَهُ ومُعظمَه والشاهِدَ له بأنْ لم يكن في الدنيا أُمة أعزّ وأعْظم منها ، ولا يكون مثلها ، فقد وَجَب على الناس تعظيمهُ والإعترافُ بتقدمه وفضله ، ومَن لم يفعل ذلك كان مخالفاً لله وعلى سبيل المعاصي والضلال . وقد شهد هوشَـاعُ النبي عليه السلام بأن الأمة التي لم يكن مثلها قط هي هذه الأمة ، فليس لذي مُراقبةٍ ولبّ ان ينسبَ هذه النبوةَ إلى يحيي بن زكريّاء ولا إلى أمةٍ غير المسلمين .

نبوة ميخا على النبي صلى الله عليهما وسلم

قال : انهُ يكون في آخر الأيام جَبَلُ بَيْتِ الربّ مبنيًّا على قلال الجبالِ وفي أرفع رؤوس العَوالي ، وتأتيه جميعُ الأمم ، وتَسيرُ إليهِ أممٌ كثيرة ، وهم يقولون تعالوا نطلع إلى جبل الربّ » .فهذه صِفة مكة صراحاً، فهي التي يحج إليها الأممُ الكثيرة ويسعون لها ويسيرون إليها وهم يلبّون . فإنْ شَغب شاغبٌ فقال انهُ عَنَى بيت المقدس ، فكيف يصح له ذلك وقد بيّن اللهُ ان يكونَ ذلك في آخر الأيام ، وكان بيت المقدس في زمان هذا النبي موجوداً ، وإنما تنبّأ النبي على شيء يحدثُ لا على ما كان ومضى .

نبوة حبقوق (٢٨٦) النبي على النبي صلى الله عليهما وسلم

وهي نَظِيمة نبوةِ موسى عليه السلام ، بل أنورُ وأظهرُ منها،لأنهُ سمّى

---

(٢٨٦) قال في قاموس الكتاب المقدس : « نبي في يهوذا ، ويستنتج من مزموره في الاصحاح الثالث ومن الارشادات لامام المغنين في الآية ١٩ أنه كان من سبط لاوي وأنه أحد المغنين في الهيكل . وسفر حبقوق ←

النبي عليه السلام مرتين . قال حبقوق النبي عليه السلام ان اللهَ جـــاء من التَّيمَن (٢٨٧) ، والقدوس من جبل فاران (٢٨٨) . لقد انكسفتِ السماءُ من بَهاءِ محمدٍ وامتلأتِ الأرضُ من حَمْدِهِ ، يكون شُعاعُ مَنظره مثل النُّور ويحوط بلدَه بعزه ، تسيرُ المنايا أمامَه وتصْحبُ سباعُ الطيرِ أجنادَه . قام فمسَح الأرضَ . ثم تأملَ الأُممَ وبحثَ عنها ، فتَضَعْضعتِ الجبـال القديمة

←

هو الثامن في النبوات الصغيرة . وفي السفر يبدو ان حبقوق تنبأ اثناء حكم يهوياقيم (٦٠٧ ــ ٥٩٧ ق‌م) لكنه من الصعب تعيين العصر بدقة ، ويعتقد غالبية النقاد ان النبوة ترجع الى زمن وقوع معـركة كركميش (٦٠٥ ق‌م) ويعتقد آخرون ان تاريخ النبوة كان قبـل تلك المعركة بزمن وجيز .

وقد وجد بين اللفائف أو الأدراج التي اكتشفت في وادي قمران في عام ١٩٤٧ نسخة لتفسير نبوات حبقوق يرجع تاريخ كتابتها الى نفس الزمن الذي كتب فيه درج نبوات اشعيا الذي اكتشف أيضا بين هذه اللفائف حوالي القرن الأول قبل الميلاد » .

(٢٨٧) في نبوءة حبقوق (الفصل الثالث من الطبعة العربية للكتاب المقدس) : الله يأتي من الجنوب .

(٢٨٨) قال في قاموس الكتاب المقدس « فاران : برية واقعة الـى جنوب يهوذا وشرق برية بئر سبع وشور ، بين حضيروت ــ الواقعة علـى مسيرة أيام من سيناء ــ وكنعان . وكانت فيها قادس وبطمة فاران أو أيلة (ايلات اليوم) على البحر الأحمر ، كما كانت تشمل برية صين أو كانت مندمجة فيها دون حد معين يفصل بينهما . وجميع المعلومات تشير الى السهل المرتفع أو الأرض الجبلية الواقعة الى جنوب كنعان تحيط بها من الجهات الأخرى برية شور وسلسلة الجبال المعروفـة بجبل التيه ووادي العربة . وفي هذه البرية تنقل بنو اسرائيل ٣٨ سنة، ومعظمها على ارتفاع يتراوح بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ قدم عن سطح البحـر » .

واتضعت الرّوابي الدّهرية وتزَعْزعتَ ستور أهل مِدْيَن ، ولقد حاز[289] المساعيَ القديمة وغضبَ الرب على الأنهار ، فرجزك في الأنهـــار واحتدام صَوْلتك في البحار. ركبت الخيول وعلوت مراكبَ الإنقاذ والغوث، وستترع في قسيك إغراقاً وترْعاً ، وترْتوي السهام بأمركَ يا محمّد ارتواءً ، وتحرّث الأرض بالأنهـــار . ولقد رأتك الجبال فارتاعتْ وانحرفَ عنك شؤبوب السّيل[290] ونعرت المهاوي نعيراً ورعباً ، ورفعت أيديها وجلاً وخوْفاً ، وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما ، وســـارَت العساكر في بريق سهامك ولمعان نيازكك ، تدوخ الأرض غضباً وتدوس الأمم رجزاً لأنك ظهرت لخلاص أمّتك وإنقاذ تراث آبائك » .

فهذه النبوة الباهرة الجليلة التي لا شك فيها ولا مرْيةً ، فقد نطقتْ بالحق وباحت بالمكتوم وكشفت الأغطية وأزالت الشبهات ، وسمّى الله النبي ﷺ تسميةً مرّتين ، وأخبر ان المنايا تسير أمامهُ وتصحب سباع الطيرِ راياتهِ ، وأنهُ يركب الخيل ويظهر الخلاص وترتوي السهام بأمره من الرمـاءِ ، وهو الذي وقفت الشمس والقمر عن مجاريهما له، وسارت العساكر في بريق سهامه ولمعان نيازكه . فإن لم يكن هو الذي وصفنا فمن إذاً ؟ لعلهم بنو اسرائيل المأسورون المسبيون ، أو النصارى الخاضعون المستسلمون . وكيف يكون ذلك وقد سمّى فيها النبيّ مرتَين ووَصَف عساكره وحروبه وأنهُ يَدوسَ الأممَ دوْســاً ويُدوّخُهم غضَباً ورجْزاً ؟ فدَعُوا يا بني عمّي اللجاجَ والمَحكَ ، وتجرّعُوا مَرارات الحقّ وأفيقوا من سكركم[291] وافهموا عن اللهِ تعالى وعن أنبياءِه البررة الطيبين عليهم السلام والصلاة أجمعين .

---

(289) في الأصل : جـاز .

(290) في الأصل : السبيل .

(291) في الأصل : سكره .

نبوة صفنيا (٢٩٢) النبي على النبي صلى الله عليه وسلم

قال : يقول الربُّ ايها الناس ترجّوا اليومَ الذي أقومُ فيه للشهادة ، فقد حان أن أظهر حكمي بحشر الأمم كلها وجميع الملوكِ لأصُبَّ عليهم رجْزي وأليمَ سَخَطي ، فستحترق الأرض كلها احتراقاً بسخطي ونكيري ، هنالك أجدّد للأمم اللغة المختارة ليذوقوا اسم الرب جميعـــاً ويَعْبدوه في ربْقَةٍ واحدةٍ معاً ، ويأتوني بالذبائح في تلك الأيام من معابرأنهار كوش (٢٩٣) .

---

(٢٩٢) من انبياء اسرائيل الصغار (النصف الأول مـن القرن السابع قبـل الميلاد) . قال في قاموس الكتاب المقدس : « نبي يعود نسبه الـى حزقيا اذ انه الجيل الرابع منه . ويرجح أن يكون هذا الجد هو الملك حزقيا نفسه لموافقة الزمن ، اذ ان النبي نفسه عاش في أيام يوشيا الملك » (٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق‌م) .

(٢٩٣) كوش اسم قديم لبلاد النوبة جنوب منحنى كورسكو . ظهر في أيام الأسرة المصرية ١٢ حوالي ٢٠٠٠ ق‌م . ويرى الكثيرون ان « كرمـا » كانت عاصمة كوش ومقر الحكام المصريين . وفي أيام الدولة الحديثة (١٥٩٠ ـ ١٣١٠ ق‌م) صار اسما لبلاد النوبة الجنوبية كلهـا ، وأصبحت « نبتا » (بين جبل برقال والنيل) عاصمة للبلاد ، وأقام فيها الحاكم المصري ، وكان يسمى ابن الملك صاحب كوش . وفي القرن العاشر قبل الميلاد هاجر كثير من كهنة طيبة وأتباعهم واستقروا في نبتا . وفي القرن الثامن قبل الميلاد اسس أحفاد أولئك الكهنة مملكة جديدة هي المملكة الكوشية ، وكانت على صلة وثيقة بـ « طيبة » وأراد ملوكهـا تخليص مصر مما حل بها ، فذهب بيعنخي (٧٥١ ـ ٧١٦ ق‌م) ـ وهو أعظم ملوك الأسرة الكوشية ـ اليها في العام الحادي والعشرين مـن حكمه ، وتغلب على من فيها من امراء الاقاليم ، وتوج ملكا عليهـا ، فأصبح بذلـك مؤسسا للاسرة ٢٥ . واصطدمت الأسرة الكوشيـة بالأشوريين ، ثم انتهى الأمر بارتدادهم الى الجنوب . ولما قامت أسرة البطالمة في مصر (٣٢٣ ـ ٣٠ ق‌م) رأى ملوك كوش انه مـن الأسلم لهم الانتقال الى مروى (على ضفة النيل اليمنى) وكانت المدينة الثانية ←

وهذا صفنيا الذي قد نطق بالوحي وأخبرَ عن اللهِ بمثل ما ادّى أصحابه ، ووصفَ الأمةَ التي تَشْهد : أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتجتمعَ على عبادتهِ وتأتيه بالذبائح من سواحل السُّودان ومعابر الأنهار. واللغةُ المختارة هي اللسان العربي المبين الذي ليس بطمطمي (٢٩٤) ولا فارسي ولا سوفسطي (٢٩٥) وهي التي قد شاعتْ في الأمم فنطقوا بها وتجدّدوا بما جُدّد لهم منها ، فأما العبرانية فكانت لغة تلك الأنبياء ، وأما السُّريانية فما تجاوزتْ قط بلد سوريا ، وكذلك الرومية لم تجاوز الرُّوم ، ولا تجاوزت الفارسية مدينةَ إيران شهر ، وظهرت العربية إلى منقَطِعِ التراب وبوادي التركِ وبلاد الخزر والهند .

نبوة زكريا (٢٩٦) النبي على النبي صلى الله عليهما وسلم مؤكدة لنبوة صفنيا عليه السلام :

« انهُ يكون الربّ الإلهُ يومئذٍ ملِكَ الأرض كلها ويكون يومئذ ربًّا

في البلاد فاتخذوها عاصمة لملكهم سنة ٣٠٠ ق م ، حتى انتهت دولتهم على يدي مملكة أكسوم المسيحية حوالي سنة ٣٥٠ .
وقد انتهت دولة المسيحيين بظهور الاسلام الذي اعتنقه أهل النوبة وما زالوا عليه للآن والحمد لله .

(٢٩٤) يقال رجل طمطم (بالكسر) أي في لسانه عجمة لا يفصح. وطمطمي (بالكسر) وطمطماني (بالضم) مثله .

(٢٩٥) نسبة الى السفسطة ومعناها الاستدلال والقياس الباطل أو الذي يقصد به تمويه الحقائق .

(٢٩٦) آخر أنبياء العهد القديم مع حجاي وملاخي (اواخر القرن السادس قبل الميلاد) وهو الحادي عشر بين الأنبياء الصغار . قال في قاموس الكتاب المقدس : تنبأ في الشهر الثامن من السنة الثانيــة لداريوس

واحدا » . وقد صدَقت النبوة وصحّ الوحيُ وصار الدينُ واحداً والربّ واحداً لا تثنية فيه ولا تثليث ولا تكثير ولا تعطيل، واسمه واحدٌ لاتلبيس فيه ولا إشراك ، وقال زكريا عليه السلام ايضاً : « يكون في ذلك اليوم حق على لجام الفرس قدسُ الرب » . ومعنى قدسُ الرب ها هنا اسمُ الرب واسم نبيه عليه السلام . وذلك موجودٌ يومنا هذا على كل ملبس ومنزل وسلاحٍ وغير ذلك ، وهو اليومُ الذي وصفه اللهُ عز وجل .

نبوة ارْميا (٢٩٧) النبي على النبي صلى الله عليهما وسلم

وهي شبيهةٌ بنبوات اشعيا وغيره عليهم السلام ، خاطبَ اللهُ بها النبي عليه السلام ، قال في الفصل الأول : من قبل أن أُصَوّرَكَ في الرّحم عرفتك، ومن قبل أنْ تخرُجَ من البطْن قدّسْتك وجعلْتك نبياً للأمم ، لأنك بكل ما آمرُكَ تصدعُ وإلى كل من أرْسِلك تتوجّه ، فأنا معك لخَلاصك يقول الرب ، وأفرغْتُ كلامي في فمك إفراغاً فتأمَلْ وانظرْ ، فقد سلطتك اليوم على الأمم والمملكات لتنسف وتهدم وتبيرَ (٢٩٨) وتَسْحقَ وتَبنيَ وتَغرسَ من رأيتَ » .

→ الملك وذلك في غضون المدة التي أذن فيها لرجال يهوذا ان يرجعوا من سبي بابل فكان من أهم الأمور لديه ان يقوي عزائم الشعب الضعيف وينهض هممهم الساقطة لينزعوا عنهم نير بابل ويعززوا روح التقوى فيما بينهم ويرجعوا اليهودية الى ما كانت عليه من عز وقوة . فيرى رؤى مشجعة ويقدم رسائل روحية عظيمة بخصوص الصوم والطاعة » .

ويذكر التقليد اليهودي ان زكريا هذا طالت أيامه وعاش في بلاده ودفن بجانب حجاي .

(٢٩٧) سبق التعريف به

(٢٩٨) أي لتهلك وتدمر .

فقد شفع ارميا عليه السلام نبوات ِ أصحابه بالتأكيد والتأييد، ووصَفَ من أجْرىَ كلمة الله ِ على فمه ومن سلطه الله على انتسافِ أممٍ وإبادة أممٍ وسحْق أمم واستحياء أممٍ . فاكتفوا بذلك علماً واتخذوه برهاناً يُسلم لكم دينكم ويجعلكم من عباده الفائزين . فلن يجدَ الراغبُ الراهبُ سبيلاً إلى أن ينسبَ هذه النبوةَ إلى نصراني ولا يهودي ولا غيرهما .

وقال في الفصل الرابع : اني مُهيّجٌ عليكم يا بني اسرائيل من البُعد أمةً عزيزةً ، أمةً قديمةً ، أمةً لا يفهم لسانها وكلهم مِحْرَبٌ جبّارٌ » فهذه هي الأمة العزيزة التي لم تعرف بنو اسرائيل لسانها ولغتها وكلهم مِحْرَبٌ (٢٩٩) جبّارٌ ، وهم أصحابُ اللغة الجديدة التي ذكرها اللهُ على لسانِ صَفَنْيا النبي عليه السلام .

وقال في الفصل التاسع عشر : إني جاعل بعد تلك الأيام شريعتي في أفواههم وأكتبها على قلوبهم فأكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً ، ولا يحتاج الرجلُ أن يعلّم أخاه وقريبه الدين والملة، ولا إلى أن يقولَ له اعرف الربَّ لأنّ جميعهم يعرفونه صغارُهم وكبارُهم ، وأنا أغفر لذلك ذنوبهم ولا أذكّرُهم بعدها بخطاياهم » .

وقد صدَق وعدُ الله ، وازدرع حبه في قلوب هذه الأمة صغارهاوكبارها وأنطقَ ألسنتهم بشرائعه وتحاميده ، وكلٌّ عارفٌ بالله مؤمن به ، فتيانهم وفتياتهم عبيدُهم وأرقاءُهم ، فلا ترى زراعاً ولا ملاحاً ولا سائساً ولا كناساً ولا صغيرا ولا كبيرا إلّا وهو يقرأ شيئاً من القرآن طاهرا ، ويحسنُ يصلي صلاتهُ وحْدَه ويوحّد اللهَ ويُكبره تكبيرا ، لذلك سمّاهم اللهُ شعبهوارتضاهم لنفسه ، فلن تجبَ هذه المعاني لأحدٍ سواهم ، واللهُ ذو فضل على العالمين .

(٢٩٩) في الأصل : مجرب .

وقال في الفصل الحادي والثلاثين: «يقول الرب إني كاسرٌ قوسَ عيلم[٣٠٠] رأس عزهم وجبروتهم، وأغري بعيلم أربعة أرواحٍ من أربع جهات السماءِ، وأبدد أهلها في تلك الجهات كلها حتى لا تبقى أمةٌ إلّا وفيها نفرٌ من شذاب عيلم وشذارهم، وأفض عيلم قدّامَ أعدائهم فضاً وأفلّهم أمام من يريدأنفسهم فلاً، وأنزلُ عليهم البلاءَ والرجزَ الأليم، وأرسلُ عليهم السيفَ حتى أفنيهم، وأنصبُ كرسيٌّ بعيلم وأبيدُ مَن هناك مِن الملوك والسلاطين، هذا قولُ الرب».

وعيلم هي الأهواز وما والاها، وإنما ذكرها الأنبياءُ وهم بالشام لأن ملوك فارس لما انتقلت عن فارس بنت بالاهواز واستوطنتها ثم انتقلوا بعد دهر طويل إلى السّواد[٣٠١]، فذكر النبيُّ عليه السلام عيلَمَ لأن اسمها جامعٌ للمملكة كلها، ولم ينزل بها قط من الذلّ الشامل والاستئصال ما نزل في هذه الدولة، فإن ذكرَ ذاكرٌ الاسكندر وغلبته، وتبعاً ومسيره، فإن الذي يحلُّ ذلك عنه ويفسخه ويزيلُ الشكَّ عنه قول الله تبارك اسمهُ: «إني أنصبُ كرسيٌّ بعيَلم» أي في إقليم بابل، ولم يكن الاسكندر والتبابعهُ منسوبين إلى الإيمان بالله.

ولهذه النبوة سرٌ آخرُ عجيبٌ وذلك ان الله عز وجل ذكر فيها هذه الدولة العباسية[٣٠٢] واستيطانَ الخلفاءِ من وُلدِ العباس أرض العراق في قوله:

---

(٣٠٠) عيلم أو عيلام: اسم بلاد الأهواز، وقد سبق التعريف بها.

(٣٠١) السواد اسم الأرياف في العراق، أطلق سابقا على السهول الواقعة بين نهري دجلة والفرات.

(٣٠٢) مؤلف الكتاب عاش في أيام الدولة العباسية، وساعده عاشر خلفائها «المتوكل على الله» على تأليف هذا الكتاب.

وأنصبُ كرسيٌ بعيلمَ فضيلة لهم لا يجهلها إلا مَضْعوف . فأما بنو أُمية فانما مسكنهم بالشّام . فإن سأل سائل عن الكرسي قلنا : هو سلطان الله ونبوته المعمورةُ بأرضِ عيلم والعراق وغيرهما من الكور والسّواحل والجزائر والآفاق ، وما فيها من المساجد والرّباطات ، وما عند أهلها من التكبير والتحميد في كلّ حينٍ وآنٍ من آناء الليل والنهار . وإنما ذكر عيلم لأن الملوك حينئذٍ كانوا منسوبين إليها (٣٠٣) كما نسبَ اهلُ هذا الإقليم أيام العجم إلى الفرس ، واليوم إلى العرب لغلبة العرب عليهم . ومصداق قولي إنّ معنى الكرسيّ السلطان قولُ داودَ النبيّ عليه السلام : وكرسيُّك يا اللهُ إلى أبد (٣٠٤) الآبدين » أي سلطانكَ وعزُّكَ .

وقال أيضاً في الفصل الثاني والثلاثين مخاطباً للنبي ﷺ : « أعدّوا لي آلاتِ الحرْب فإني أبدّد بك الشعوبَ ، وأبدّد بك الخيْلَ وفرسانها ، وأبدّد بك المراكب وركبانها ، وأبدّد بك الأكّارَ وفدّانه ، وأبدّد بك الطّغاةَ والولاة ، وأجازي بابل وجميع سكان بلاد الكلدانيين (٣٠٥) بجميع أوزارهم التي ارتكبوها ، هذا قولُ الربّ » . وقد أردفَ اللهُ تلك النبوةَ المتقدّمةَ التي هي نظيرةُ هذه ونظيمتُها بها ، فقد أنزلَ على بلاد الكلدانيين واقليم بابل ما أوعَدَهم وبدّدَ شملهم وذلّل عزّمَهم وأبطلَ عباداتهم وانتقم منهم أيما انتقامٍ واصطلمهم أيما اصطلام . ويقال ان ملوك بابل كانوا ينتسبون دهراً طويلاً إلى « كلواذي » (٣٠٦) التي بقرب مدينة السلام .

---

(٣٠٣) في الأصل : اليه .

(٣٠٤) في الأصل : الأبد .

(٣٠٥) في الأصل : الكذابين ، والصواب ما ذكرناه . وبلاد الكلدانيين هي المنطقة الغربية من الخليج العربي جنوبي العراق .

(٣٠٦) بلدة كانت أسفل بغداد . قال ياقوت : هي الآن خراب أثرها باقٍ ، بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر ، وقد ذكرها الشعراء ، ولهج كثيرا بذكرها الخلفاء .. » .

نبوة حزقيال(٣٠٧) النبي على النبي عليهما السلام

قال في الفصل التاسع : « إنّ أمّك مغروسةٌ على الماءِ بدَمِك ، فهي كالكرْمةِ التي أخرَجتْ ثمارها وأغصانها من مياهٍ كثيرةٍ ، وتفرّعتْ منها أغصانٌ كالعصيّ قويةٌ مشرفةٌ على أغصان الأكابر والساداتِ ، وارتفعتْ وبَسقتْ أفنانهنّ على غيرهنّ ، وحسنُتْ أقدارُهنّ بارتفاعِهنّ والتفاف سَعفهنّ(٣٠٨) ، فلم تلبث تلك الكرمة أن قُلعت بالسخطة ورُميَ بها على الأرض ، وأحرقت السمائمُ ثمارها وتفرّق قواها ويبس عِصيُّ عزّها وأتتْ عليها النارُ فأكلتها ، فعند ذلك غرسَ غرسٌ في البدْو وفي الأرض المهملة المعطلة العطشى ، وخرجت من أغصانه الفاضلة نارٌ أكلت ثمار تلك حتى لم يوجد فيها عَصاً قويةٌ بعدها ولا قضيبٌ ينهضُ بأمر السلطان » .

فمن شك أو شغبَ في النبوة المتقدمة فحمته هذه وأقنعته ، فقد أنبأنا اللهُ تبارك أسمهُ ، أنه مستأصل شأفة اليهود ومُبيرٌ خضراءَهم ومزيلٌ عزّهم وجمالهم الذي شبّهه بالكرمة وبالعصا وبالقضبان ، وأتبع ذلك قولاً باهراً بيّناً فأخبر تبارك وتعالى انه يغرسُ في البادية والأرض المهملة العطشى غرْساً جديداً ، وتخرج أغصانهُ ناراً تحرق تلك الأخرى حتى لا يوجد فيها عصا قوية أو قضيبٌ ينهض بالسلطان والسياسة ، وإنما يعني بالعصا والقضيب السلطان ، وقد بطلَ سلطان اليهود وعزُّها من أصل المعمورة وقامت عصاً قوية بل عصيٌ وقضبان عزيزة تنهض بسلطان عزيز وسياسة مؤيدة مهذبة وتمت بذلك تلك النبوة .

وقال حزقيال عليه السلام في بناء البيت في آخر كتابه : « انه أراه اللهُ بيتاً تولى مَلكٌ من الملائكة تخطيطه وتحديده ، ووصف أركانه وصحونه وأفنيته

---

(٣٠٧) سبق التعريف به .

(٣٠٨) في الأصل : سعهن . والصواب ما ذكرناه .

وأبوابه ، وأمره الملكُ ان يحفظ ذلك ويتدبّره » ، لكنه لمّـا طالت صفته وجدت القومَ قد ثبّجوها ولبسوها إمّا تعمّداً وإمّا تناسياً ، فأضربتُ عن ذكرها واكتفيتُ بالكثير الشهير من النبوّات ومن الشواهد ، على أنّ صفـة ذلك البيتِ الذي خطّـه اللهُ وصوّره بحزقيال النبي عليه السلام ، هو مكة لأنها خلافُ بيت المقدس الذي بني بعد الرّجعة من سبي بابلَ ، فـإن أنكرَ ذلك منكرٌ فليوجدْنا صفة ذلك البيت الذي بني ببيت المقدس لنصدقه ، وإلا فليصدق بما أنبأناه به وبيناه له .

فإن دفعَ ما قلنا دافع وماري مُمار وزعم ان اسمَ النبي الذي أخرجتهُ من هذه النبوّات ليس يلحقهُ النداءُ بالسريانية ، فـإن السريانيّ إذا نادى يُدخلُ نداءَه اليـــاءَ كما تدخله العرَبُ ، فقد قال في التوراة انهُ نادى في الفردوس آدمَ فقال : أين أنتَ آدم ، يُريدُ يا آدمُ . وخاطب شمعون الصّفا اليهودَ فقال :«اسمعوا كلامي رجالَ بني اسرائيل »، أي يارجالبنياسرائيل. وقيل في كتاب فراكسيس : إن المسيح قال لفولس : شأول شأول لمّـا أقبلتَ قبلي ؟ أرادَ يا شأول يا شأول . ونادى الملكُ هاجرَ وقـال : هاجرُ أمة سارة من أين أقبلت ؟ يُريدُ يا هاجرُ . وقال اشعيا : زرعَ ابراهيمخليلي الذي قوّيتك » ، يُريدُ يازرعَ . وقال اشعيا : احمَدي العاقرُ التي لم تلد » ، يريد أيتها العاقر . وقال ايضاً : الزّرعُ العائقُ والولدُ المفسدُ رفضتم الربّ وأسخطتم قدُوسَ اسرائيل » ، يُريد ايها الزرعُ العائقُ وأيها الولدُ المفسد ، فهذه شواهد كلها كافية على ان النداءَ بالسريانية لا يكون في اوّله ياء كما في العربية .

وأما ما يقول المهاري المعاند منهم ان « مشبّحاً » ليس هو محمد بل ممجد ومسبّح ، فإنه لا يقال للإنسان انك مسبّح أو سبحانك ، وإنمـا يقال ذلك لله عز وجل ، وقد قال كما بينت في عدّة نبوات يا محمّد . ويقال لمن أنكر ذلك وأراد تلبيسَه قل بالسريانية الحمد لله ، فإنه لا يترجمه ويعبره إلاّ بقوله

شوبحا لآلآها ، فإذا كان شوبحاً الحمد فمشبَّحاً هو محمد . وقال داوود النبي عليه السلام : « كرسيك الله إلى دهر الداهرين » يريد به يا الله. وإن مَحَكَ وصمّم وزعم إن مشَبحاً هو ممجد وليس بمحمد ، فليخبرنا مَن هذا المجد الذي قال الله على لسان حبقّوق : انه انكسفت السماءُ من بهاءِ المجد ، والذي تسير المنايا أمامه ، وتصحب سباع الطير عساكره ، والذي أرتوت السهام بأمره وسارت العساكر في بريق سهامه ولمعان نيازكه ، والذي دوخ الأمم وظهر لخلاص شعبه وللطلب بتراث آباءه » . والذي قال داوود : انه يصلى عليه في كل وقت ويبارك عليه في كل يوم » ، وهو قول الأمم : « اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد » . والذي قال فيه اشعيا النبي : إني جعلتك شاهداً للامم وسلطاناً ومدبراً للشعوب » وهو قول الأمم : أشهد ان لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله .

أو من المجد الذي يقول الله على لسان اشعيا: إني جعلت لك اسماً محمداً، فانظر من مساكنك يا قدّوس و يا محمد » . فإن كان عنى بهِ المجد فمن هذا المجد غير محمد ؟ وفي هذا تنبيه وتصريح وتقويم لِمَن أراد اللهُ سعادته وتقويمه .

نبوة دانيال النبي على النبي عليهما السلام

مؤكدة للتي تقدمت من نبوات حزقيال وغيره ، وتحقيق قولنا ان النبي ﷺ هو خاتم الانبياء ، وان غلبته كانت من عند اللهِ ، وأنه صاحبُ الدولة المؤيدة التي لا دولة بعدها ولا أمة مثل امته ، وان جميع ما قدمنا في نبوّات الأنبياء هو فيه وله لا في غيره .

ما نجدُ في نبوة دانيال النبي عليه السلام في الفصل الأول من كتابه فإنه

قال لبخت نصر [٣٠٩] حين سأله عن تعبير رؤيا [٣١٠] كان رآها من غير ان يقصها عليه ، فقال دانيال : بروح القُدس نعم رأيت ايها الملكُ صنماً عظيماً بارع الجمال جداً وهو قائمٌ بين يديك ، رأسه من الذهب الإبريز الخـــالص ، وساعده من الفضة ، وبطنه وفخذه من النحاس ، وساقاه حديدوبعض رجليه حديدٌ وبعضها خزف ، ورأيت حجراً انقطع من غير قاطع ، وصك رجلي ذلك الصنم ودقها دقاً شديداً ، فتفتت الصنم كله حديده ونحـــاسه وفضته وذهبه ، وصارت رفاتـاً مثل دقاق الجـِلّ [٣١١] في البيادر ، وعصفت به الرياح فلم يرَ له أثرٌ ، وصار ذلك الحجر الذي صك ذلك الصنم جبلاً عاليـاً امتلأت منه الأرض كلها ، فهذه رؤياك ايها الملك ، وأنتَ الرأس الذي رأيته من الذهب ، وتقوم بعدك مملكة أخرى دونك ، والمملكة الثالثة التي تشبه النحاس تتسلط على الأرض كلها ، والمملكة الرابعة تكون قويةً مثل الحديد، وكما ان الحديد يدقّ كلّ شيءٍ كذلك هي تسحق الكلّ ، فأما الرجْلُ التي كان بعضها من حديدٍ وبعضُها من خزف فإن بعض المملكة يكون عزيزاً وبعضها ذليلاً وتكون كلمةُ المملكة مُتشتتةً ، ويقيم إله السماء في تلك الأيام ملكاً دائماً أبدياً لا يتغير ولا يزول ، ولا يَذَرُ اغيره من الأمم ملكاً ولا سلطاناً ، بل يدق ويبيدُ الممـلكات كلها ويقوم هو إلى دهر الداهرين ، فهذا تعبيرُ الحجر الذي رأيتَ انه انقطع من جبل بلا قاطع حتى دقّ الحديـــد والنـُّحاسَ والخزف ، فإن اللهَ الكبير أعلمك ما يكون في آخر الزمان » .

---

(٣٠٩) هو نبوخذ نصر (الثاني) ملك بابل (حوالي ٦٠٥ – ٥٦٢ قم) . اخمد ثورة قام بها اليهود في أرض يهوذا . وعندما اعادوا الكرة لم يخمـد ثورتهم وحسب ، بل احتل فلسطين وخرب أورشليم وساق ملوكهم وكبراءهم أسرى الى بابل (٥٨٦ قم) .

(٣١٠) تعبير الرؤيا هو في الفصل الثاني من نبوءة دانيال في الطبعة العربية للكتاب المقدس .

(٣١١) الجل : قصب الزرع اذا حصد .

فهذه نبوة مُبشّرة وإشارة مُنوّرة لا حاجةَ بها إلى عبارةٍ أكثر من عبارة دانيال النبي عليه السلام ، فقد صحّح النبوّات كلها وشهدَ بأنها كلها في محمد عليه السلام لا في غيره ، وأخبرَ بأن آخر الدُّوَلِ والملوك هي الدولة التي يقيمها إله السماء ، وأنها تحتوي على مملكـــات الأرض كلها وتقوم إلى دهر الداهرين ، ولا تذرُ لغيرها ملكاً ولا سلطاناً إلا دقّتْهُ وهَشّمتْهُ ، ولذلك سُمّي محمدُ النبي ﷺ خاتمَ الأنبياء لأنه إليه انتهتِ النبوّاتُ كلها كما ترون ، وبه تمّت البشاراتُ المتقدّمة كما تجدون وتقرأون ، فلا يُوجدُ بعْدَهُ نبوّةُ نبي ولا نازلُ وَحْي ، فقد أخبرَ انه لا دولةَ ولا سلطانَ بعد دولتِهِ وزمانه ، فأيُّ مَقال يبقى وضلال يثبت مع هذه النبوة ؟ وما حجةُ من جحدَها عند الله ؟ أو هل جزاؤه عنده إلا العذاب والنار ؟ لأن الله أخبرَ ان إلهَ السماء يُقيمُ هذه المملكة الدائمة الأبدية .

وقال دانيال عليه السلام في الفصل الرابع ما أيّد به النبوة الأولى وأكدها ، قال : رأيتُ في المنام كأن الرّياح الأربع هاجتْ واصطك منها البحرُ العظيم واعتَلَجَ اعتلاجاً شديداً ، وصَعدَ من البحرِ اربع حيواناتٍ عظام مُختلفةِ الصُّورِ اوّلُها : مثل الأسد وله أجنِحة النسْرِ ، ورأيت جنـــاحه قد تمرّط فانتصَبَ قائماً على الأرض مثل انسان وجعل له قلب انسان . والحيوان الثاني : مثل الدبّ وهو قائم ناحيةً وفي فمه ثلاثة أضلاع ، وسمعت قـائلا يقول له : قم فكلِ اللحْمَ واستكثر منه . والحيوان الثالث : مثل النمر وفي جنبيه اربعة أجنحة مثل أجنحة الطير ، له اربعـه رؤوس ، وأعطي سلطاناً . ورأيت حيواناً رابعاً ، عظيماً قوياً عزيزاً جداً ، وله أسنان عظام من حديد ، فهو يأكل ويدق ويدوس برجليهِ ما بقي ، ورأيتهُ مخالفاً لتلك الحيوانات الآخر ، وكانت له عشرة قرون ، وكنت أفهم معنى قرونه تلك ، ولم تلبث ان نجمَ قرْن صغير من بين تلك القرون ، فنصل وسقط من بين يدي ذلك القرْنِ الصغير ثلاثة قرون من مقاديمها ، فأحْبَبتُ ان أعرفَ تـأويلَ

الحيوان الرابع الذي كان مُخالفاً لهنّ كلهنّ ما هو ، ومـا هو تأويل قرونه العشرة ، وأسنانه التي من الحديد ، ومخالبه وبراثنه التي من النحاس ، ومـا تأويل أكله ودقه ودَوسه برجْله ما بَقي ، وتعبير القرن الصغير الذي ارتفع منه ونصول القرون الثلاثة وسقوطها بين يديه ، ومـــا كان لقرنه هذا من العيون ، وسمعت هذا القرن يتكلم بفيه كلاماً جهيراً ، وكان مَنجمَ ذلك القرن الصغير ومنبته وقدره اجلّ من أقدار سائر تلك القرون ، وكان ينازع القدّيسين الأطهارَ فيقاومهم ، فقال لي الرب : ان تأويل الحيوان الرابع مملكة رابعة تكون في الأرض ، وتكون أجلّ وأفضل من جميع المملكات ، تغلب على الأرض كلها وتدوسها وتدقها وتأكلها رَغداً . فأما عبارة القرون العشرة فأنها تقوم من تلك المملكة عشرة أملاكٍ ، ويقوم من بعدهم ملك آخر اجلّ وأعظم من الأولين ويذلل ثلاثة أملاكٍ » .

وهذه ايضاً مفسّرة منوّرة لا تحتاج إلى إفصاح ولا إيضاح أكثر مما فسره دانيال عليه السلام ، فالحيوان الرابع الذي قال انه كان عظيماً رائعاً هـــائلاً قوياً عزيزاً هو تمثال هذه المملكة التي قال الله انها أعظم المملكات وأجلّها، وأنها تغلب على الأرض كلها وتدوسها بأقدامها وتأكلهـــا رغداً ، وهي آخر الدول ، وهذه ايضاً تشهد بأن النبي ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم،وأن النبوات كلها تمّت به وتناهت عنده ولم تتجاوزه ، وعلى هذا دلت النبوات المتقدمة وإليه (٣١٢) ساقت ، فسبحانَ من قَدّر ذلك وأنبأ به العبادَ على ألسنة أنبيائه قبل كونه بدهر طويل ، وأوجَبَ به الحجة ، وقوّى به البصائر النـــافذة ورفع الأستار المهرودة (٣١٣) .

فهذه نبوات الأنبياء من بني اسرائيل ، فأما ما تنبأ به المسيح عليه السلام ومن بعده من حوارييه فاني ذاكره ، فقد أشاروا إلى زمن النبي عليه السلام

(٣١٢) في الأصل : واليها .
(٣١٣) الممزقــة .

إشارةً وأوحوا إليه إيحاءً ، وقال من فسّر كُتُبَ النصارى ان الحيوان الأول هو دولةُ اهل بابلَ كما قال دانيالُ ، والثاني دولةُ اهل الماهين، والثالث دولة الفرس ، والرابع إذاً دولة العرب لا شكّ فيه ، وهي الدولة الأبدية التي قال الله انها لا تزولُ ولا تدع لغيرها دولةً ولا سلطاناً ، وهذا تحقيقُ قول موسى النبي عليه السلام عن الله في اسماعيل عليه السلام : اني باركتُ عليه وعظمته جداً جداً » .

فوجدتُ في كتب دانيال نبوةً ايضاً باهرة عجيبة فإنهُ يقول : طوبى لمن أمّل ان يُدرك الأيام الألف والثلثمائة والخمسة وثلاثين » ، فأعملت فيه الفكر فوجدتهُ يُوحي إلى هذا الدّين وهذه الدولة العباسية خاصةً ، وذلك انه لا يخلو دانيالُ من أن يكون أراد بهذا العدد الأيامَ والشهورَ والسّنين ، او سرّاً من أسرار النبوة يخرجه الحساب ، فان قال قائلٌ انه اراد به الأيام، فانه لم يحدث لبني اسرائيل ولا في العالم بعد أربع سنين فرح ولا حادثة سارة ، ولا بعد الف وثلثمائة وخمس وثلاثين شهراً ، فان ذلك مائة وإحدى عشرة سنة وأشهر .

فان قالوا عنى به السّنين ، فانما ينتهي ذلك إلى هذه الدولة ، لأن زمن دانيال إلى المسيح نحو من خمس مائة سنة ، ومصداق ذلك ما أُوحي إليه : انه يأتي عليه وعلى قومه سبعون سابوعاً في السّبي ، ثم يرجعون إلى بيت المقدس ويبعث المسيحُ ، ومن المسيح إلى سنتنا هذه ثمانمائة وسبع وستون سنة، ينتهي ذلك إلى هذه الدولة العباسية منذ ثلاثون سنة أو يزيد شيئاً ، فان قال قائلٌ انه ليس بسنين أيضاً بل سرٌّ من أسرار النبوة يخرجه الحسابُ ، فإني فكرتُ فيه فوجدت عددَ هذه الأيام مُساوياً لما يجتمع من عدد حروف محمد خاتم الأنبياء مهدي ماجد ، فانه إذا جمعَ حروف هذه الألفاظ بحساب الجمل، خرج منها ما بيّنا وهي خمسةُ أسماءٍ ، فإن قال قائلٌ قد يحتملُ هذا العددُ ان يخرج لغيره بمثل ما أخرجته له ، فإن الذي يشهد بصحة ما قلت ويوجب

هذا السرّ للنبي ﷺ شهادة دانيال وغيره له بما قد بينتُ ، فمن أخرجه على اسم من الأسماء عليه من شهادات الأنبياء ما على النبيّ عليه السلام وافقنـــاه فيه ، ولن يمكنه ذلك أبداً ، وقد نسبَ قومٌ من النصارى هذا العدد إلى المسيح بمثل ما حسبت فعارضتهم وأوضحت بشهادات الأنبياء ان النبيّ عليه السلام أولى به .

نبوة المسيح على النبي صلى الله عليهما وسلم

قال المسيحُ عليه السلام في ذلك ما هو مقيّدٌ مُخلّدٌ في كتاب يوحنا(٣١٤) التلميذ في الفصل الخامس عشر من انجيله: ان الفار قليط(٣١٥) روح الحق الذي يُرسله أبي باسمي يعلمكم كل شيء » فالفارقليطُ الذي يُرسُله اللهُ بعـد المسيح مُصدقاً لاسم المسيح عليه السلام ، هو الذي علم الناسَ كلَّ شيء لم يكونوا علموه من قبلُ ، ولم يكنْ في تلامذة المسيح إلى دهرنا هذا أحدٌ علّم الناس شيئاً غير الذي كان علمهم المسيحُ ، فالفارقليطُ الذي علم الناسَ ما لم يكونوا يعلمونه هو النبي ﷺ ، والقرآنُ هو العلمُ الذي سمّاه المسيحُ كل شيء .

وقال يوحنا عنه في الفصل السادس عشر : ان الفارقليط لن يجيئكم ما لم أذهبْ ، فإذا جاءَ وبّخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاءِ نفسه شيئاً لكنهُ يسُوسكم بالحق كله ويخبركم بالحوادث والغيوب » . وقال يوحنا عنهُ : اني سائلٌ أبي ان يرسل إليكم فارقليطاً آخر يكون معكم إلى الأبد » . فأمـا تأويلِ قوله انه يرسله باسمي ، فانه لما سُمّي المسيحُ بفارقليط ، وسُمّي محمدٌ

---

(٣١٤) هو يوحنا بن زبدي من تلاميذ المسيح الاثني عشر والانجيليين الأربعة. توفي حوالي سنة ١٠٠ . له انجيل يوحنا والرؤيا وثـلاث رسائل . انظر ترجمته في قاموس الكتاب المقدس .

(٣١٥) في انجيل يوحنا ، الفصل الرابع عشر، من الطبعة العربية : المعزّي .

بهذا الاسم ، لم يُنكر من المسيح قوله انهُ يُرسله باسمي أي يكون سَمِيَّهُ ، فقلَّ ما يوجد ذكرُ المسيح عليه السلام في باب من كتب الأنبياء عليهم السلام إلّا كان ذكرُ النبيّ ﷺ متصلاً به ، يتلوه ويشفعه لأنه جاء بعده .

ووجدتُ للفارقليط سرًّا آخر عجيباً وهو : أني لما أعملتُ فيه الفكرَ ، وفليتُ عن معنى قول المسيح وجدتُ مايجتمع من حروفه إذا حسبه الحاسب بالحساب الجمل مساوياً لما يجتمع من حروف محمد بن عبدالله النبيّ الهادي، فان قال قائلٌ : انه ينقصُ عدداً واحدا لأن اللفظة انما هي فارقليطا، فإن الالف زيادة في أسماءِ السريانيين ، على ان الذي لا يساويه من العدد حتى لا يزيد ولا ينقص ، محمد رسول حبيب طيب . فان قال قائل : قد يمكن استخراج هذا الحساب بغير هذه الأسماء ، لم يكن ذلك له حتى يحضرنا من شهادةِ مَن هو ، كالمسيح في قوله : إن الفارقليط الذي يرسله روحَ الحق الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم كل شيء ، ولن يجد إلى ذلك سبيلاً .

وقال يوحنا التلميذ في رسالته في كتاب فراكسيس وهوأخبارُ الحواريين: لا تؤمنوا يا احبائي بكل روحٍ ، بل ميزوا الأرواحَ التي من عند الله ، واعلموا أن كلّ روحٍ يؤمن بأن يسوعَ المسيح قد جاءَ وكان جسدانياً فهو من عند الله ، وكلّ روحٍ لا يؤمن بأنَ المسيحَ [كان] جسدانياً فليس من عند الله » . وقد آمَن النبيُّ ﷺ بأن المسيحَ قد جاءَ ، وأنه جسداني، وأنه روح الله وكلمته القاها إلى مريم . فروحه إذاً بشهادة يوحنا وغيره ، روح صادقة برّة من عند الله عز وجل ، وروح مَن زعم انه غير جسداني ولا إنسي من عند غير الله .

وقال شمعون الصفا [٣١٦] رأس الحواريين ، في كتاب فراكسيس : إنه قد حان أن يبتدأ الحكم ابتداءً من بيت الله » . وتفسير ذلك ان بيت الله الذي ذكره الحواريُّ هو مكة ، وفيها كان ابتداءُ الحكم الجديد لا من غيرهـــا. فان قال قائل : إنه عنى به حكم اليهود ، فقد كان المسيح أخبرهم انه لا يترك في بيت المقدس حجر على حجر حتى ينسف ويبقى على الخراب إلى يوم القيامة. فقد وضح ان الحكم الجديد الذي ذكره الحواريُّ هو دين الإسلام وحكمُه ، وذلك شبيه بقول صفنيا النبي عليه السلام عن الله : انه مُجدد للامم لغةً مختارةً ، فكانت العربية اللغة الجديدة المختارة للحكم والدين الجديد .

وقد قال دانيال النبي عليه السلام في هذا المعنى ما قد بيناه ، ولم يكن حينئذ بيت منسوب إلى الله سوى مكة فيتعلقَ به المخالفُ وهو يقول ان الحكم ابتدأ منه ، وان قال قائلٌ انه أراد به دين المسيحِ ، فكيف كان يقول لدينٍ وحكمٍ قد كان ابتدأ وظهرَ منذ حين انه قد حان ان يبتدأ ، فهذا محال من الظن .

وقال لوقا الحواريُّ في الفصل الحادي عشر من انجيله : ان المسيحَ قـال لتلامذته : اني قد كنت ارسلتكم وليس معكم كيس ولا ترمال (يعني به المزود) ولا خفٌ ، فهل ضرَّكم ونقصكم ذلك شيئاً ؟ قالوا لا ، قال : « أمَّا الآن فليشترِ من لم يكن له كيس كيساً ، ومن لم يكن له ترمـال مزوداً ، ومن لم يكن له سيف فليبعْ ثيابه وليشتر به لنفسه سيفاً » . ولم تزلْ سنن المسيح

---

(٣١٦) هو سمعان بن يونا . كان صياد سمك فدعاه المسيح وسماه كيفا أو الصخرة . قال في قاموس الكتاب المقدس : صفا باليونانية كيفاس ، علم مأخوذ عن الآرامية كيفا أي صخرة أو حجر ، وبالعربية الصفاة: الصخرة الصلباء الملساء ، وهو اسم أعطاه يسوع المسيح لسمعان ، ويقـابله باليونانية « بطرس » وهو الاسم المعروف به الآن .

وفرائضه التي يسُنّ بها ويدْعو إليها هي المسالمة والاستسلام والإنسلاب لأغير ، فلمّا أمر تلامذته وأعلامَ دينه في آخر أمره ان يبيعوا ثيابهم ويشتروا السيوف ، عرف أهل التمييز والفهم انه إنما أشار بذلك إلى أمر آخر وحدث متجدد بالنبي ﷺ ، وأشار إلى سيوفه وسهامه التي وصفها الأنبياءُ قبله ، وقد كان شمعون الصفا انتضى السيف وسلّه من جفنه ليلة مسكت اليهودُ المسيحَ وضرب بعض الشرط فجذع أذنه ، فتناولها المسيح عليه السلام بيده وردّها إلى مرْكبها من رأسه ، فعادتْ صحيحةً لساعتها كما كانتْ ، وقال لشمعون عند ذلك : اغمد السيف ، فإن من سلّ سيفاً قُتل بالسيفِ » يعني من سَلّه من امّتِه وأصحابهِ ، ثم أنبأنا بالحال الآخر وأمر تلامذته ببيع ثيابهم وابتياع السيوف ، ولا تبتاع السيوفَ إلا لتُسلّ ويضربَ بها .

وقال فولس[٣١٧] – وهو المقدّم عند النصارى وهو الذي يسمونهُ رسولاً – في رسالته إلى أهل جالاطيا[٣١٨] أنه كان لإبراهيم ابنان أحدهما من أمَةٍ والآخر مِن حرةٍ وقد كان مَولدُ ابنِه الذي من الأمةِ كمولد سائر البشر ، فأمّا مولدُ الذي من الحرّة فإنه وُلد بالعِدة من الله ، فهما مثالان مُشبّهان بالفرْضَين والنّاموسَين ، فأمّا هاجَرُ فإنها تُشبّه بجبل سينا الذي في بلاد أرابيا[٣١٩] الذي هو نظيرُ أوراشلمْ هذه ، فأمّا اوراشلم التي في السماءِ فهي نظيرُ امرأته الحرة » .

---

(٣١٧) المقصود : بولس .

(٣١٨) وردت في رسالة بولس : غلاطية . قال في قاموس الكتاب المقدس : ولاية في القسم الأوسط من شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وكان يحدها من الشمال ولايات بيثينية ، وباغلاغونيا ، وبنطس . ومن الشرق ولايتا بنطس وفريجية . ومن الغرب فريجية وبيثينية ، الخ .. » .

(٣١٩) كذا في الأصل ، والمقصود بلاد العرب . وهي في رسالة بولس : ديار العرب .

فقد ثبّتَ فولسُ في قوله هذا معاني جمّة أوّلها : ان اسماعيلَ وهاجرَ قد كانا استوطنا بلاد العرب ، وهي التي سمّاها بلاد أرابيا . والثاني ان جبل سينا الذي بالشام يستطردُ ويتّصلُ ببلاد البوادي بقوله : ان هاجرَ تشبّه بطور سينا الذي في بلاد أرابيا . وسينا هو الذي ذكرته التوراة في صدر هذه النبوات في قولها : إن الربّ جاء من سينا ، وطلع لهـا من ساعيرَ ، وظهر من جبل فاران » . فشهد فولس هذا بأن الربّ الذي قالت التوراة انه جاء من سينا هو النبي ﷺ ، وهو الذي ظهر في بلاد أرابيا . وقد بيّنا آنفاً ان معنى الربّ واقع على الأنبياء والسادات ، وأين يكونُ من الإبانة والإيضاح أكثر من تسمية بلاد أرابيا التي عنى بها بلاد العرب ، لكنها لفظة مستعجمة غير فصيحة ، فانها جعلت مكان العرب الأرب . والثالث ان بيت المقدس هو نظير مكة ، والرابع ان هذا الناموسَ الثاني والفريضة الثانية سماوية لا شكّ فيها ، فقد سماها باسم واحد ولم يفرقْ بينهما بمعنى من المعاني ، فأمّا تقديمه الحرّة وقوله ان ابن الأمَة لم يولد بالعدة فذلك منه بالعصبية والميل ، وفيما استشهدتُ به من قوارع التوراة على اسماعيلَ ما فيه كفاية وبرهان على انه ايضاً وُلِدَ ليس بعدةٍ واحدة بل بعدات كثيرة .

فهذه نبوات متظاهرة ، وأخبارٌ مؤيّدة مخلّدة على وجه الدهر، لايدعيها أحدٌ من غير المسلمين إلا فاز بالسّهْم الأخبث وبالكذب الأعظم ، ولن يفعل ذلك إلا يهوديٌ دامرٌ أو نصرانيٌ هامر، يتعللان به ويخدعان أنفسهما وغيرهما بذكره . فقد بان للنصارى خاصةً ولليهود عامةً استحكامُ غضب الله على بني اسرائيل ولعنه إيّاهم ، وتبرؤه منهم ومن دينهم ، وإعلامه ايّاهم انهُ مُحرق اصلهم الذى تفرعوا منه ، ومبير خضراءهم وغارس في البادية والأرض المعطلة المعطشى غيرهم .

فما أكثر تعجبي في هذا الباب من اليهود ، فانهم يقولون ذلك تفرّجاً به وتحمّلاً بادعائه ويمتلئون غروراً وبطلاناً ، وإنما العجَبُ من النصارى وهم

يشهدون على اليهود ما قلنا صباحَ مَساء ، بأنْ قد قطع الله دابرَهم ، ومحى عن جريد الأرض أثرَهم ، وأبادَ رسْمَ ملتِهم ، فأمّا أمة المسيح عليه السلام فليس لها ان تدّعيَ تلك النبوات التي اختصرْتُ واستشهدتُ بهـا على النبي ﷺ من أسْرِ الملوكِ واستعباد السّادات وسَوْقِهم مُقرّنين بالقيُود والاغلال ، ومن توارُثِ الأراضي القِفارِ البلاقع ، وضرْب الرّقاب ، وإكثار القتل ، والإثخان في الأرض ، وغير ذلك من النّعوت التي لا تليقُ ولا تجـبُ إلاّ لإسماعيل وهاجرَ وعترته ولمكة وحُجّاجها . ولقد صَرّح عدّة منهم باسم النبي ﷺ ووصفوه ايضاً ، وسيّافيه ورُماته ، وسَير المنايا وسباع الطير أمام عساكره ، وازدحام الإبل والقطرات في بلاده ، واصطلامه الأممَ والملوك المخالفين له . فهذه كلهـا محققة لدينه ، ومفخمة لشأنه ، ومُصدّقة لما أدّتْ دُعاتُه عنه ، لا سيما وقد ختم دانيالُ تلك النبوات كلها بما نفى به الشكّ وأخبرَ : ان إلهَ السماءِ يقيمُ ملكاً دائماً لا يتبدّل ولا يزولُ . ومن لم يخْضعْ لمن اختارَه اللهُ وأقامَه فهو المرذولُ الذليلُ .

في الردّ على من ذكر ان المهاجرين والأنصار دخلوا في الدّين من غير آية

فإنْ قال قـائل مثل الذي كان يحتجّ به عمّ لي كان مشهوراً بالجدَل والبراعة ، معروفاً في أفقِ العراق وخراسان بأبي زكار يحيى بن النعمان(٣٢٠) قال في كتاب ألفهُ في الردّ على أهل الأديان : انهُ بحث عن الأسبـاب التي دخلَ فيها عدّة من المهاجرين والسابقين الأولين ، ومن دخلَ معهم في الاسلام

(٣٢٠) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي الساعة من كتب الرجال . الاّ انه كان مسيحيا ، وهذا ما يفهم من كلام المؤلف الذي اعتنق الاسلام . راجع ترجمة المؤلف في أول الكتاب .

من الرّجال والنساءِ ، فلم يجدْ أحداً دخلَ فيه لآية رآها وعلامة أتى بها .
فكانت هذه عندي حجةٌ قويةٌ جداً ما زلتُ مفترّاً بها ، عَمِيّاً عنها، حتى إذا انسلختُ من دينه ، رأيتُ الجوابَ عنها سَهلاً والمخرَج فسيحاً ، إذا عارضناهم بمثلها وجبَت لنا الحجة التي إن أبطلوها بَطلتْ نبواتُ عدّة من أنبيائهم . فليس دُخول جماعة في دين نبيٍّ من الأنبياء من غير آية رأوها مما يُبطلُ سائر آيات ذلك النبي ، ولا امتناعُ النبي من إظهار آية في وقت من الأوقات مما يُوجب تكذيبه .

فهذا حزقيالُ النبي عليه السلام يقول في الفصل العاشر: انهُ أتتهُ جماعة من بني اسرائيل يُريدون امتحانه ويسألون عن أشياء ، فكان جواب حزقيال أن قال : ان الله أعلمني وأمرني ان أعلمكم ان رب الأرباب يقول : إني أقسِمُ قسماً باسمي إني أنا الحيُّ ، واني لا أحير جواباً عمّا تريدون » . فأمّا المسيحُ عليه السلام فقد تبعه وآمن به جماعةٌ كثيرةٌ من غير أن يُظهر لهم آية ، فمن ذلك قولُ متى (٣٢١) الحواريّ في الفصل الرابع من انجيله : انه بَيْنا المسيحُ عليه السلام يسيرُ في ساحل بحر الجليل رأى أخوَين أحدُهما شمعون الذي لقّبهُ الصّفا الذي استرْعاه أمْرَ أمتِه وجعله اساسَ ملّتِه ، وأخاه أندراوس (٣٢٢) وهما يصيدان السمك في البحْرِ فقال لهما ، وأومأ

---

(٣٢١) احلا تلاميذ المسيح الاثني عشر ، كان عشارا في كفرناحوم ، وهو صاحب الانجيل الأول ، كتبه لمسيحيي فلسطين اليهودي الأصل باللغة الآرامية حوالي ٥٠ م.

(٣٢٢) اسم يوناني معناه « رجل حقا » . وهو اسم احد تلاميذ المسيح ، كان موطنه بيت صيدا ، وكان صيادا كأخيه ، وتلميذا ليوحنا المعمدان ..» راجع ترجمته في قاموس الكتاب المقدس .

إليهما اتبعاني أجعلكما بعد يومكما هذا تصيدان الناس ، وأنهما رفضا من فورهما شباكهما واتبعاه .

وقال متّى في هذا الفصل : ان المسيح لما جاوز ما هناك ، رأى أخوين آخرين يقال لأحدهما يعقوب بن زبدي (٣٢٣) ويوحنا (٣٢٤) وهما يصيدان مع أبيهما ، وأنه دعاهما إلى دينه فتركا أباهما في السفينة واتبعاه ، وقال متّى في هذا الفصل : انه لما جاوز المسيح ما هناك ، رأى رجلاً عشاراً يقال له متى ، فقال له : اتبعني ، فتوجه معه يعنى به نفسه ، وهو متى الحواري أحد الأربعة الذين كتبوا الإنجيل . فهؤلاء خمسة من رؤساء الحواريين الأولين المتقدمين ، وهم من الأثني عشر حوارياً ، قد ذكر الإنجيل انهم تبعوا المسيح من غير أن يريهم آية ويسمعهم كلمة مقنعة ما خلا الدعاء الخالي فقط ، فليت شعري ما الذي ضر المسيح من ذلك ، أو ما أنكر عمي ابو زكار ومن قال بقوله من اتباع : من اتبع النبي ﷺ من غير أن يروا منه آية . فان كان ما ذكرنا يوجب إبطال سائر آيات المسيح عليه السلام ، فكذلك يجب إبطال آيات النبي ﷺ لدخول من دخل في دينه من غير آية رآها منه .

ولقد أتى المسيح عليه السلام قوم يسألونه آية ، فليس انه لم يظهرها لهم ، لكنه قذفهم قذفاً وافترى عليهم وعلى قبائلهم افتراء ، يشهد بذلك متى صاحب الإنجيل في الفصل الثاني عشر ، ويخبر ان نفراً من اليهود أتوا المسيح يسألونه آية فقال مجيباً : ان القبيلة الخبيثة الفاجرة تطلب آية ولن تعطى

---

(٣٢٣) أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر والأخ الأكبر ليوحنا . قال في قاموس الكتاب المقدس وهو ابن خالة يسوع ، ترك مهنة الصيد وتبعه ... » .

(٣٢٤) سبقت ترجمته ، وانظر ايضا قاموس الكتاب المقدس .

آية ما خلا آية يونا (٣٢٥) النبي ، فأخبرَهم بأنه لا يُظهر لهم آية البتة لأنهم من القبيلة الخبيثة يعني بها اليهود قاطبة ، فأما آية يونا الذي ذكرها ، فهي لبثه في بطن الحوت ثلاثاً ، وليس هذه من نبوات المسيح بل هي من آيات يونا ، ويونا متقدّمٌ له في الزمان بدهر طويل . وإنما الآيةُ هي ما يُظهرُه النبيُّ لمن شاهَدَه من الأوابد التي لا يقدر أن يأتي بمثلها غيره ، وأنْ يتنبأ على ما غاب عنهُ فيَصحّ في دهره .

فأمّا قولُ القائل : إن آيتي أن موسى فلَق البحرَ وأن المسيح أحيا ميتاً ، فأن ذلك غيرُ مقبول منهُ ، لأنه برهانٌ لغيره لا له ، ومع هذا، فإنه لا يُظنُّ بالمسيح التزندُ والخلف ، ولا انه وعد شيئاً ثم رجع عنه أو قال اني لا أفعلُ أمراً ثم فعله ، لأن قوله لمن سأل الآية من بني اسرائيل ان ذلك ممّا لا تجابون إليه ، لا يخلو من ان يكون قال عن الله أو عن نفسه ، فان كان قاله عن الله فقد فعل اللهُ إذاً خلاف ما قال لهم لأنه قد أعطاهم بعد

---

(٣٢٥) هو يونس عليه السلام، وهو من المرسلين، ويعرف عند أهل الكتاب باسم يونان بن أمتاي . أرسله ربه الى قوم ليسوا من عشيرته لهدايتهم، ويقول بعض المفسرين : انهم أهل نينوى . ولما يئس من هدايتهم وظن ان الله لا يلزمه بالبقاء معهم والصبر على ايذائهم وعنادهم تركهم هرباً، ولم ينتظر أمر الله بمفارقتهم، ثم انه أوى الى سفينة مشحونة بالمسافرين وركب معهم ، ولكن السفينة اضطربت وكادت تغرق حتى اضطر ركابها أن يقترعوا على من يلقى في البحر منهم ، فخرجت القرعة على يونس والقوه في اليم . فالتقطه حوت عظيم . وشاء الله أن يمكث يونس في بطنه يسبح ويستغفر ، الى أن نبذه الحوت بالعراء ، وهو سقيم، فانبت الله عليه شجرة من يقطين فكبرت حتى ظللته ، فلما ذوت وماتت حزن يونس عليها وهي لا قيمة لها ، وقال له ربه : لقد اشفقت على يقطينة ، افلا اشفقت على أهل قرية فيها اكثر من مائة الف لانقاذهم من الضلال ، ثم أرسله اليهم فآمنوا به .

هذا القول آيات على يدي المسيح ، وان كان قاله عن نفسه فقد فعل المسيحُ إذاً خلافَ ما قال ونقَضَ القول الأول ، وهذا ممّا لايليق به ولا يظنُّ بمثله. **فهذا أيضاً ممّا أحسبهُ تحريفاً وفساداً في الانجيل من قبلَ التراجمة والكُتّاب .**

وقال متّى في الفصل السادس عشر : ان اليهود لما رأتهْ يدعو الناسَ ويستميلهم عن اليهودية ، اجتمعتْ إليه وقالت له : بأي سلطان تفعلُ مانرى ومن جعل لك هذا السلطانَ ؟ قال لهم يسوعُ مُجيباً : إني سائلكم ايضاً عن مسألةٍ انْ أجبتموني عنهـا أجبتكم عن مسألتكم هذه ، أنبئوني عن مَعْمُودية يحيى بن زكرياء (٣٢٦) من أين هى أمِنَ السماءِ أم من الأرض ؟ فتوقف القومُ عن الجواب وقالوا : لا نعلم ، فقال المسيحُ : وأنا أيضاً لا أنبئكم بأيّ سلطان أفعل » . فلم نرَه أجاب القومَ عمّا سألوه ، بل عارضَهم بمسألة أخرى فلم يكن لأحدٍ ان يطعنَ عليه به .

---

(٣٢٦) من الانبياء عليهم السلام . كان زكريا قد بلغ من الكبر عتيا، أي بلغ بسبب كبر سنه حالة لا سبيل الى اصلاحها ومداواتها ، وهي اليبس والصلابة في العظام . وكانت امرأته عاقرا وخشي على قومه بني اسرائيل أن يبتلوا بحكم مواليه من بعدهم وهم لا يعملون بالشريعة ولا يتمسكون بها ، فدعا ربه ان يرزقه ذرية طيبة ، فنادته الملائكة ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . وحملت زوجته بيحيى . ولما شب نشأ على أكمل أوصاف التقى والصلاح ، وصار نبيا في سن الثلاثين من عمره ، وكان يدعو الناس الى التوبة من الذنوب ، وكان يعمدهم — أي يغسلهم — في نهر الأردن تطهيرا لهم من خطاياهم . وقد اعتمد منه المسيح عليه السلام ، ولذا فهو يسمى « يوحنا المعمدان » . وقد مات يحيى مقتولا بيد حاكم فلسطين (هيرودس) الذي كان يريد الزواج من ابنة اخيه فعارضه في ذلك ، ولذا قتله ، وكان ذلك نحو سنة ٣١ . وقد ورد ذكره في ٥ مواضع من القرآن الكريم .

وقال متّى في الفصل السادس : ان فيلاطوس [٣٢٧] خليفة ملك الرُّوم، قال له حين رفعته اليهودُ إليه : أقسم عليك بحقّ الله لما أعلَمْتَني أأنت المسيح بن الله أم لا » فلم يزدْه المسيح عليه السلام على أنْ قال له : أنت قلت ذلك » - وليس في قوله هذا إثباتٌ ولا إنكارٌ . فللقائل أن يقول انه أراد به الانتفاءَ والسنْح عن نفسه والتبكيت لمن حكى ذلك عنه ، وإلا فلمَ لم يقلْ اني ابن الله لما سئلَ عنه ، أو يُظهرْ آيةً ليظهرَ الأمر - وخزي اليهود وبهتوا . هذه أيضاً مسألة لم يجب المسيح عنها فلم يزْر ذلك بجلالة شأنه وما تقدّم من آياته .

وقيل في الانجيل الذي هو في أيدي النصارى أن اليهودَ كانت تقول : « انْ كنتَ ابنَ الله فانزلْ عن الخشَبة لنؤمنَ بك » فلمْ يَفعلْ ولم يُظهرْ آية ، فلا نقول لذلك انهُ لم يكن له قبلها آيةٌ لأنهُ كان أعلَمَ بما يُدبرٌ فيه وبما أحبّ اللهُ من ذلك وقدّرَه له .

وأكثر من هذا ما قال متّى في الاصحاح الثاني : انّ الشيطانَ قال المسيح عند امتِحانِ الشيطان إيّاه : ان كنتَ ابنَ اللهِ فقلْ لهذه الصُّخور تصِرْ طعاماً » فلم يزِدْهُ على أنْ قال : مكتوبٌ في كتب التنزيل ان حياة الناسِ ليستْ بالخبز فقط ، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله » .

أفما ترَون يهديكم اللهُ ، ان المسيح عليه السلام وغيرَه من الأنبياءِ قد

(٣٢٧) بيلاطس البنطي : الحاكم الروماني في مقاطعة يهوذا(٢٦ - ٣٦ م) أيام السيد المسيح . وهو الذي أسلمه للصلب (في العقيدة المسيحية) تلبية لرغبة الشعب ، وان كان مقتنعا ببراءته . مشهور بكلمته « ما هي الحقيقة » وبغسله يديه بعد الحكم على المسيح ، مدعيا انه غير مسؤول عن موته . يضرب به المثل للانتهازي الذي يخشى أن يقوم بواجبه .

سئلوا عن مسائلَ ، وطلبَ منهم آيات ، فلم يُجيبوا إليها ، لأن اللهَ لم يكن أذنَ لهم فيها ولم يفتح لهم بابها في تلك الأوقات . فقد سأل التلامذة المسيح عليه السلام عن الساعة فقال : ذاك غَيبٌ مستورٌ عني لا يعلمه إلّا الله وحده ، فلم يَعِبه ذلك ولم يُزْر به . فهكذا النبي ﷺ .

فهذه جواباتٌ ومُعارَضاتٌ مُقنعةٌ مُنصفةٌ وحُججٌ قاطعةٌ لتلك العُلْقة والمسألة التي تعلق بها تلامذةُ عمّي أبي زكّار ومن قال بقوله . على اني لم أَر واحداً مِن علماء النصارى في قديم الدهر وحديثه (٣٢٨) احتجّ على المسلمين بهذه الحجّة غير عمّي ، وقد حلّها اللهُ وفسّرها بمنّه وكرمه ، وبما استفدتُ واستمليتُ من حكمة أمير المؤمنين (٣٢٩) أيّده اللهُ ومعارضاته ومجاوباته . فاستعملوا يهديكم الله الفكرَ ولا تعطلوا الأفهامَ ، واعلموا انكم مخلوقون لخطبٍ جليلٍ وموقوفون على شفير جنة أو نار ، فمن انهارَ به الباطلُ إلى النار فقد هوى في الخزيِ السّرمَدِ والندم الدائم والعذاب الذي وصفه المسيحُ عليه السلام فقال : « انه نارٌ لا تطفأ وديدانٌ لا تموت» . ومن رجّحَ به الحقُّ إلى ساحاتِ الجنة وغرَفِ الفراديس ، فقد سعَدَ وفازَ فوزاً عظيما ، وحازَ الأمن الدائم والغنمَ الذي لا عين رأته ولا أُذن سمعته . فانصحوا أنفسكم ولا تغشّوها واصدُقوها ولا تغرّوها . فقد وَضحَ الحقُّ وَبرحَ الخفاءُ وبان اليقينُ .

في الرد على من عاب الاسلام بسنّة من سننه أو شريعة من شرائعه

فإن طعن طاعن من أهل الكتاب في فريضة من فرائض الدين وسنّة من سنن المسلمين ، حاف علينا وظلم وعاب الأنبياء كلهم وكان بعرض خطيّة

---

(٣٢٨) أي الى زمن المؤلف .

(٣٢٩) يقصد الخليفة العباسي المتوكل على الله .

وعقاب . فإنهم ان عابوا الذبائح فموروثة عن ابراهيم وجميع الأنبيـاء من ولده عليهم السلام ، وإن ذمُّوا الختان فللمسيح ومن قبله ، وان انكروا الطلاق (فكتبهم تخيبهم سعيا) (٣٣٠) ، وان طعنوا في الإقسام بالله فهو قوله تعالى لأنبيائه . قال اشعيا النبي عليه السلام : اني اخرجت القول (البـــاقي في فمي) (٣٣٠) انه تخر لي كل ركبة ويقسم بي كل لسان . وقال فولس – الذي تسميه النصارى رسولاً – (ان الله) (٣٣٠) وعد ابراهيم مـا وعده في ولده وأقسم له بنفسه . وقال دانيال : ان الملك الذي تراءى له رفع يده إلى السماء وأقسم بالمنعم الدائم ان جميع ما قال كائن لا محالة . وان عابوا الجهاد ، فقد جاهد ابراهيم الملوك الأربعة الذين كانوا ساروا إلى بلاد الجزيرة لتشن الغارات على أهلها فذب عن جيرته وخلطائه ، وطحطح عساكرهم بغلمانه وتلاد بيته ، وفاز بفخر ذلك وفلجه ، وباقي ذكره ومذخور أمره (٣٣١) ، فإنه رد على ملوكها جميع ما انقذ من الغنائم والذراري ولم يرزأهم خرزة ولا قدا ، بعد ان كانت ملوكها قد جلت وأسلمت البلاد . وقتل يشوع بن نون احدا وثلاثين ملكا من ملوك الشام ولم يترك في مدينة من مدنها تسمى عاني (٣٣٢) ديارا ولا نفاخ نار ، من غير ان يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم جزية أو اتاوة أو يقبل فدية ، كما يفعل المسلمون .

---

(٣٣٠) الألفاظ بين قوسين نشك في قراءتها، فهي غير واضحة في المخطوط .

(٣٣١) كذا بالأصـــل .

(٣٣٢) كذا بالأصل ، ولعلها « عاي » . قال فـي قاموس الكتاب المقدس : وهي بلدة كنعانية الى الشرق من بيت ايل، والى الشمال من مخماش، على طرف واد على منتصف الطريق بين المكانين ، وتعرف اليوم باسم التل . وقد أغار عليها يشوع وفشل في الاستيلاء عليها لاثم احـد رجاله . ولكن يشوع أعاد الكرة واحتلها وذبح سكانها . وكان عددهم اثني عشر ألفا ، وشنق ملكها على شجرة ، وحرقها . وقد بقيت خربة مدة طويلة ثم أعيد بناؤها . وقد ورد اسم عاي ٢٨ مـرة في الكتاب المقدس » .

وقال اشموئيل (٣٣٣) النبي عليه السلام في الفصل الثاني عشر ان داوود النبي عليه السلام غزا بلاداً من بلدان الشام تسمى فلشت (٣٣٤) فلم يذر فيها رجلاً ولا امرأة إلّا قتلهم وساقَ الغنمَ والبقرَ والحُمُر والجمالَ وانتسف الأموال والذخائر والأثاث من غيرِ أن يدعوهم إلى دينٍ أو إعطاء جزيةٍ أو دخول في طاعةٍ . وذكر كتابُ إشموئيل ان داوودَ جاع يوماً فوجّه عبيده إلى رجُل في طلب طعام فلم تحملْ إليه شيئاً ، فسار إليه في جمعه للإيقاع بذلك الرجل وأهل قريته ، فإذا هو بامرأته قد استقبلته ومعها طعامٌ وشرابٌ قد حملته إليه ، وخافتْ زوجها فيهِ ، فقبل ذلك منها وطابت نفسه وسكن غيظه وانصرف عنهُ . فهذا وما أشبههُ من الأنبياء غيرُ منكر ولا مطعون فيه .

فأمّا النبي ، ﷺ ، فأنهُ أمَر بالدُّعاءِ إلى الله الفَردِ الدائم القهّارِ ، بالترغيب والترْهيب ، ليكونَ الدينُ واحداً والمعبودُ فرْداً ، فمن أجاب كان له ما المُسلمين وعليه ما عليهم ، ومن لم يجبْ إلى ذلك وأعطى الجزْيةَ عن يدٍ صاغراً حقنَ بها دمَه ووجَبَتْ له الذمّة بالطاعة . وكان في ذلك رياضةٌ للكفرة لطيفة ، وتذليلٌ لنخوتهم وخيلائهم ، وداعية لأهل الأنَفَة والحميَّة منهم إلى الإنتقال عن لؤم الذلّ والذمّةِ إلى شرَف العزّ والحرّية ، فإن أبوا ذلك أيضاً كانت الحرب من ورائهم .

فقد فعل موسى عليه السلام ما هو أكثرُ من ذلك ، فإنه لما أُمرَ بالرّحلة

---

(٣٣٣) أي صموئيل ، وهو اسم عبري معناه « اسم الله أو اسمه ايل اي الله » . وصموئيل هو أول انبياء العبرانيين بعد موسى ، وآخر القضاة . مسح في شيخوخته شاؤول بالزيت المقدس . معينا اياه ملكا على اسرائيل، ثم مسح فيما بعد داود ليكون خليفة لشاؤول .

(٣٣٤) لعله يقصد فلشتيم، أي فلسطين . والبلدة المذكورة في الفصل الثاني عشر هي « ربة » ، وقد عرف بها في قاموس الكتاب المقدس .

عن مصر وإخراج بني اسرائيلَ منها ، أخبرهم بأن الله تعالى يأمرُهم انْ يستعيرَ كل امرؤ منهم كسوة جاره وخليطه وحليّ نسائه وبناته ، ويعلموهم بأنهم يريدون عيـــداً من أعيادهم ، ففعل القوم ذلك ، وزينوهم بمـــا عندهم ، وأعاروهم ميسورهم ومعسورهم ، وبنو اسرائيل حينئذٍ زهـاء ستمائة الف مقاتل ، فلمّا اجتمع ذلك عندهم وحصل في أيديهم ،اتخذوا الليلَ جَمَلاً وساروا على بكرة أبيهم ، وفلق اللهُ لهم البحْرَ فعَبروه ، فطَلَبَهم فرعونُ فخـــافوه ، وغرّق اللهُ فرعون وأثلَجَ صدورهم منه ، وأصبَحَ أصحابُ تلك العواري ونسوانهم وبناتهم (٣٣٥) وقد صفرت من عواريهم ، وأودت بذخائرهم عنقاء مغرب (٣٣٦) وعضوا على أناملهم ندماً . فما كانَ ذلك محرماً ولا سحتاً ، بل نفلاً وغنماً ، لأن الدنيا لله عز وجل ، وملكها وزخارفها لمن اختصه بها من عباده كما قال في كتابه : « تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (٣٣٧) . وكما انّ مَنْ فعل ما ذكرنا من الأنبياء ليس بمأزور ولا متحوب (٣٣٨) بل على سبيل مغفرة ورضوان ، فكذلك ما أمر

---

(٣٣٥) أشك في قراءة هذه الكلمة .

(٣٣٦) العنقاء : الداهية . وعنقاء مغرب، طائر مجهول الجسم لم يوجد . ويقال في الأخبار عن هلاك الشيء وبطلانه : حلقت به في الجو عنقاء مغرب اي، هلك وبطـل .

(٣٣٧) قال تعالى : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك علـــى كل شيء قدير » (آل عمران : ٢٦) .

(٣٣٨) أي آثم أو مذنب .

الله به محمداً ﷺ من مجاهدة المشركين وشن الغارات على الـكافرين . فلولا الجهاد لما قام دين ، ولا أمن حريم ، ولا سد ثغر ، ولصار المسلمون نفلاً وخولاً لأعدائهم . وقلّ ما تلبث الناس على ملة هذا حال أهلها حتى ينتقلوا إلى ما هو أعز وأوسع منها .

ولقد كان المسيح عليه السلام نهى عن الحرب وحذر اسبابها في قوله : من سحبك ميـــلا فانسحب معه ميلين ، ومن سلبك قميصك فادفع إليه رداءك أيضاً ، ومن لطم خدك فحوّل إليه الخد الآخر » . فلما كان ذلك من اوامر المسيح لم يُبق لأمته ديناً ولا دنيا ، ووهب لأمة اخرى ميراثهم (٣٣٩) . فهم اثاروا الحرب شرقاً وغرباً ، وأرثوها تأريثاً بالحراب والسيوف حتى بلاد الروم وفرنجة والتوران اهل الخيم وأرمينية ، ومَن منهم في بلاد الترك ما خلا مَن كان منهم منتشراً بين الامم قليلا ذليلا مثل النسطورية (٣٤٠) . ومَنْ بين

---

(٣٣٩) الكلام مضطرب في هذه الجملة ، ولسنا متأكدين من قـراءة بعض كلماتهـا .

(٣٤٠) بدعة ظهرت فـي القرن الخامس الميلادي . قال بهـا نسطوريوس (٣٨٠ ـ ٤٥١ م) بطريرك القسطنطينية حين اعترض على تسمية مريم العذراء بـ « أم الله » وقـد عارضـه كيرلس الاسكندري (بطريرك الاسكندرية ٤١٢ ـ ٤٤٤ م) . وانعقد بسبب هذه المشكلة مجمـع أفسس سنة ٤٣١ م فحرم نسطوريوس . ولا يزال للنسطورية أتباع في العراق وايران والهند ، وطقوسها سريانية شرقية ، وتدعى أحيانا بالكنيسة الأشورية .

ظهراني العرب من اليعقوبية (٣٤١) والملكية (٣٤٢) . ثم رأينا ان المسيح عليه

---

(٣٤١) فرقة مسيحية تنسب الى يعقوب البردعي (أسقف الرها ٥٤١ — ٥٧٨ م) انفصلت عن كنيسة انطاكية على اثر المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح ، وتنظمت في سورية وفي بلاد ما بين النهرين بفضل يعقوب ، فنسبت اليه .

يدور مذهب اليعاقبة على القول بأن المسيح هو الله والانسان، اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح . ومذهبهم كما عرفه المسلمون، بينه لنا الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » فقال انهم قالوا بالاقانيم الثلاثة ، ولكنهم قالوا بأن الكلمة انقلبت لحما ودما ، فصار الاله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده ، بل هو هو ، ومنهم من قال بان المسيح هو الله ، ومن قال بأن اللاهوت ظهر بالناسوت، فصار ناسوت المسيح مظهر الحق، لا على طريق حاول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة ، بل صار هو هو .

وأكثر اليعاقبة يذهبون الى ان المسيح جوهر واحد واقنوم واحد ، ولكنه جوهر من جوهرين، أو هو طبيعة واحدة من طبيعتين ، احداهما الهية ، والأخرى انسانية ، ولكنهما تركبتا كما تركبت النفس والبدن .

ومن علماء المسلمين الذين عرضوا لمذهب اليعاقبة وناقشوه غير الشهرستاني، الباقلاني في كتابه « التمهيد » وأبن حزم الاندلسي في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » .

(٣٤٢) الملكية أو الملكيون أو الملكانية : طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي منتشرة في سورية وفلسطين ومصر . سموا الملكيين لأنهم خضعوا للمقررات التي اتخذها المجمع الخلقيدوني (سنة ٤٥١ م) ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية (القائلة بطبيعة واحدة للمسيح) فلقبهم مخالفوهم ازدراء لهم بالملكيين لوقوفهم في صف الملك مرقيان (حوالي ٣٩٠ — ٤٥٧ م) الذي كان يعاضد المجمع .

انضم فرع منهم الى الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثامن عشر ويسمون « الروم الكاثوليك » ، وهؤلاء يعترفون برئاسة بابا روما ، والفرع الثاني هو الروم الأرثوذكس ، وهم لا يعترفون بهذه الرئاسة، ولغتهم الطقسية اليونانية والعربية .

السلام قد رخص بآخرةٍ في اتخاذ السيوف ونسخ به الأمر الأول ، وذلك في قوله لتلامذته : « ليبع كل امرؤ منكم ثوبهُ وليشتر لنفسه سيفاً » وفي قوله : « لا تظنوا أني جئت لأزرع سلماً بل حرباً » فمن عاب أهل الإسلام بما قد استحسنهُ واستن به من ذكرنا من الأنبياء فقد ظلم .

فإن أنكر منكر قول النبي ﷺ ان في الآخرة أكلاً وشرباً ، فقد ذكر المسيح عليه السلام لتلامذتهِ ، مثل ذلك حين شرب معهم وقال لهم : اني لستُ شارباً من ابْنَة هذه الكرْمة حتى أشربها معكم تارةً أُخرى في ملكوت السموات » . فأخبرَ ان في الملكوت شراباً وشُرْباً ، وحيث يكون فيه الشربُ لا يُستنكر فيه المأكلُ واللذاتُ . وقال لوقا في انجيله عن المسيح عليه السلام انه قال : « ستأكلون وتشربون على مائدة أبي » . وقال يوحنا عن المسيح عليه السلام : « ما أكثر الغرف والمساكن عند أبي » . فهذه كلّها تصحح الأكل والشرْبَ في الآخرةِ والغرَفَ والنعيم [٣٤٣] . كما قال الله عز وجل في كتابه « وجنات لهُم فيها نعيمٌ مقيمٌ [٣٤٤] » .

في الردّ على من انكر مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم موسى والمسيح عليهما السلام في تغيير سنن التوراة والانجيل

وانْ ذكرَ ذاكرٌ منهم من المتعمقين في العلم ، ان النبي ﷺ ، آمن بالتوراةِ والإنجيل قولاً وخالفهما فعلاً ، فكان في تثبيته ايّاهما مرّةً وتكذيبه بما فيهما أُخرى دليلٌ على التناقض ، قلنا : ان الله تبارك وتعالى حكيمٌ عليمٌ رحمان رحيمٌ ، الخلْقُ له والمَرْشدُ منهُ والحوْلُ والقوّة به ، وليس للعبادِ

---

(٣٤٣) هذه الكلمات غير واضحة بالأصل . ولعل ما أثبتناه هـو الصحيح .
(٣٤٤) قال تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم أعظم درجة عند الله ، واولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها ابدا ، ان الله عنده أجر عظيم » (التوبة : ٢٠ ــ ٢٢) .

الاعتراضُ عليه فيما يأمُر به والدُّخول في سابقِ علمه وخفيٌّ تدبيره ، بل الانقيادُ والسَّمْعُ ، فقد قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام : ان الله يقيم نبياً من بين إخوتِكم مثلي فاسمَعوا له ، فإن من لم يَسمعْ له كنتُ أنا المنتقم منهُ » فقد ظهر النبيُّ عليه السلام من بين إخوة اليهود ، واستنَّ بسُنن الله ، وصدَّق بموسى وقال : انه كَليمُ الله ، وبعيسى وقال: انه روحُ الله وكلمته اصطفاه الله وشرَّفه ورفَعَه إلى السماءِ فهو عنده . ولم يخالِفْ موسى في التوحيد ولم يجَمْحمْ ولم يُهَمْهِمْ كما فعلت النصارى ، بل باحَ به وصرَّح ، وأخلصَ الإيمانَ وجرَّدَ القولَ ، ووافقه سائرُ الأنبياء في القبْلَة والطلاق والختان ومحاربة الكفرة والذبِّ عن البنين والقصاص ، وأكثرَ الذبائح لله تعالى وحده ، وجدَّد لأمته سنناً وفرائض توافق أمر الله (٣٤٥) . فعلى العباد السمعُ والطاعة لله فيه .

ولو كان للناس مَساغ إلى المثـالب والاغتماز في مثل ذلك من أمور الله وتدبيره ، لكان للقائل ان يقولَ ممـا عليه المسيح ايضاً أنه صدَّق بالتوراة مرَّةً وقال لم أجيء لأنقضَها بل لأتممها ، وقال ايضاً : حقاً أقول انه لايبطل حرفٌ منها حتى تبطل السماءُ والأرضُ ، ثم خالف موسى صراحـاً ، ونبَذَ التوراةَ جانباً ، حتى وجدَ علماءُ أمته سبباً إلى أن قالوا مُصرحين جاهرين، ان العتيقة عبرت وسلفت وجاءت الحديثة وظهرت ، يعنون بالعتيقة التوراة ونواميسَها وسـائرَ كتب الأنبياءِ ، وبالحديثة الإنجيلَ وكتبَ الحواريِّين . وإنما عِمادُ التوراة ومَلاك اليهودية وسننها وختانها وذبائحُها وأعيادُهـا وقصاصُها وأحكامها وكهنتها ومذابحها فقد أهدر المسيح عليه السلام ذلك كلهُ ، وأزْهَقَه فلم يدَعْ لهم عيداً إلَّا أبطله ، ولا سَبْتاً إلاَّ حلَّه ، ولا ختاناً إلاَّ دمثَ في رَفضِه ، ولا ذبيحةً إلا نهى عنها ، ولا مَذْبحـاً إلاَّ عطَّله ، ولا كاهناً إلاَّ فجره وفسَّقهُ .

---

(٣٤٥) توجد هنا كلمات غير واضحة بالأصل ، ولعل ما اثبتناه هو الصحيح .

قال متّى في الفصل الثالث عشر : انّ المسيح عليه السلام كان يسير بين الزُروع في يوم سبْتٍ ، فجاع تلامذته ، فجعلوا يفركون السنبلَ ويأكلونه ، فلم يُغير ذلك ولم ينكره . وقال متّى في هذا الفصل : ان المسيح قال مؤمئاً لمن حضره من بني اسرائيل : سمعتم التوراة تقول ان من طلق امرأته فليقدّمْ لها كتاب الطلاق ، أمّا أنا فأقول لكم انّ من طلّق امرأتَه إلاّ لسبب الزّناءِ قد عرَضها للزّناء ، وان من تزوّج مُطلّقةً فإنه قد فَجَر. وللقائل أن يقول منكراً لهذا القول: فما يصنعُ بمَن سَحَرتْ أو كفَرتْ أو سمّتْ أهلها أو قتلت ولدها أو جاءَها ، أيُطلقها بتلك الخِصالِ ؟ فكيف ؟ ولم يكنْ ذلك ؟ وانما أوجب الطلاقَ على الزناء فقط .

وقال في هذا الفصل : قد سمعتم ما قيل في التنزيل ، ان السّنّ بالسّنّ والعَينَ بالعَينِ ، فأمّا أنا فإني أقول لكم : ان مَن ضربَك على خدّك فولّه الخدّ الآخَر ، ومَن سألك شيئاً فلا تَمنَعْه » . وقال فولس — وهو المقدَّمُ المُطاعُ عندهم — أن ليس الختانُ بشيءٍ ولا الغرلة [٣٤٦] بشيء » فأبطلَ بذلك الختان صراحاً. فهذه وغيرها من المسيح ﷺ غير مُنكَرٍ ولامردودٍ ، وكذلك ما جدّد النبيُّ ﷺ من السُّنَنِ أو زاد أو نقّص من سُنَنِ التوراة والإنجيل غيرُ مُستنكرٍ ولا مَذموم .

في الردّ على من زعمَ ان القيامة لم يذكرْها أحدٌ غير المسيح عليه السلام

وقد قالتِ النصارى انه لم يُعرّفْ القيامة ولم يُبشرْ بالبعثةِ والنشورِ غيرُ المسيح ، وقد لعمري بَشّر بها وصرّح بالقولِ فيها وشرّفه اللهُ تشريفاً يَفوقُ السبّقةَ ، غير ان الأنبياء قبله قد كانوا يعرفونها ويذكرونها ، قال

---

(٣٤٦) القلفة ، جلدة عضو التناسل .

موسى النبي عن الله تعالى : أنا وحدي وليس سواي إله أنا أميت وأنا أحيي».
وهذا داوود النبي يقول في الزبور : ان الجبابرة يبعثون وينشرون ويحمدون لك يا رب ، ويخبرون ان في القبور نعمتك » . وقال الله تبارك وتعالى على لسانه : إني ناشرهم وباعثهم من بين أسنان السباع ومن لجج البحر » . وقد قال دانيال النبي عليه السلام انه سيبعث من الأجداث قوم كثير بعضهم إلى الحياة الدائمة وبعضهم إلى البوار لتوبيخ نظرائهم إلى الأبد » . وقالت حنة النبية عليها السلام في كتاب إشموئيل النبي عليه السلام : إن الرب يميت ويحيي وينزل إلى القبر وينشر منه » . قال الله عز وجل لدانيال عليه السلام : اذهب واضطجع للأمر المحتوم ، فإنك ستقوم في الوقت الموقت لك في آخر الدهر » .

وقد علمتم يهديكم الله ، إن إجماعنا وإجماعكم على أن الله عدل يحب العدل وأهله ويأمر به ، ونهى عن الحيف والجور ، ومن العدل والنصفة أن ترجعوا إلى الاسباب التي بها قبلتم دينكم وتنظروا ما هي ، فإذا صح عندكم انها ليست إلا أخباراً ممكنة غير ممتنعة ، ومحمودة غير مذمومة ، أداها إليكم خلف عن سلف ، وآخر عن أول ، فبمثل تلك الاخبار قبلنا النبي عليه السلام . على ان من أدى تلك الاخبار إليكم لم يكن فيهم أحد ادعى انه أخذها عن من شاهد المسيح أو موسى عليهما السلام من آبائه وأجداده ، كما تدعي العرب عن آبائها وأجدادها الذين شاهدوا النبي عليه السلام ، فإن الرجل منهم يحدثه عن جده أو جد جده أو بعض أهله بما رأى وأداه إلى أعقابه ، فأما أخباركم فإنها أداها إليكم عراقي عن جزري عن شامي ، وشامي عن عبراني ، وفارسي عن رومي ، ومشرقي عن مغربي ، بأسباب مظلمة متفاوتة . فبماذا تحتجون أو تعيبون على من قال : إنما قبلت هذا الدين وآمنت به بمثل الدلائل والشواهد التي قبلتم بها دينكم ، أو قال : اني لما رأيت أمة من الامم ، عظيمة الشأن ، جليلة الخطب ، في كثرتها وعزها

وطهارتها وفطنها وعفتها ، يخبرونا عن آبائهم وأجدادهم بما ذكرنا ، ويأتون بكتاب يتوارثونه قرناً فقرنـاً ، يدعو إلى توحيد الله وتكبيره والإيمان برسله وأنبيائه ، والتكذيب بالشركاء والأنداد ، ويأمر بمحاسن الأمور ومعاليها ، وبما يوافق سنن الأنبياء ومواريث عهودها ، وينهى عن الشر وأهله وأصله ، ويخبرنا بأحداث قد صحت في زمان بعد زمان وحقبة بعد حقبة . ثم وجدت (٣٤٧) كتب من تؤمنون به من الأنبياء تشهد له ، وتتنبأ على دولته ودينه بما قد بيناه ، فدخلت فيه وأملت ما عند الله به .

فإن زعمتم ان من كان هذا نعته ونبوته وفضله ودلائله لا يجب قبوله ، بطل جميع ما تدعون ، وصرتم إلى الكفر بكل ما به تؤمنون . فإن اعتللتم بالثنوية والوثنية ونظرائهم ، وما ينقلون عن أئمتهم ويخبرون عن دعاتهم وغواتهم ، وما يوجد في زبرهم وأسفارهم من تحقيق أخبارهم ، فقد تقدم من قولنا في ذلك في صدر الكتاب ، ما لا يتصامّ عنه إلا من كان همه المحاجزة والشغب ، ودينه المعاندة والإصرار . لأن أولئك قد ناقضوا ودعوا إلى النجاسات والضلالات ، فضلوا وأشركوا بالله فهلكوا . ولا يقاس أمثالهم بمن كان إمامه الحق ، ومنهجه الرشد وشعاره التأله والزهد ، ودعوته إلى إله واحد فرد ، إله ابراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، ومن تنبأ الأنبياء عليه بما قد وضح .

فذروا التظني والإعتلال يا بني عمي ، تلاقاكم الله ، واسلكوا أسلم الطرق وأهداها ، وجانبوا أضلها وأرداها ، فإنكم إذا تدبرتم ذلك ، صح لكم ان الأسباب والعلل التي بها قبلنا نحن نبوة النبي عليه السلام ، هي أسبابكم وعللكم التي بها قبلتم المسيح وموسى عليهما السلام ، فإن كنا نحن في ذلك مخطئين ، ولعقوبة الله متعرضين ، فكذلك انتم ايضاً. فناظروا

---

(٣٤٧) في الأصل وجدنا

أنفسكم ، وحاكمونا إلى عقولكم وأذهانكم ، واحتجُّوا لنا ولكم ، وعلينا وعلى أنفسكم ، لينكشفَ عنكم الغطاءُ ، وترَون عيْنَ اليَقين بتوفيق الله .

وان عاب النبيّ عليهِ السلام عائب فقال : انهُ عليهِ السلام نسَبَ الشرَ إلى الله ، فقد قال في عدْل الله ورحمتهِ وطوله ما قد ذكرْته في صدْر هذا الكتاب ، وقال الله تباركَ وتعالى لموسى عليه السلام : إني جاعل َقلْبْ فرعونَ قاسياً لئلا يخْرجكم من أرض مصر » . وقال اشعيا النبي عليه السلام : ان اللهَ خلَقَ السلامة وبرأ الخير والشر جميعاً » . وقال فولس ـ المقدّمُ عندهم المطاعُ ـ في رسالته إلى طِمْاثاوس(٣٤٨) ان البيتَ العظيمَ ليس يكون فيه أواني الفضة والذهب فقط ، بل يكون فيه أواني الخشَب والفخار ايضاً منها للكرامة ومنها للهَوان» . يعني الدنيا ومَنْ فيها من سعيد وشقيّ .

(٣٤٨) تيموتاوس : تلميذ بولس ورفيقه في رسالته . أقام في أفسس على بحر ايجه حيث وجه اليه بولس رسالتين . وقال في قاموس الكتاب المقدس ان الاسم يوناني معناه عابد النار .

خاتمة

وأنا أسألكم يرشدكم الله في خاتمة كتابي هذا عن مسألة جامعة قاطعة مقنعة ، ما تقولون في وارد لو ورد هذا الإقليم من أفق الهند والصين، يرتاد رشداً ويسأل عن الأديان التي فيه ويستخبر عن سالك أهله ، فقيل له ان منهم أهل ملة يسمون المجوس يعبدون الكواكب والنيران ، ويزعمون ان الله خالق الخيرات والنور ، والشيطان خالق الظلمات والشر ، وان الحرب غير راكدة بينهما لا يستريحان ولا يسكنان ، على انهما لا يبلغان ما يريدان فيهما عاجزان مبهوتان ، وان محبة الله ورضاه ، في نكاح الأمهات والبنات، والتطهر بأبوال البقر المنتنة ، والإعتكاف على الجون والزفن ، وان أرواح موتاهم ترجع إليهم في كل سنة مرة ، فهي ترزأ مما يوضع لهـا من مطعم ومشرب ، وتتزود منه عند انصرافها ، وهنات من نحو ما ذكرنا في صدر الكتاب مجهولة ، وسير مستقذرة ، ونقمات من الله ظاهرة ، ونبوات قد نطقت بها كتب الأنبياء فيهم قديمة ، قد بينتها آنفاً .

وان منهم قوماً يقال لهم الزنادقة (٣٤٩) دينهم يضاهي هؤلاء، ويتقدمه ضلالة وجهالة ، وقذراً ونجاسة وخساراً .

---

(٣٤٩) جمع زنديق . كلمة معربة عن الفارسية . أطلقها الفرس قديما على الخارج على دين الدولة ببدع معينة ، اهمها القول بأزلية العـالم . أطلق على المتشككين ، وكل متحرر من أحكام الدين فكرا وعملا .

ومنهم أهل ملة يسمون النصارى ، منهم طائفة تزعم ان الله لما رأى الشيطان قد علا شأنه ، واستفحل أمره ، وعجز الأنبياء عن مناواته ، وجد ابناً له أزلياً قديماً منفرداً بخلق الخلائق كلها فدخل في بطن امرأة ثم ولد منها ونشأ وناهض الشيطان ، فأخذه الشيطان وقتله ثم صلبه على يدي شرذمة من أحزابه ، وقالت طائفة منهم بل المقتول هيكل هذاالابن ومسكنه لأنه صار مع ذلك الإنسان شيئاً واحداً ، فأكل ذلك القديم بأكل ذلك الحديث ، وتغوط بتردده وتغويطه وقتل بقتله .

ومنهم أهل ملة يسمون اليهود ، في أيديهم كتب قوم يسمونهم أنبياء ، ويحكون عنهم انهم قد لعنوهم ، ويذكرون ان الله قد تبرأ منهم ومقت دينهم وشرد بهم في الآفاق وأطفأ نورهم وأقسم أنه لا ينعطف أبداً عليهم.

ومنهم أهل هذه الملة الطاهرة العالية الذين يقال لهم المسلمون ، يقولون: إن الله فرد دائم لا شريك له ولا غالب ، بل له الجبروت والملك الدائم ، لا ولد له ولا والد ، وهو الرحمن الرحيم ، الأول والآخر . وان نبيهم فرض عليهم عن الله بر الوالدين ، والصوم والصلاة ، والنقاء والطهارة ، وحلل لهم الطيبات وحرم الخبيثات ، ووعد الجنة ، وحذر النار .فأي هذه الملل والأديان كان يحب ان يؤمن به ذلك الهندي والصيني ؟ وإلى أيها كان يركن وأيها يستحسن إذا كان وافر الرأي سليم الطبع مريداً للحق المحض لا غيره ؟ أو ما حجة الله على عبد من عباده لو قال له — وهو العدل الرحمن الذي لا يظلم مثقال ذرة أحداً — إلهي اني سمعت منادياً ينادي إلى توحيدك ويكبرك ويحمدك ويمجدك فأجبت ، ورأيته يأمرنا بالإيمان بانبيائك وأصفيائك ويفرض الصلاة والصوم والزكاة فأطعت ، ورأيته قد قطع إرباً من آرابي ، وآراب كرائمي وأحبائي فقطعت تأميلاً لما عندك وتذللاً لأمرك ، ورأيته يحث على الحج من البلد الشاسع البعيد فحججت ، وأتيت ثم وما ونيت . ورأيته يحض على جهـــاد أعدائك الكافرين بك

ودُعاءهم إليك ، فدعوتُ وجاهدتُ وابتغيتُ بذلك كله وجْهَك فما نهنهتُ ولا مَلَلْتُ . ورأيتُ أدياناً ومِلَلاً مُستنكرةً مجهولةً ، على مـا شرحتُ آنفاً ، فأطرَحتُ ذلك كله جانباً وتبرأتُ منه ، وتعلقت بما ظننتُ انه العروة الوثقى والمنهج الأقوم الذي يرضيك ، فإن كنتَ إلهي قد جهلتُ فيما اخترْتُ وتياسرتُ عمّا نويتُ ، فإنك أحقُّ من رحِمَ عبده الذي استفرغ في طلب ما عندك جهده فأخطا السبيلَ إليك .

فهذا يا بني عمّي قول مقبول ، وعذْر غير مردود ، عند العباد المنقوصين المتعَنتين . وكيف عند أرْحم الرّاحمين أعدْل الحاكمين الذي لايُكلف نفساً إلاّ وُسْعَها ؟ فتبينوا يهْديكم اللهُ هذه الحججَ والأمثـالَ ، وباينوا الأهواءَ المرديةَ ، وأزيغوا عن أبصار غشاوتهَا وعن قلوب أكنتها وأقفالهـا . واقتصِروا من بين الأبوابِ التي كتبْتُ على باب النبوة فقط ، أو على أخبار هؤلاء الأبرارُ من دُعاةِ النبي عليه السلام ، أو على باب الغَلبَةِ الظاهرة التي كانت باسم إله ابراهيم ، أو على هذا الكتاب الناطق وما له من الفضـائل التي قد بينتها من فوق ، أو على تلك النبوّات نبوّةً نبوّةً ، وخَبراً خَبراً ، وما شرحْتُ من معانيها وتأويلاتها ، واقبَلوا مني ، فقد نخلتُ لـكم نصحي ، واعلموا اني لم أردْ بما كتبتُ تفاخراً ولا تكاثراً ، بل مـا عند الله الذي لا يخيب راجيه ، وما فيهِ من مُوافقةِ خليفَته وعبده جعفر الإمامِ المتوكل على الله أمير المؤمنين أيّده اللهُ .

وأمّلتُ بذلك من خيار المسلمين وكِرامِهم ، وعُقلاء أهل الذمة وأماثلهم الشكرَ والمحبة ، إذ كنتُ قد بينتُ لعوامّهم ما استبنتُ ، وكشفتُ لهم ما استبطنتُ ، وأفهمتهم مـا فهمتُ ، ونويتُ مشاركتهم في النور الذي أوتيتُ والفوز الذي أملتُ ، فخيرُ ذلك وربحه لي ولهم انْ كنتُ أصبتُ ،

ومكروهه عليّ دونهم ان كنتُ أخطأتُ فيما قلتُ ، أسأل العصمة ودوام التغميدية ، وأعوذ من أسباب الغفلة ، وأرغبُ إليه في إقالة العثرة ولباس الستر والسلامة والعاقبة لي بما أملتُ منه عاجلاً وآجلاً فيما ألفتُ وقلتُ .

* * *

وقد تمّ في كتابي هذا الذي سمّيته « **كتاب الدّين والدولة** » فسادُ اليهودية وبطلانُها ، ومخازي الثنوية والدهرية وضلالها ، ليتبيّن الناظرُ انكسارَها وانكسافها ، وان النورَ الساطعَ والإيمان الهادي هو الإسلامُ وحده .

ولله الشكرُ على ما هداني ، ثم لعبده وخليفته ، جعفر المتوكل على الله امير المؤمنين أطال الله بقاءه ، على ما ندبني له ، واجترّني وغيري من أهل الذمة إليه ترغيباً منه وترهيباً ، واحتساباً وحباً منه للناس كافةً . ولذلك صيرّت البابَ الأوّل من كتابي هذا في وصف ما شعرت أمتي من مكارمه ، وآثار نعمته ، ورفق سياسته ، ويمن دولته ، وكثرة فتوحه ، وما يجبُ على أهل الملة والذمة من حبّه وطاعته وشكره .

والسلام على من اتبع الهدى ، وألفَ التقوى ، وأحبّ السلامةَ والفلاح ، وحزّب لهما وحضّ عليهما » .

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان

ن

هـ

و

ي

فهرس الأمم والشعوب والقبائل والدول

فهرس الاديان والمذاهب والفرق

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الكتب الواردة في الكتاب

باستثناء المراجع

مصادر تحقيق الكتاب

إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء	للخضري	مصر ١٣١٧ هـ
الأحواز ـ عربستان	الحلو	بغداد ١٩٦٩
أخبار الدولة العباسية	(تحقيق الدوري والمطلبي)	بيروت ١٩٧١
إخبار العلماء بأخبار الحكماء	للقفطي	
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب	لياقوت	مصر ١٩٢٥
الاستيعاب في أسماء الأصحاب	لابن عبد البر	مصر ١٩٣٩
أسد الغابة في معرفة الصحابة	لابن الأثير	مصر ١٢٨٠ هـ
الاسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي	مصر ١٩٣٦
أشهر مشاهير الاسلام	لرفيق العظم	مصر ١٣٤١ هـ
الاصابة في تمييز الصحابة	لابن حجر	مصر ١٩٣٩
أعيان الشيعة	لمحسن الأمين	الأجزاء الخمسة الأولى
الامتاع والمؤانسة	لأبي حيان التوحيدي	مصر ١٩٣٩
إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون	للحلبي	مصر ١٢٩٢ هـ
البدء والتاريخ	للمقدسي	شالون ١٩١٦
البداية والنهاية	لابن كثير	مصر ١٣٥٨ هـ
البيان والتبيين	للجاحظ	مصر ١٣٦٩ هـ

بيت الصديق	للبكري	مصر ١٣٢٣ هـ
تاريخ الأمم والملوك	للطبري	مصر ١٩٣٩
تاريخ حكماء الاسلام	للبيهقي	دمشق ١٩٤٦
تاريخ الخميس	للديار بكري	مصر ١٢٨٣ هـ
تاريخ طبرستان (بالانجليزية)	لابن اسفنديار	
تفسير ابن كثير		
تفسير القرطبي		
تفسير المنار	رشيد رضا	مصر ١٣٥٣ هـ
تهذيب تاريخ ابن عساكر	لبدران	دمشق ١٣٥١ هـ
حلية الأولياء	لأبي نعيم	مصر ١٣٥١ هـ
حياة محمد	هيكل	مصر ١٩٣٥
دائرة المعارف	للبستاني	
دائرة معارف القرن الرابع عشر	وجدي	مصر ١٩١٤
الروض الأنف	للسهيلي	
السيرة النبوية	لابن هشام	مصر ١٩٣٦
الصابئون في حاضرهم وماضيهم	عبدالرزاق الحسني	صيدا
العبر (تاريخ ابن خلدون)		بيروت ١٩٥٦
عصر المأمون	الرفاعي	مصر ١٣٤٦ هـ
عيون الأثر	لابن سيد الناس	مصر ١٣٥٦ هـ
عيون الأنباء في طبقات الأطباء	ابن أبي أصيبعة	بيروت ١٩٦١
فقه السنة		
الفقه على المذاهب الأربعة		
الفهرست	لابن النديم	طهران ١٩٧١
القاموس	للفيروزآبادي	مصر ١٣٣٠ هـ
القاموس الاسلامي		

قاموس الكتاب المقدس		
القرآن الكريم		
الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)		
الكشاف عن حقائق التنزيل	للزمخشري	مصر ١٣١٩ ﻫ
كنوز الأجداد	لكرد علي	
المحبر	لابن حبيب	الهند ١٩٤٢
مروج الذهب	للمسعودي	بيروت ١٩٦١
معاجم الألفاظ والأعلام القرآنية		
معجم البلدان	ياقوت	بيروت ١٩٦١
مقارنة الأديان	أحمد شلبي	مصر ١٩٥٧
الملل والنحل	للشهرستاني	مصر ١٢٢٠ ﻫ
هدية العارفين	للبغدادي	استانبول ١٩٥٧

عدا الكتب الانجليزية المذكورة في المقدمة

المحتوى

الموضوع	الصفحة

تصويب :

وقع في الصفحة ١٤ السطر ١١ « وهلـّك الله هارون »

الصواب : « وملـّك الله هارون »



THE BOOK OF RELIGION AND EMPIRE

